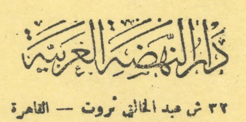
دراسات
في
الحضارة الإسلامية

تأليف

دكتور حسن الباشا

١٩٨٨

الناشر



٣٢ ش عبد الخالق ثروت — القاهرة



دراسات
في
الحضارة الإسلامية

تأليف

دكتور حسن الباشا

١٩٨٨

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ ش عبد الخالق ثروت — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

أسس الحضارة الإسلامية

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الإسلام بدأت تظهر حضارة جديدة مرتبطة بالإسلام كدين ودولة وتاريخ سواء فى نشأتها أو خلال نموها أو حين ازدهارها وصار لها أثر كبير فى تقدم البشرية يفوق أثر أية حضارة أخرى من الناحية الإنسانية .

ونبعت هذه الحضارة الإسلامية من أصول وأسس كان لكل منها دوره فى نشأتها وخصائصها ومثلها أهمها القرآن الكريم ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته ، وأمة العرب ، واللغة العربية والشعوب التى اعتنقت الإسلام والإطار الجغرافى بالإضافة إلى بعض التأثيرات الأجنبية التى وصلتها من الحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها .

أولا — القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو الأصل الرئيسى الذى نبعت منه الحضارة الإسلامية إذ كان المصدر الأساسى للإسلام الذى تنسب إليه وشريعة المسلمين .

ولقد نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم منجما مفرقا على طول الثلاث والعشرين سنة التى ظل يدعو فيها إلى الله سبحانه وتعالى . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ كتبة يدونون الآيات عند نزولها ، كما كان المسلمون يقبلون على حفظها عن ظهر قلب ، وهكذا استخدم فى حفظ القرآن الكريم وسيلتان هما الحفظ والتدوين ، ثم قرر ترتيب سوره وآياته بشكل نهائى قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يلبث أن جمع القرآن الكريم فى خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه من واقع المدونات التى كانت لدى كتبة الوحى

وبمساعدة حفظته المشهود لهم بالتقوى وقوة الذاكرة . وفى عهد عمر رضى الله عنه حفظ المصحف الكريم عند ابنته حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد عثمان رضى الله عنه دون منه نسخ فرقت فى الأمصار باعتبارها النسخ المعتمدة دون غيرها[1] ، ثم تداول المسلمون هذه المصاحف ونسخوا منها ما احتاجوا إليه . وكان النساخ يتحرون منتهى الدقة فى النسخ والمطابقة وما زال المسلمون حتى اليوم يحرصون كل الحرص على نسخ القرآن سواء بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل وهكذا ظل القرآن سليماً من أى تحوير أو خطأ وصدق الله وعده : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

وفى القرآن الكريم يكمن سر أصالة الحضارة الإسلامية وعظمتها : فهو كتاب الله يهدى للتى هى أقوم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه خير البشر سواء من الناحية الروحية أو العقلية أو الاجتماعية فهو يدعو إلى عقيدة حقة تقوم على الوحدانية ، عقيدة واضحة خالية من التعقيد والغموض والأوهام : «قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد» .

وفى تعاليم القرآن سعادة البشر إذ ينظم المجتمع على أسس سليمة تضمن له الأمن والرخاء والسعادة ، وهو يضمن حرية الرأى والعقيدة : «لا إكراه فى الدين» ويدعو إلى التعارف والتحاب «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وينص على المساواة «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وينصف المرأة ويؤكد حقوقها وكيانها ولأمر ما ضرب الله المثل للكفار بامرأتين وللمؤمنين بامرأتين :

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع

(١) محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف مجلة المجمع العلمى العراقى المجلد ٢٠ ص ٩ - ١٣ .

الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » ولقد كانت المرأة هى أول شهيد فى الإسلام(١) .

والحق أنه لمن المتعذر استقصاء فضائل القرآن الكريم التى قامت عليها الحضارة الإسلامية ، ويكفى أن نستشهد بقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

ثانياً — سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسنته :

الأساس الثانى الرئيسى الذى استوحته الحضارة الإسلامية وتعطرت به هو سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسنته . وسنة النبى صلى الله عليه وسلم هى الأصل الثانى الأساسى من أصول الدين الإسلامى . والإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم هو ثانى شطرى العقيدة الإسلامية : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم حية فى ضمير المسلمين : بها يهتدون ومنها يأخذون القدوة الصالحة : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

وتمتاز السيرة النبوية الشريفة بأنها محيطة بجوانب الحياة وأطوارها وأنها مطابقة وليست مجرد نظريات وآراء كما أنها حقيقية وصحيحة وتاريخية وليست أساطير وخرافات .

وقد تخصص فى كتابة السيرة علماء وقفوا حياتهم عليها يدفعهم إلى ذلك حافز دينى باعتبارها الأساس الثانى للدين الإسلامى من جهة ولما فيها من عبرة من جهة أخرى ، وكانوا فى عملهم هذا ينفذون أمر النبى صلى الله عليه

(١) هى السيدة سمية رضى الله عنها .

وسلم حين قال : « بلغوا عنى » ، « وليبلغ الشاهد الغائب » وكان من المسلمين من تلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديثه ووعى ما يتعلق بحياته فحفظه أو كتبه ثم أداه إلى من بعده ثم نقله هذا بدوره إلى من بعده وهكذا[1].

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بكتابة كثير من سننه مثل خطبته يوم فتح مكة ورسائله إلى الملوك وأحكام الزكاة والصدقات وكتاب الهدنة وغير ذلك من الأحكام ، وكان كثير من الصحابة يكتبون حديث النبى صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وكان يسمى صحيفته « الصادقة » وكان بعض علماء التابعين يكتبون الحديث ومنهم محمد بن شهاب الزهرى ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبى حازم ، وعطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد .

وظهرت بواكير تدوين الحديث فى عهد عمر بن عبد العزيز (ت سنة ١٠١ هـ) إذ عهد إلى القاضى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يبدأ فى تدوين سنن النبى صلى الله عليه وسلم وأخباره ، فدون مرويات خالته عمرة وكانت من تلاميذ عائشة رضى الله عنها وكان ما روته محفوظا عنده . ومن المعتقد أن أول كتاب فى الحديث النبوى هو الموطأ لمالك بن أنس (ت سنة ١٥١ هـ) وأول كتاب فى السيرة كتاب المغازى لابن إسحاق (ت سنة ١٧٩ هـ) .

وقد جمع المحدثون كل ماله علاقة بالنبى صلى الله عليه وسلم أو نسب إليه، وكانوا يراعون الأمانة والدقة فى نقل الحديث ، ويتحرون النص لأجل التعرف على اللفظ الأصلى ومنهم من كان يأبى أن يصلح الخطأ اللغوى مكتفيا بإبداء رأيه .

وقد تخصصوا فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته : فكان منهم من عكف على روايتها وهم رواة الحديث، ومنهم من دونها ، ومنهم من تفرغ

---

(١) انظر الندوى : الرسالة المحمدية .

لفحصها ، ومنهم من درس رواتها ، ومنهم من عنى بتفسيرها ومن ثم انشأ من وراء ذلك علوم كثيرة منها علم تاريخ رجال الحديث أو علم أسماء الرجال الذى عنى بدراسة تاريخ رواة الأحاديث النبوية وقد نوه أحد علماء الغرب بهذا العلم فقال : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم الخطير الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم »(١).

ومنها أيضا علم الجرح والتعديل وهو يبحث فى جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة لكل منها مرتبة (٢).

ومنها علم نقد الحديث وهو يفحص الحديث من حيث الدراية والفهم أى يعنى بنقد المتن وقد وضع قواعد له ابن القيم فى كتابه « المنار » .

ومنها علم علل الحديث وهو يهتم بتبيان الخلل فى الأحاديث الباطلة .

ومنها علم مختلف الحديث وعلم غريب الحديث وعلم الناسخ والمنسوخ فى الحديث .

ويأخذ المسلمون من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسنته كثيراً من الشرح والتفسير للقرآن الكريم فضلا عن التطبيق العملى لتعاليمه وأصول الدين ومكارم الأخلاق وحسن الشمائل « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وبفضل النبى صلى الله عليه وسلم وسنته وتأسى المسلمين به طبعت الحضارة الإسلامية بهذا الطابع الإنسانى الذى يتمثل فى حب الخير ، والعمل الصالح ، والصدق فى المعاملة والإخلاص فى العمل ، والتسامح والرفق والحرص على العلم والتعمير والاتزان وغير ذلك من الشمائل العديدة التى جعلت المسلمين خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) انظر أسد رستم : مصطلح التاريخ .

(٢) من أهم كتب هذا العلم كتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى .

ثالثا — أمة العرب :

من الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية أمة العرب أو العرق العربى فالنبى صلى الله عليه وسلم عربى والصحابة عرب ، والعرب هم أول من تلقى دعوة الإسلام وآمن بها وجاهد فى سبيلها ، وعلى يد العرب دخل الإسلام كثيرا من الأقطار ، وانتشر بين سائر الناس ومن ثم طبعت الحضارة الإسلامية بطابع العرق العربى .

والعرب ساميون وينقسمون إلى بدو وحضر . وبالرغم من غموض تاريخ العرب قبل الإسلام كان من الممكن التوصل إلى بعض معالمه من ذلك ما عرف عن عرب اليمن من تحضر ورخاء وطمع الإغريق والرومان فى ثروة جزيرة العرب ودور العرب فى الحروب بين الرومان والفرس ، وتنصيب فيليب العربى قيصرا رومانياً سنة ٢٤٤ م وتأسيس مملكة الغساسنة الموالية للرومان ، وقيام مملكة الحيرة التى خضعت سنة ٦٠٥ م للساسانيين ؛ واستيلاء الأحباش على اليمن سنة ٥٢٥ م ومحاولتهم حمل العرب على التنصر وطردهم على يد الفرس سنة ٥٩٧ م ، وإشراف قريش على طرق القوافل عبر جزيرة العرب[1] ، والأخطار التى كانت تهدد بلاد العرب من الشمال والجنوب .

والحق أنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن تقل عن حضارة غيرهم من الأمم وكانت لهم لغة ناضجة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة كتابه الكريم « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » كما كان لهم آداب راقية من شعر ونثر وقصص وخطابة وحكم وأمثال وكلها أمور لا تتم عفوا ولكنها تنمو على مدى تاريخ طويل .

وكان للعرب صلات تجارية خارجية مع الأمم المتحضرة ومن ثم كانوا على علم بالتطورات الحضارية وتهيأت لهم الفرص للاقتباس من غيرهم .

---

(١) حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام . المجلة ، القاهرة العدد ٩ ص ٥٩ - ٧١ .

وهكذا صقل العرب بفضل تاريخهم وخبراتهم وتجاربهم وهيئوا لأن يحملوا رسالة الإسلام وينشروها . ولو كان العرب همجا كما زعم بعض المغرضين لما استطاعوا القيام بأعباء رسالة الإسلام ، ولما نجحوا فى نشرها هذا النجاح المذهل .

وكان العرب يعتمدون بصفة أساسية على الخيل والجمال وقد هيأهم ذلك ليكونوا فرسانا مهرة لا يشق لهم غبار ، كما مكنهم من سرعة الحركة والانتشار فى الأرض .

وللعرب تقاليدهم وأخلاقهم التى زودتهم بالقدرة على القيام بجليل الأعمال عند الإيمان بها كالصبر والنشاط والثقة بالنفس والحكمة وخصوبة الخيال والعصبية والحماسة[1] .

وازدهر الشعر عند العرب والشعر يقوم على الابتكار شأنه فى ذلك شأن غيره من الفنون ، ومن ثم كان ازدهار الشعر سببا فى إشاعة روح الابتكار فى المجتمع العربى تلك الروح التى ولدت المقدرة على الاختراع الذى لا تتقدم البشرية إلا بفضله .

ولقد كان لهذا كله أثره فى نشأة الحضارة الإسلامية وتكوينها وتطورها وكان من الطبيعى أن يكون للعرب شأن كبير فى إبداع هذه الحضارة التى نشأت فى حجرهم .

رابعاً — اللغة العربية :

كانت اللغة العربية عند ظهور الاسلام قد بلغت نضجها وقد اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة آياته الكريمة التى نزل بها الروح الأمين على سيد المرسلين ، ومن ثم جاء القرآن الكريم بلسان عربى مبين وشرفت بأن ينطق بها كلام الله جلا وعلا .

---

(١) انظر غوستاف لوبون : حضارة العرب — ترجمة عادل زعيتر — الطبعة الرابعة ص ٦٠ وما بعدها .

واللغة العربية من أرقى لغات العالم إن لم تكن أرقاها وتتميز سواء فى تركيب حروفها أو كلماتها أو جملها : فحروفها وإن لم تكن أكثر من حروف الأبجديات الأخرى ، إلا أنها تفى بالمخارج الصوتية وإعرابها سهل لا يزيد على أربع حركات واضحة : فتح وكسر وضم وسكون . كما أن كلماتها سهلة النطق وسلسة تتوزع حركاتها توزيعا متساويا من غير ضغط على حركة دون حركة ومن ثم يسهل نطقها على المبتدئين ، فضلا عن أنها تخضع لموازين أمكن حصرها فى عدد من القواعد . وليس هناك لغة أخرى وصلت إلى ما تحقق فى اللغة العربية فى ضبط المشتقات بالموازين سواء من حيث المبنى أو المعنى . وبالرغم من أن الكلمة العربية تعنى فى أصلها معنى ماديا واقعيا فإنها لا تلبث أن تصبح أيضا ذات معنى شعرى مجازى ولكن دون أن يقع لبس بين الدلالتين عند الاستعمال . أما جملها فلا يشترط فى تكوينها ترتيب محدد بل يمكن تقديم الاسم أو الفعل حسب الرغبة فى تأكيد معنى معين كما لا يشترط ادخال الفعل أو الاسم فى الجملة كما يحدث فى لغات أخرى بل يمكن تكوين الجملة دون فعل أو اسم إذا كان المعنى لا يستدعى ذلك . ونظرا لسلاسة الألفاظ والجمل العربية ظهر فى اللغة العربية فن العروض كفن كامل أثر فى كثير من اللغات الأخرى (١).

ويزعم البعض أن اللغة العربية لغة صعبة وهذا زعم باطل فلو كانت كذلك لما انتشرت هذا الانتشار الواسع فى فترة وجيزة نسبيا ، ولما تأثر بها كثير من الشعوب التى احتكت بالعرب سواء غالبة أو مغلوبة ، ولولا ظهور بعض النعرات القومية عند بعض الشعوب لظلت لها السيادة بين جميع الشعوب الإسلامية . ولو كانت اللغة العربية صعبة كما يزعم هؤلاء لما كتب لها البقاء ولماتت كما مات غيرها من اللغات ، ولما كانت أطول اللغات الحالية عمرا .

---

(١) سيجريد هونكه : فضل العرب على أوربا ، ترجمة فؤاد حسنين على ص ٤٢٣ - ٤٤٥

هذا ولم تكن اللغة العربية التى نزل بها كلام الله قاصرة عن أن تكون لغة دولية يتكلم بها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ويعبرون بها عن أحاسيسهم وآدابهم ويتعلمون بها معارف غيرهم ويثبتون بها أفكارهم وعلومهم وهكذا كانت أداة سليمة ودقيقة للتعبير العلمى والفنى .

ومن ثم صبت الحضارة الإسلامية فى وعاء اللغة العربية ، وإلى هذه اللغة ترجمت معارف البشرية وتجاربها القديمة ، وعنهـــا نقلت الحضارة والثقافة الإسلامية إلى الشعوب الأخرى فترجم ماحوته من علم ومعرفة وثقافة وآداب إلى الشعوب الأخرى .

ويتصل باللغة العربية الخط العربى الذى أخذ شأنه فى الازدياد منذ ظهور الإسلام إذ صار انتشار الخط العربى مصاحباً لانتشار اللغة العربية بل زاد عليها حين صار يكتب به لغات غير عربية مثل الفارسية والأردية والتركية .

وقد عنى بالخط العربى منذ ظهور الإسلام عناية موضوعية من حيث التوضيح عن طريق ابتكار علامات الإعراب والإعجام ، ومن حيث التجويد من حيث ابتكار النسب الجميلة فى كتابة الحروف والكلمات وتنسيق الجمل ، وساعد على ذلك أن أصبح الخط العربى الوسيلة الأساسية لحفظ القرآن الكريم بالإضافة إلى ما تشتمل عليه تعاليم الإسلام من تقدير للكتابة واعتبارها أداة العلم « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم » . كما أن طبيعة الخط العربى وأشكال حروفه وما تمتاز به من الموافقة والمرونة هيأت له الفرص المناسبة للتحسين والتنويع وليس أدل على ماتحمله أشكال الحروف العربية من بذور الخصب والابتكار من أن الحروف العربية كتبت بأكثر من ثلاثة آلاف هيئة بل إن بعض الباحثين عد لحرف الهاء وحده نحو تسعمائة شكل مختلف .

---

(١) Arnold (Th.) and Guillaume (A.), The Legacy of Islam, Oxford, 1965. pp. 5-11.

واحتل الخط العربي مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية الأخرى وكان أحد العناصر الزخرفية الأساسية فيها فى جميع العصور والأقطار ومن ثم ظهرت بصمته على التراث الإسلامي بشتى مظاهره .

وكان الخط العربي مثله مثل اللغة العربية وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية وعاملا مهما من عوامل الوحدة فيها(١).

خامساً — الشعوب الإسلامية :

كان للشعوب الكثيرة التى دخلت فى الإسلام أثر فى تكوين الحضارة الإسلامية : ذلك أن العرب لم يلبثوا أن فتحوا كثيراً من البلاد حتى أن فتوحاتهم امتدت فى نحو قرن من الزمان ما بين الهند شرقا والمحيط الأطلسى غربا وما بين بحر قزوين شمالا وبلاد النوبة جنوبا ، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك فدخل أسبانيا وأجزاء من أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وأرمينية وبلاد البلقان كما انتشر شمال بحر قزوين ودخل الهند وما وراءها وتوغل فى إفريقية ، وهكذا انضوى تحت لواء الإسلام شعوب كثيرة كان لمعظمها ماض حضارى تليد كالفرس والهنود والعراقيين والسوريين والروم والمصريين ، فضلا عن شعوب أخرى تميزت بالحمية والروح الحربية كالترك والمغول والبربر .

وليس من شك فى أن هذه الشعوب قد أسهمت بتراثها الحضارى تارة وبخصائصها التقليدية تارة أخرى فى تشكيل الحضارة الإسلامية .

ومن الملاحظ أن العرب حين أخضعوا الشعوب الأخرى لسلطانهم فى القرن الأول بعد الهجرة كانوا على قسط وافر من الذكاء والحنكة السياسية والحس الحضارى بحيث حافظوا على تراث هذه الشعوب وعملوا على تنمية تقاليدها الفنية والصناعية وهكذا ساعدت الخبرات الفنية والثقافية والعلمية

(١) Grube (EJ) The World of Islam, p. 11.

المتنوعة التى كانت تتمتع بها بعض هذه الشعوب فى تشكيل الحضارة الإسلامية الجديدة وإغنائها بما توصلت إليه البشرية حتى ذلك الوقت من معارف فى مختلف المجالات وأن تسهم بالإضافة إلى ذلك فى إنمائها وإثرائها ولكن مع احتفاظها بطابعها العربى وروحها الإسلامية الأصيلة (١) . كما ظلت هذه الشعوب تشارك فى بنائها .

سادساً : الإطار الجغرافى :

بدأ نمو الحضارة الإسلامية فى بلاد العرب أولا حيث ظهر الإسلام ثم أخذت تنمو فى الأقطار التى فتحها العرب بعد ذلك والتى دخلها الإسلام ، وكان من الطبيعى أن يكون للإطار الجغرافى الذى نمت فيه الحضارة الإسلامية أثره فى تشكيلها .

ومن الملاحظ أن هذا الإطار الجغرافى كان يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد بصفة أساسية من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، وأن هذه الرقعة من الأرض ذات تضاريس وأجواء مختلفة مما يؤدى إلى تنوع شعوبها وحيواناتها ونباتها ومنتجاتها كما أنها بصفة عامة على درجة كبيرة من الخصب والثراء ، وتتميز بصفة عامة باعتدال مناخها . وقد هيأ ذلك كله للحضارة الإسلامية التى نشأت فى هذه الأقاليم أن تنمو فى بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها مما زودها بطابع الثقة والأصالة .

سابعاً : التأثيرات الأجنبية :

بالرغم من أن الإطار الجغرافى الذى ظهرت فيه الحضارة الإسلامية قد هيأ لها فرص الأصالة فإنه فى الوقت نفسه قد مكنها من الإفادة من الخبرات البشرية السابقة والمعاصرة مما زودها بالحيوية وإمكانيات الرقى والتطور وذلك

---

(١) حسن الباشا : فنون التصوير الإسلامى فى مصر ص ٣٤ .

أن هذا الإطار الجغرافى كان مهد الديانات السماوية وموطن أقدم حضارات العالم كما أنه فى الوقت نفسه كان يقع بين الصين شرقا وأوروبا غربا وكان ملتقى الطرق التجارية والتيارات الثقافية ومن ثم كانت الحضارة الإسلامية غير جامدة أو منعزلة ودائمة الاحتكاك بالحضارات الأخرى فى الشرق وفى الغرب تتبادل معها المعارف والخبرات(١) .

هذا وقد أجمل بعض المستشرقين أهم التأثيرات الأجنبية فى الحضارة الإسلامية (٢) فيما يلى :

١ — تأثيرات هلينية دخلت الحضارة الإسلامية عن طريق مدارس الثقافة الهلينية فى أنطاكية والإسكندرية ونيسابور وغيرها .

٢ — تراث يهودى ومسيحى مستمد من التوراة والإنجيل والساميات .

٣ — تأثيرات إيرانية فى مجال الإدارة والحكم والفنون

٤ — نظم رومانية فى شكل بيزنطى .

٥ — خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام التى يقال أن العرب نقلوها عن الهند وصناعة الورق التى يزعم أن العرب تعلموها من الصينيين .

ومن الملاحظ أن هذه التأثيرات الأجنبية لم تكن عوامل أساسية فى تكوين الحضارة الإسلامية ذلك أن الأساس الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية كان الثقافة العربية الإسلامية كما أن الإسلام الذى يدعو إلى العلم وطلبه ويوجه الأنظار إلى ما فى الكون وما فى النفس من أسرار هو الذى حفز المسلمين إلى الإقبال على المعرفة وإلى الإلمام بالثقافات السابقة وإساغتها .

وفضلا عن ذلك فإن الارادة العربية النابعة من فطرة نقية ورأى سليم

(١) جاك س . ريسلر : الحضارة العربية . ترجمة غنيم عبدون ص ١ — ٢٤ .

(٢) Hitti (Ph. K.), History of the Arabs, London, 1956, pp. 306-316.

وحماس واعتزاز وثقة بالنفس كانت الحافز الأساسى فى نشأة هذه الحضارة الإسلامية العظيمة .

وبالرغم من أن العالم الإسلامى يشتمل على أجناس مختلفة فإن هذه الأجناس كانت تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية وأدبية بالإضافة إلى أن كثيراً منها استعمل العربية كلغة تخاطب . وكانت اللغة العربية بما تمتاز به من غزارة وقوة بناء وسهولة تناول أداة للتعبير الدقيق عن متطلبات هذه الحضارة ووعاء صالحا لثقافتها وخبراتها كما سبق أن قدمنا .

وأخيراً هناك حافز أساسى فى نشأة الحضارة الإسلامية ورقيها ونعنى بذلك روح الإبتكار التى سبقت الإشارة إليها وقد جاءت هذه الروح عن طريق العرب ذلك أن تفوق العرب فى فنون اللغة وبخاصة الشعر وازدهار هذه الفنون فى العالم الإسلامى فى العصور المختلفة أدى إلى أن يشيع فى المجتمع الإسلامى روح الإبتكار التى تزدهر أساساً بفضل الازدهار الفنى والتى لا يمكن أن تقوم بدونها نهضة حقيقية أو يحدث تقدم حضارى .

ومن ثم فإن كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد استمدت من ثقافات أخرى أجنبية سواء غربية أو شرقية شأنها فى ذلك شأن غيرها من الحضارات الراقية إلا أنها فى جوهرها حضارة عربية إسلامية .

مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية

تعددت مراكز ازدهار حضارة الإسلام . ففى مكة والمدينة خاصة وجزيرة العرب بعامة نبعت أصولها وكملت أسسها الروحية والخلقية وذلك بفضل الإسلام الذى نزل أول ما نزل على العرب ، والذى حمل رايته العرب .

وفى دمشق أخذت الحضارة الإسلامية تتشكل بمظاهرها المختلفة فى عصر الخلافة الأموية خلال القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى .

وفى بغداد عاصمة الخلافة العباسية نضجت ووصلت مستوى رفيعاً منذ أواخر القرن الثانى بعد الهجرة .

وفى الأندلس ازدهرت الحضارة الإسلامية حتى نافست بلاد الأندلس بلاد الخلافة العباسية فى هذا المضمار .

هذا ولم يقتصر ازدهار الحضارة الإسلامية على هذه البلدان التى ذكرناها بل انتشرت فى كثير من بلاد الإسلام مثل مصر وإيران والهند وتركيا وشمال أفريقيا .

مجال الحضارة الإسلامية

تفوقت الحضارة الإسلامية فى نواح عدة منها :

سرعة ظهورها وازدهارها ، فمنذ دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ظهر الأثر الروحى والخلق الذى كان التربة الصالحة والأساس الحقيقى لسائر المظاهر الحضارية الإسلامية .

ومن حيث الدولة ونظم الحكم : عنى الإسلام بتنظيم الدولة على أحسن الأسس وأفضل المبادىء فنظمت الإدارة وسنت القوانين والتشريعات وحددت الوظائف ونظمت المعاملات وأخذت هذه الشئون فى التطور حتى بلغت مستوى عاليا من التقدم .

وحظى المجتمع الإسلامى فى ضوء هذه المبادىء والنظم بتقاليد وعادات متحضرة تنبع من الفطرة السليمة وتتفق مع الروح الإنسانية ، وتضمن للمجتمع أمنه وتقدمه .

ومنذ ظهور الإسلام وجد الاحتفاء بالعلم والثقافة والحرص على التعليم، ولم يمض قرنان من الزمان على ظهور الإسلام حتى كان المسلمون قد بلغوا شأواً فى مجال العلم يفوق ماحققه غيرهم من الشعوب السابقة والمعاصرة .

وترك المسلمون تراثاً مادياً لاتزال آثاره شاهدة على عظمته سواء فى مجال الفنون والعمارة والصناعات والزراعة والتجارة وغير ذلك .

التراث الروحى

إن أفضل مااشتملت عليه الحضارة الإسلامية هو تراثها الروحى أو الدينى، ونعنى بذلك الإسلام ، ومصدر الإسلام هو القرآن والسنة النبوية الشريفة، وقد جاء الإسلام بالعقيدة الحقة الصحيحة التى تتلخص فى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ووحدانية الإسلام وحدانية واضحة سهلة خالية من التعقيد والألغاز والله قريب من الإنسان وأقرب إليه من حبل الوريد ولا واسطة بين العبد وربه من كهنوت أو أوصياء ومحمد هو عبد الله ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً ، واختاره الله إلى جواره بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة صلى الله عليه وسلم فهو بشر كسائر البشر « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وأمر الإسلام بالتسليم بقضاء الله وقدره والإيمان بالبعث والجزاء والثواب والعقاب . ولم يقف الإسلام عند حد العبادات بل جاء بخير الدنيا ، ووضع أسس مبادىء التنظيم السياسى والتشريع والاقتصاد والمعاملات ، وبذلك وضع أسس الفلاح للبشرية ، فدعا إلى العمل على التعمير بأقصى ما يمكن من الجهد مع مراقبة الله تعالى « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

وحض الإسلام على حسن المعاملة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» ولو سار الناس جميعاً على هذا المبدأ لصلح العالم .

وحض الإسلام أيضاً على العدل « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

هذا وقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلى ما اشتمل عليه الإسلام من فضائل ، وذلك بالإضافة إلى ما جاء به من أفضل التنظيمات فى كافة الشئون العامة والخاصة .

وكان لفضائل الإسلام خاصة الفضل فى انتشاره ، أى أن الاسلام انتشر بفضل خصائصه الذاتية وتعاليمه الخيرة كما أن تسامح العرب كان من العوامل التى ساعدت على انتشاره .. ويزعم البعض أن الإسلام قد انتشر بالسيف وعن طريق الإكراه ، وهم يعتمدون فى ذلك على اعتناق بعض الأقطار التى فتحها العرب للإسلام مثل إيران والعراق وسورية ومصر وشمال أفريقيا ، ويبدو أنهم متأثرون فى ذلك بما فعله شرلمان وخلفاؤه فى نشر النصرانية بين شعوب أوروبا بالسيف والنار ، وإرغام الجرمان على اعتناق النصرانية إذا أرادوا أن يحتفظوا بممالكهم . والحق أن الإسلام قد انتشر فى أقطار أخرى ، لم يفتحها العرب أو المسلمون مثل أندونيسيا والصين وبلاد القفقاز والسودان ، كما عم كثيراً من الأقطار الأفريقية : مثل مالى وأوغندة والصومال ونيجيريا وغيرها ولا يزال الإسلام ينتشر حتى اليوم بين هذه الشعوب وغيرها بنسبة تفوق غيره من الأديان الأخرى أضعافاً مضاعفة .

ولو كان الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف فكيف استجابت هذه الشعوب لدعوة الإسلام واستمسكت بعراه .

ولقد دحض كثير من المستشرقين أنفسهم هذا الزعم ؛ يقول « غوستاف لوبون » الفرنسي في كتابه « حضارة العرب »(١) :

« سيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم ، أن القوة لم تكن عاملا في انتشار الإسلام ، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم .... ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية ، ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى ، ولم يكن القرآن أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط » .

وقال روبرتسن في كتابه « تاريخ شارلكان » : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من يرغبون فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية » .

وقال ميشود في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » : إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد (صلى الله عليه وسلم) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، على عكس مافعله الصليبيون الذين ذبحوا المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة عندما دخلوها . وقال الراهب « ميشو » في كتابه « رحلة دينية في الشرق » :

« ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة » .

---

(١) نشر سنة ١٨٨٤م .

أما ما زعم البعض من أن انتشار الاسلام كان من أهم دوافعه دعوته إلى التحلل من التكاليف التى كانت مفروضه فى اليهودية أو النصرانية ، وإباحة سوء الخلق ، والترغيب بملاذ الجنة فهو عار من الصحة ولا يستحق المناقشة ويكفى أن نرد على ذلك بأقوال المستشرقين أنفسهم .

يقول « غوستاف لوبون » : « ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم ، لا تقوم على أساس فنقول ، إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما فى الأديان الأخرى من الصرامة وأن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريباً على الشعوب المسلمة التى عرفته قبل ظهور الإسلام ، وأن هذه الشعوب لم تجد نفعاً جديداً فى القرآن لهذا السبب » .

ويقول أيضاً : « إن من الضلال إذن أن يعزى انتشار الإسلام السريع فى أنحاء الدنيا إلى أنه يلقى عن كاهل الانسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة ، وأنه يبيح له البقاء على سيء الأخلاق وقد دون (هو تنجر) قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين . وأرى أن هذه القائمة تحوى أقصى ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلى بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام .

ومما نبه إليه العلامة (بيل) أن ملاذ الجنة التى وعد بها المسلمون لا تزيد على ما وعد به النصارى فى الإنجيل الذى جاء فيه (لم ترعين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب إنسان ما أعده الله للذين يحبونه) .

وهناك افتراء آخر مرفوض ، إذ يزعم البعض أن الجزية كانت من الوسائل التى لجأ إليها المسلمون لإكراه غيرهم على الدخول فى الإسلام .

والحق أن الجزية قد فرضت فقط مقابل الحماية والرعاية ولم يفرضها الإسلام للإكراه على اعتناقه . قال تعالى (لا إكراه فى الدين) .

ولم تكن الجزية بالقدر الذى يدفع الإنسان إلى تغيير دينه ولم تكن تفرض إلا على القادرين على دفعها ، وكان يعفى منها الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان ، ولو استخدم المسلمون الجزية كسلاح لنشر الإسلام ، لكان من الأولى أن يزيدوها على رجال الدين بصفة عامة ، وأن يفرضوها على غير القادرين حتى يرغموهم على اعتناق الإسلام ، وكانت الجزية التى جباها المسلمون أقل مما كان يجبيه الفاتحون قبلهم ، ومن ثم كان من أثر الفتح العربى الإسلامى تخفيف الأعباء المالية المفروضة على أهل البلاد المفتوحة . وليس فى تاريخ الإسلام مايدل على أن الجزية كانت من عوامل الإكراه على الإسلام ، بل من الغريب أننا نجد أنه حدث من بعض ولاة المسلمين أحياناً تخوف من انتشار الإسلام بين رعاياه ، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى نقص الجزية وإفقار الخزانة .

وقد أعفى بنو تغلب النصارى من دفع الجزية نظير اشتراكهم فى الحرب مع المسلمين .

الباب الأول

الدولة الإسلامية

الفصل الأول

تاريخ الدولة الإسلامية

بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة بعد البعثة تطورت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة هي مرحـــلة الدولة الإسلامية إذ تأسست دولة على رأسها النبي صلى الله عليه وسلم الذى أرسى قواعدها حسب تعاليم الإسلام الحنيف « فاحكم بينهم بما أنزل الله »

وفي أول الأمر كان النبي صلى الله عليه وسلم يتولى تسيير جميع شئون هذه الدولة الناشئة ، ولـكنه لم يلبث بعد أن اتسعت الرقعة وانتشر الاسلام في أنحاء جزيرة العرب ، أن أناب عنه في الإدارة بعض الصحابة فعين القادة والولاة والقضاة والجباة ، وغيرهم من الموظفين الذين توزعت عليهم شئون الحـكم والإدارة تحت رئاسته (صلى الله عليه وسلم) وكان هؤلاء يمضون أمورهم ويتصرفون في اختصاصاتهم حسب ما جاء به القرآن الـكريم وما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم مقتدين بسنته . وهكذا بدأ تأسيس الوظائف المختلفة في الدولة الإسلامية . وبعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى خلفه في حكم الدولة الإسلامية أبو بكر الصديق بعد أن بايعه الصحابة على أن يخلف رسول الله في حـكمهم وتولى أمورهم ، أى أن يكون خليفة رسول الله فيهم ، ومن ثم نشأ نظام الخلافة في الإسلام . ونعرض

بعض العرب أول الأمر الإذعان لولاية الصديق أو الخضوع لنظام الدولة والانضواء تحت لوائها وامتنعوا عن أداء الزكاة كما ارتد البعض عن الإسلام، غير أن أبا بكر استطاع أن يرغمهم على الإذعان ، ومن ثم ساد حكم الخليفة المسلمين كلهم .

وأوصى أبو بكر قبل وفاته بالخلافة لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الذى اتسعت الدولة الإسلامية فى عهده : فشلمت بالإضافة إلى بلاد العرب ، الشام ، ومصر والعراق وإيران ، ثم ولى الخلافة عثمان بن عفان ، ثم على بن أبى طالب الذى نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة ، وبموت على بن أبى طالب سنة ٤١ ﻫ انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وفيه كانت أنظمة الدولة ووظائفها تقوم بصفة عامة على أساس روحى أقرب إلى اليسر ، وبعيدة عن المظاهر والتكلف .

ثم بدأ عصر الدولة الأموية على يد مؤسسها معاوية بن أبى سفيان واستمر من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ وكانت دمشق عاصمة لها . وفى عهد هذه الأسرة زاد اتساع الدولة شرقا وغربا فامتدت إلى السند شرقاً وإلى أسبانيا غرباً . كما استقرت أمور الحكم ، وساد هذه الدولة الواسعة الأرجاء طابع العروبة ، وانتشر فيها الإسلام ، وأخذت نظمها ووظائفها فى النمو والتفريع تدريجيا ، وبدأت المظاهر الحضارية تتبلور على أساس عربى إسلامى .

وبالقضاء على مروان بن محمد سنة ١٣٢ ﻫ انتهت الدولة الأموية ، وقامت فى أعقابها الدولة العباسية ، نسبة إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم . ومن ثم زادت فى الخلافة صفتها الدينية[١] وكان أول خلفائها (أبو العباس السفاح) ثم خلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذى يعتبره البعض المؤسس الفعلى للإدارة العباسية ، وأنشأ أبو جعفر مدينة بغداد واتخذها عاصمة للخلافة العباسية .

---

(١) انظر أحمد بن عبد الله القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة .

وورث العباسيون أنظمة الحكم والإدارة الأموية ثم طوروها إلى درجة كبيرة ، وعنى خلفاؤهم بتنظيم الدولة وقد بدأ التنظيم فى عهد أبى جعفر وازداد كثيراً فى عهد الرشيد .

ونظراً لاعتماد العباسيين فى قيام دولتهم على الفرس ، فقد تأثروا فى نظم الحكم والادارة وأساليب الحياة بالتقاليد الفارسية ، وفى الوقت نفسه زادت أفادتهم من الثقافات والحضارات الأجنبيه ، وبذلك نمت الحضارة الإسلامية وازدهرت مشربة بثقافات أجنبية ولكن فى إطار الشريعة الاسلامية التى بلغت فى العصر العباسى مستوى رفيعاً من حيث الشرح والتقنين .

وأثناء الخلافة العباسية منيت الدولة العباسية بالانقسام ، فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، انفصلت الأندلس عن الحكم العباسى حين أسس فيها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام من بنى أمية دولة استقل بحكمها وأورثها أسرته من بعده . وهذه الدولة التى اصطلح على تسميتها بالدولة الأموية الغربية نافست الدولة العباسية فى رعاية الحضارة الإسلامية .

ولم يلبث أن توالت الانقسامات فى الدولة العباسية ، فمنذ أواخر القرن الثانى الهجرى أخذت تنشأ فى بعض ولاياتها دول مستقلة ، ازدهرت فى بعضها الحضارة الإسلامية ، مثل الدولة السامانية فى خراسان والدولة الطولونيه ثم الاخشيدية فى مصر .

وفى القرن الثالث الهجرى أخذ الخلفاء العباسيون يستكثرون من استخدام الغلمان الأتراك حتى استفحل نفوذهم واستضعفوا الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم . وكان من نتيجة ذلك أن ضعفت الإدارة المركزية واستطاع بعض الولاة أن يستقلوا بولاياتهم استقلالا فعلياً مع الارتباط بالإدارة

المركزية ارتباطاً اسمياً ، كما ظهرت وظيفة جديدة هى وظيفة امير الأمراء الذى استأثر بالسلطان واستبد بالحكم فى مقر الخلافة ، وكان ابن رائق هو أول من لقب بلقب أمير الأمراء وكان ذلك فى سنة ٣٢٤ هـ (١) .

وبعد ذلك استبد بالخلافة العباسية أسرة من الديلم هى أسرة بنى بويه . وباستيلاء بنى بويه على السلطة ازدادت التأثيرات الفارسية فى الحضارة الإسلامية ، وجرد بنو بويه الخلفاء العباسيين من نفوذهم تماما حتى انه لم يبق لهم من الخلافة إلا مظاهرها .

ونظراً لتشيع بنى بويه فقد حاولوا صبغ دولتهم بالطابع الشيعى مما أدى إلى احتدام الصراع بين الشيعة وأهل السنة .

وفى عهد بنى بويه بدأ نظام الإقطاع فى الدولة الإسلامية : إذ أخذ معز الدولة بعد أن استولى على بغداد ، يقطع قواده ومواليه القرى كأرزاق عوضاً عن المرتبات النقدية ، واستقر هذا النظام بعد ذلك فى عصر السلاجقة .

وكان تاريخ بنى بويه سلسلة من المنازعات الأسرية التى وصلت فى كثير من الأحيان حد الحروب وما يتبعها من سجن أو قتل لبعض أفراد الأسرة على يد البعض الآخر .

وكان هذا التنافس بين أفراد أسرة بنى بويه من أهم عوامل ضعفها خاصة والدولة العباسية عامة . ووجد فى عهد بنى بويه دولتان إسلاميتان أخريان اتخذتا ألقاب الخلافة ونازعتا الخلافة العباسية الزعامة على العالم الإسلامى وحددتا نفوذهما هما : الدولة الأموية فى الأندلس ، والدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا ثم مصر .

وكان الصراع على أشده بصفة خاصة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، إذ بالإضافة إلى القرب المباشر بين العباسيين والفاطميين اتخذ

---

(١) مسكويه : تجارب الامم جـ ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

الصراع بينهما مظهراً عقائدياً بالإضافة إلى الجوانب الحربية والسياسية .
واستطاع الخلفاء الفاطميون فى هذا العصر أن يستولوا على مصر حيث أسسوا مدينة القاهرة التى اتخذوها عاصمة لهم ، وكانت أحد المراكز المزدهرة للحضارة الإسلامية ، كما انتشر دعاة الفاطميين فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ولا سيما إيران[1].

ولم يكن الخطر الفاطمى هو الوحيد الذى يهدد بنى بويه . بل إنهم تعرضوا لمناوأة شديدة فى الدولة العباسية نفسها ، وذلك من قبل الولاة والأمراء الذين أسسوا أسراً حاكمة تتمتع باستقلال فعلى عن الخلافة العباسية . وكان من هذه الأسر أسرة بنى كاكويه فى كردستان من (٣٩٨—٤٤٣ هـ) ومن (١٠٠٧—١٠٥١م) والغزنويين فى غزنة (٣٥١ — ٥٨٢هـ)(٩٦٢—١١٨٦م).
وربما كان من أهم هذه الأسر « السلاجقة » الذين سيطروا على غرب آسيا ، وكان على يدهم القضاء على بنى بويه . وكان السلاجقة من قبيلة (غزقنق) : إحدى القبائل التركية فى إقليم القرغيز فى آسيا الوسطى ، وكانوا سنيين متحمسين للإسلام .

وإزاء ضعف بنى بويه وتشيعهم تقدم السلاجقة للاستيلاء على بغداد ، واستطاع أحدهم : « طغرلبك » أن يستولى على بغداد . وأن يثبت حكم أسرة السلاجقة فى الدولة العباسية . ودان كثير من الأقطار لحكم السلاجقة ووصلت فتوحاتهم نهر سيحون ، واستولوا على معظم آسيا الصغرى بعد انتصارهم على الأرمن والبيزنطيين ، كما ضموا إليهم الشام وبلاد العرب بالإضافة إلى فارس والعراق . وفى أول الأمر خضعت الأسرة لسلطان واحد منهم ، ثم لخلفائه من بعده وهم السلاجقة العظام ، ثم توزع السلاجقة إلى عدد من الأسر الفرعية اقتسمت فيما بينها أقطار الدولة العباسية وما أضافوه إليها من فتوحات وأهم هذه الأسر سلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان وسلاجقة الشام ، وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

(١) Wüstenfeld, Geschichte der Fatimi den Chalifen

وباستيلاء السلاجقة على السلطة فى الدولة العباسية دخلت الدولة فى طور جديد من أطوارها وذلك بفضل الأنظمة الجديدة التى ظهرت على يدهم والتى صارت أساس كثير من التطورات الاجتماعية فى العالم الإسلامى فيما بعد ، ولقد قيض الله للدولة السلجوقية فى أوائل عهدها شخصية فذة كان لها دور كبير فى توجيه سياسة هذه الدولة ووضع أنظمتها والإشراف على تنفيذها : « هو الوزير نظام الملك » .

واعتبر السلاجقة أنفسهم أبطال النهضة الفارسية فشجعوا الفرس على إحياء اللغة الفارسية واستخدامها فى الكتابة والتأليف . وخلف السلاجقة فى حكم الولايات العباسية أتباع لهم اقتسموها بينهم وكون بعضهم أسراً عرفت عند المؤرخين باسم الأتابكة نسبة إلى أتابك وكانت مهمة الأتابك الوصاية على أولاد السلطان وتربيتهم (١) .

وكان الأتابك يصحب الأمير حين توليه إحدى الولايات ويشترك معه فى حكمها وربما حرص السلطان نفسه على ذلك ليكون عيناً له على الأمير ويحول بينه وبين الاستقلال عن السلطان أو الثورة عليه . واتسع نظام الأتابكة فى الدولة السلجوقية حتى كاد يصبح وجود الأمير السلجوقى والأتابك معاً على رأس الولاية من التقاليد الواجبة .

وكان إذا زاد نفوذ أحد الحكام من غير الأسرة السلجوقية حرص على ضم أحد الأمراء السلاجقة إليه حتى يصير أتابكه .

وقد تطور الأمر إلى أن صار على رأس الولايات السلجوقية ولاة من الأتابكة لا يدينون للسلاطين السلاجقة إلا بطاعة إسمية وفى الوقت نفسه يتحينون الفرصة المناسبة للاستقلال بحكم ولاياتهم بل والاستيلاء على غيرها والتمكين لأسرهم . ومن ثم انقسمت دولة السلاجقة إلى دويلات يحكمها

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٣ .

أسر من الأتابكة توارثت السلطة فى كثير منها : نذكر منهم بنى بورى فى دمشق ، وبنى زنكى فى الموصل والشام وسنجار والجزيرة وبنى بكتكين فى أربل وبنى ايلدكز فى أذربيجان وأتابكة يزد وبنى سلغر فى فارس وبنى فضلويه فى شوانكاره وبنى هزراستان فى لورستان الكبرى وبنى خورشيد فى لورستان الصغرى .

هذا وقد حمل بعض أسر الأتابكة ومن خلفهم من الأيوبيين ثم المماليك عبء محاربة الصليبيين فكان على يد عماد الدين زنكى أتابك الموصل طرد الصليبيين من إمارة الرها ثم سار على نهجه ابنه نور الدين محمود(١) الذى كرس جهوده لحربهم فى بلاد الشام ، وخلفه أحد قواده صلاح الدين الأيوبى الذى طردهم من القدس ...

وهكذا خضدت شوكتهم ثم طرد آخر فلولهم على يد خليل بن قلاوون أحد سلاطين المماليك فى مصر .

ومن الدول التى خلفت السلاجقة فى شرق العالم الإسلامى دولة خوارزمشاه وقد استطاعت فى سنة ٥٩٣ هـ ، أن تنهى حكم السلاجقة فى إيران ثم أخذت تمد نفوذها ما بين الضفة اليمنى لنهر سيحون وممرات الجبال الواقعة بين إيران ووادى دجلة وسيطرت على خوارزم وخراسان وبخارى وسمرقند وأترار عاصمة الخطا بل اعترف بسيادتها أحياناً فى عمان . وأصبحت خوارزم دولة فى الدرجة الأولى من حيث القوة والثراء والمدنية وصارت عاصمتها من أكثر المدن ازدهاراً وصار لها علاقات تجارية مع الشرق والغرب .

ثم حدث تنافس بين خوارزمشاه والخليفة العباسى على السلطة والاستئثار بالسيادة السياسية فى عهد الناصر كان من جرائه أن حاول خوارزمشاه القيام بحملة على بغداد ولم يثنه عن ذلك إلا ما ابتلى به من غزو المغول .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٠٠ .

وبعد أن قضى المغول على دولة خوارزمشاه وجهوا عنايتهم لدخول بغداد والقضاء على الخلافة العباسية نفسها .

وفى ذلك الوقت كانت الخلافة العباسية قد تدهور مركزها تدهوراً كبيراً فى نظر العالم الإسلامى وذلك لتقاعسها عن محاربة الصليبيين فى الغرب وعن صد المغول فى الشرق ، ومن جهة أخرى كان الخلفاء الأواخر يفتقرون إلى العزيمة والنشاط مما أدى إلى أن انحصر حكمهم فى بغداد ، كما قامت الفتنة بين أهل السنة والشيعة فى بغداد وقلت الأموال واضطرب الأمن . .

وهكذا وقعت بغداد فريسة سهلة أمام المغول بقيادة هولاكو فى ٦٥٦ هـ الذى قضى على المستعصم آخر خلفاء بنى العباس وبذلك قضى على الخلافة العباسية فى بغداد . .

وصحب غزو المغول للعالم الإسلامى دمار وتخريب وقتل : يتمثل فى حرق المدن ، وذبح الناس صغاراً وكباراً ، والتمثيل بالأعداء ، والنهب والسلب .

وحاق بالعراق من غزو المغول خسارة فادحة بقيت آثارها ربما إلى وقتنا الحاضر وبقتل المستعصم ، انتهت من بغداد الخلافة العباسية التى كانت تمثل تقليداً عريقاً يرجع إلى صدر الإسلام ، كما فقدت بغداد أهميتها كعاصمة للعالم الإسلامى .. ومن جهة أخرى فإن الوضع الذى آلت إليه بلاد العراق بعد غزو المغول بين دولتين قويتين فى إيران ومصر حولها إلى أشبه ما يكون بمناطق حدود بين قوتين متصارعتين مما أدى إلى تعرضها للأعمال الحربية من الجانبين ، وكان من جراء ذلك أن أصابها كثير من التخريب والإهمال فى الإدارة وأعمال الرى والعناية بالأراضى ، وإهمال طرق العراق التجارية لحساب طرق التجارة المارة بإيران ، وآسيا الصغرى بالشمال ، وبمصر والبحر الأحمر فى الجنوب وأثر ذلك على حضارة العراق ومركزه الفكرى والثقافى :

إذ قل فيه بعد غزو المغول الإنتاج الفكرى والفنى الأصيل ، على عكس ما كان عليه الحال قبل ذلك حين كان العراق مركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى كله بل وفى خارجه أيضاً ، وكان فى الدرجة الأولى من حيث خصوبة الإنتاج الفكرى والفنى وقيمته .

وعلى عكس ما أصاب العراق من تدهور وتأخر نعمت مصر بعصر من الازدهار والتقدم : ، فبعد أن دحرت المغول وطردتهم من الشام ، استطاعت أن تحافظ على تيارها الحضارى مستمراً دون إنقطاع ، ونجحت فى تصفية الفلول الصليبية المتبقية فى الشام ، كما عملت على نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة مازاد فى نفوذها الروحى بالإضافة إلى قوتها السياسية والحربية ، ومن ثم حظيت مصر فى عصر المماليك برخاء مادى وازدهار حضارى وثراء فى مجال الفكر والفن أسهم فيه الفنانون والعلماء الذين هاجروا إلى مصر أمام الغزو المغولى .

أما إيران فقد صارت مركز الدولة الإيلخانية المغولية التى أستطاعت إيران فى ظلها أن تستأنف تقدمها الحضارى ، ولم يلبث حكامها من المغول أن اعتنقوا الإسلام فى عهد السلطان غازان ، وتمتعت إيران بكثير من الاستقرار والرخاء ، كان من نتيجته ازدهارها الفنى والثقافى ، وخلف الإيلخانيين فى إيران التيموريون ، ثم تبعهم الصفويون ، وكانت إيران فى عهد هؤلاء جميعاً مركزاً مزدهراً من مراكز الحضارة الإسلامية .

هذا وقد امتد حكم المسلمين إلى الهند حيث سيطر عليها المغول المسلمون إلى أن تمكن منهم الاستعمار البريطانى . وكان لقدوم المغول للعالم الإسلامى ، وما أعقبه من أحداث تأثير غير مباشر على وضع الأتراك فى آسيا الصغرى ذلك أنه فى أثناء الغزو المغولى ، هاجر كثير من الترك والمغول إلى آسيا الصغرى وأخذوا يشتركون فى الحرب ضد البيزنطيين ، ونجحوا فى تأسيس

إمارات توارثوا الحكم فيها ، وخضعت إحدى هذه الإمارات بعد ذلك لقبيلة تركية هى التى صارت تعرف باسم الأتراك العثمانيين الذين قدر لهم أن يقضوا على الدولة البيزنطية ، وأن يحكموا النصف الغربى من العالم الإسلامى، وأن يستولوا على جزء كبير من شرق أوروبا .

أما فى الأندلس فقد أخذ نفوذ المسلمين فى التقلص لحساب دويلات النصارى فى أسبانيا إلى أن انحصر فى (غرناطه) التى قضى عليها وبذلك انتهى سلطان العرب فى الأندلس فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) .

الفصل الثانى

نظام الحكم والإدارة والتشريع

وضع الإسلام الأسس العامة للدولة ، ولم يتعرض فى كثير من الأحوال للتفاصيل وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع فى الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الامم التى دخلها الإسلام ولكن فى إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية ، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق والتفريع ، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولا الخلافة والإمارة والوزارة وإدارة الدواوين والقضاء والجيش .

الخلافــــة

اختلف فى إشتقاق لفظة خليفة : فقيل أنه فعيل بمعنى مفعول كجريح بمعنى مجروح أى أن المعنى « أن يخلفه من بعده » ومن هنا حملت الآية الكريمة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » على قول من قال « إن آدم أول من عمر الأرض وخلفه فيها بنوه » .

ومن جهة أخرى قيل فعيل بمعنى فاعل ، ويكون المعنى « أن يخلف من قبله » وعليه حملت الآية عند من قال أنه كان قبل آدم فى الأرض الجنة وأنه خلفهم فيها ، وعليه خوطب أبو بكر الصديق بخليفة رسول الله .

أما الهاء فى خليفة فقيل لتأنيث الصيغة وقيل للمبالغة وربما حذفت .

وتجمع خليفة على خلفاء وخلائف(١) ، والنسبة الصحيحة منه « خلفى » ولو أن بعض الكتاب يقول « خليفى » .

وأجيز أن يقال « خليفة رسول الله » ، واختلف فى جواز أن يقال « خليفة الله » .

ومع ذلك فقد أطلق لقب « خليفة الله » على المأمون فى سكة من المحمدية بتاريخ سنة ٢٠٣ هـ كما أطلق على بعض الخلفاء العباسيين لقب « خليفة الله على كافة أهل الإسلام » و « خليفته فى أرضه ونائبه فى خلقه » .

ويبدو من هذه الألقاب أن الخليفة العباسى ربما كان يعتبر نفسه مفوضاً من الله لاقرار دينه وحكم الناس . ومن الملاحظ أن هذا التصور كان معروفا عند الساسانيين . ومع ذلك فقد ظهر لقب « خليفة الله » على فلس ينسبه البعض إلى عبد الملك بن مروان .

وقد اشترط الفقهاء للخلافة أربعة شروط يجب أن تتوفر فى الخليفة: هى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلفوا فى شرط خامس: وهو ضرورة أن يكون من قريش .

وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطوط الدينية والشرعية والوظائف الكبرى : وهى الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة . وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته .

وكان للخلافة علامات ثلاث : هى البردة والخاتم والقضيب .

أما شاراتها فكانت ثلاثاً أيضاً : وهى الخطبة والسكة والطراز(٢) .

---

(١) القلقشندى صبح الأعشى ج ٥ ص٤٤٤ — ٤٤٧ ، ضوء الصبح المسفر ص ٣٤ عن النحاس فى صناعة الكتابة ، البغوى والماوردى فى الأحكام السلطانية

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠ و ٢٤٢ و ٢٦١ .

ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية فى أسرته : وذلك حين حاول فى سنة ٥٨ هـ ٦٧٦ م أن يحصل على البيعة لابنه يزيد ، وظلت وراثية منذ ذلك الوقت ، غـــير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون .

وجرت عادة الخلفاء العباسيين ولا سيما فى العصر العباسى الأول أن كان الخليفة يعهد إلى أكثر من واحد : فمثلا قد يعهد إلى أكبر أبنائه ثم إلى من يليه من أبنائه أو إلى أحد أقاربه . وقد أدى ذلك إلى اضطراب وبلبلة : إذ كان الخليفة الجديد يلغى العهد السابق ، ويعهد بدوره إلى أكبر أبنائه : فمثلا نجد أن السفاح عهد إلى أخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ، وحين تولى المنصور الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وعهد إلى ولديه المهدى والمهتدى ، ثم عهد المهدى بدوره إلى ولديه الهادى ثم الرشيد . ثم نجد الرشيد يولى العهد أولاده الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، ويقسم البلاد بينهم : ويحاول الأمين أن يولى عهده ابنه موسى بدلا من أخويه مما أدى إلى نشوب الحرب بين الأمين والمأمون ثم قتل الأمين .

على أننا نجد أحد الخلفاء العباسيين وهو الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) يرفض أن يوصى لابنه بولاية العهد ويقول : لايرانى الله أتقلدها حياً وميتاً . وقد ولى الخلافة بعده أخوه المتوكل .

ومنذ المتوكل استبد غلمان الأتراك باختيار الخليفة الجديد ولو أنهم كانوا يحرصون على أن يكون الخليفة من بنى العباس .

واستطاع خلفاء العصر العباسى الأول أن يكون لهم الكلمة العليا فى الدولة ثم أخذ نفوذهم بعد ذلك فى التقلص : إذ مر على الخلافة فترات ضعف فيها شأنها ، واستبد بسلطتها رجال الدولة ، واستقلت عنها ولايات انفرد بحكمها أمراؤها . ومع ذلك ظل للخليفة مكانته واحترامه وسلطانه

الروحى طالما كان فى الخلافة ، كما ظل محتفظاً بحق التعيين حتى فى عصر استبداد البويهيين بالحكم، بل إن كبار الولاة المستقلين كانوا يحرصون دائماً على الحصول على تصديق الخليفة على ولايتهم ، وعلى تفويضه لهم الحكم والجهاد وحق التولية .

ولكن كان من أثر الحروب الصليبية وتقاعس الخلفاء عن دفع الصليبيين ، وتصدى غيرهم من الولاة والأمراء للدفاع عن الإسلام والجهاد فى سبيل الله ، ودفاعهم عن الأراضى المقدسة أن فقدت الخلافة كثيراً من قيمتها الروحية بعد أن سلبت سلطانها المادى .

ومع ذلك فقد ظل العالم الإسلامى يشعر بالفراغ بعد قضاء هولاكو على الخلافة العباسية فى بغداد ، ومن ثم بعثها بيبرس من جديد فى القاهرة حيث صار الخليفة يفوض إلى السلطان الولاية والأمور العامة . وقد ظل ملوك الهند وكثير غيرهم من ملوك الإسلام يطلبون التقليد من الخليفة العباسى فى القاهرة ، وكانوا يكاتبون فى ذلك سلاطين المماليك ، وكان هؤلاء يجيبونهم إلى ذلك ويبعثون إليهم بالتقاليد والخلع والألوية بالشعار العباسى حسب العادة القديمة[1] .

وحين دخل العثمانيون مصر كانت الخلافة فى يد أبى الصبر يعقوب بن عبد العزيز الذى كان قد بويع بالخلافة سنة ٩٠٣ هـ ، وقد بويع ولده المتوكل على الله محمد بالقسطنطينية ، وكان السلطان سليم قد أخذه معه ، فلما توفى سليم عاد المتوكل إلى مصر وظل بها إلى أن توفى فى شعبان ٩٥٠ هـ فى أيام داود باشا ، وبموته انتهت الخلافة العباسية من الدنيا . ثم حدث أن اتخذ العثمانيون الخلافة فى وقت متأخر[2] .

---

(١) المقريزى : الدرر المضيئة فى تاريخ الإسلام . مخطوطة ص ٢٧٤ ب .

(٢) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ٢ ص ٣٣٤ .

ونظراً إلى اعتبار الخلفاء من موظفي الدولة الذين يلزمهم التفرغ التام للقيام بمهام وظيفتهم فرضت لهم الرواتب أو المرتبات بالإضافة إلى الغنائم المحددة شرعاً ، وإلى ما كانوا يفرضونه لأهلهم وأبنائهم من ضياع وأموال .

وظهر فرض رواتب الخلفاء بصورة محددة واضحة في زمن متأخر نسبياً ، غير أنه من المعروف أن أبا بكر قد فرض له ستة آلاف درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف ، وكان هذا مرتب أوساط المسلمين في ذلك الوقت .

ولم يرد ذكر لمرتبات الخلفاء بعد ذلك إلى أن جاء ابن رائق أمير الأمراء في أوائل القرن الرابع الهجري وكف يد الخليفة الراضي بالله عن بيت المال وبذلك صار الخلفاء في حاجة إلى الراتب الزهيد الذي فرض لهم . ولما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي خمسة آلاف درهم كل يوم لنفقاته غير أنه قلما كان يحصل على هذا الراتب .

وتكونت للخلافة مع تطور الزمن مراسمها من آداب الدخول على الخليفة ، والاستئذان والمجالسة ، والاحتجاب عن الجلساء ، وعلامات صرف الجلساء ، ومجالس الأدب والشعر ، واحترام أهل العلم ، وتقديم الشعراء وعطائهم ، ومجالس المناظرة والعلم ، ومجالس الغناء والأنس ، والمواكب والاحتفالات ، والخلع على رجال الدولة واستقبال الوفود وغير ذلك(١) .

كما عني الكتاب بتوضيح مراسم الكتابة عن الخلفاء وإليهم ، كما عنوا بذكر صيغ دباجتهم وعهودهم وطريقة مخاطبتهم ، والتقاليد المرسلة منهم ، والولايات الصادرة عنهم .

ومن المراسم التي اهتم بها الكتاب بصفة عامة ألقاب الخلفاء وأنواعها وترتيبها في الظروف المختلفة ، وقد أفردوا لذلك أجزاء كبيرة من البحوث والمؤلفات .

---

(١) جرجي زيدان : التمدن الإسلامي جـ ٥ ص ١٣١ .

وكان الخليفة يطلق عليه ألقاب عامة . وأول هذه الألقاب ظهوراً هو لقب أمير المؤمنين .

ولم يطلق لقب أمير المؤمنين على النبى صلى الله عليه وسلم ، غير أن العرب غير المسلمين كانوا يلقبونه بأمير مكة وأمير الحجاز ، وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم خلفه فى الولاية العامة أبو بكر فصار يسمى خليفة رسول الله ، ولما جاء بعده عمر بن الخطاب صار يسمى خليفة خليفة رسول الله ، وكأن المسلمين استثقلوا هذا الاسم فلقبوه بأمير المؤمنين . وربما أطلق الاسم مصادفة فاستحسنه الناس .

ومنذ عهد عمر صار « أمير المؤمنين » هو اللقب الرسمى لمن شغل الولاية العامة على المسلمين . واتخذه الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، والفاطميون ، وبنو أمية فى الأندلس منذ سنة ٣١٦ هـ ، والموحدون منذ عهد عبد المؤمن بن على وبنو حفص والزيدية فى اليمن .

ومن الملاحظ أن لقب « أمير المؤمنين » ورد فى اللغة اليونانية بصيغ قريبة من النطق العربى[1] ، كما وردت له ترجمة حرفية فى بعض أوراق البردى اليونانية . كما وردت فى بعض الوثائق الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (٨ م) نتيجة للعلاقات التى وجدت بين الدولة الاسلامية فى العصر العباسى والصين فى عهد أسرة تانج ، وقد ظهر بصيغة قريبة من الصيغة العربية هى : هامى — مو — مو — نى . وفى هذه الوثائق ورد اسم الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور بصيغة آ — بو — لو — با — واسم هارون الرشيد : آ — لون .

هذا وقد تألف من لقب « أمير المؤمنين » ألقاب أخرى أطلقت على باقى رجال الدولة : مثل « مولى أمير المؤمنين » و « حسام أمير المؤمنين » ،

---

(١) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ١٩٥ : انظر أيضاً

CPR III, 1-2, P. xx.

وتوضح هذه الألقاب مدى الصلة بين الخليفة والملقب . وإن دراسة تطور هذه الألقاب على مدى الزمن تبين كيف أن سلطة الخلفاء أخذت تضمحل إزاء سلطة الأمراء : فبعد أن كان الوالى يلقب فى أول الأمر « بمولى أمير المؤمنين » صار فى عصر بنى بويه يلقب « بقسيم أمير المؤمنين » .

ومن الألقاب العامة التى اتخذها خلفاء بنى العباس أيضاً لقب إمام . واللفظة مشتقة من « أم » ، أى تقدم وأصبح قدوة . وجاء بهذا المعنى فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة .

ومن أبرز استعمالاته فى الإسلام إطلاقه على ولى الأمر أى الوالى أو الحاكم — وجاء بمعنى ولى الأمر والوالى والحاكم فى أحاديث نبوية شريفة مثل : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » .

ولكن لم يثبت من الوثائق التاريخية أن أحداً من خلفاء صدر الإسلام وبنى أمية أطلق عليه هذا اللقب فى حياته على سبيل التكريم ولو أن العرف جرى على إطلاقه على على بن أبى طالب .

وذكر القلقشندى أن أول من تلقب « بالإمام » هو ابراهيم بن محمد من بنى العباس ويفهم من نص القلقشندى فى كتابه : « ضوء الصبح المسفر » أن لقب « الإمام » لم يكن فى هذه الحالة لقباً عاماً بل كان نعتاً خاصاً إذ يقول « ولقب ابراهيم بن محمد العباسى بالامام ولقب أول الخلفاء العباسيين « بالسفاح » ثم لقب أخوه أبو جعفر بالمنصور ثم توالت ألقاب خلفائهم بعد ذلك « إلى الآن » .

ويغلب على الظن أن أول من أطلق عليه « الإمام » كلقب فخرى عام هو المهدى حين كان ولياً للعهد ، إذ ورد ضمن ألقابه على سكة بتاريخ سنة ١٥١ هـ

من بخارى(١). ومنذ ذلك الوقت صار هذا اللقب عاما على خلفاء بنى العباس وغيرهم. وتجـــدر الاشارة إلى الصلة بين تلقب المهدى « بالإمام » ولقبه « المهدى » إذ أن فى ذلك إشارة إلى أن مهمة الإمام هى الهداية وقد جاء ذلك فى الآية الكريمة « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ».

وجرت العادة منذ العصر العباسى أن يتخذ الخلفاء نعوتا خاصة بهم كالرشيد والمعتصم، وكان من عادة الخلفاء العباسيين ألا يتلقب خليفة بلقب خليفة قبله إلى أن انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة فاتخذ الخلفاء ألقاب الخلفاء قبلهم.

وكانت سلسلة ألقاب الخليفة تفتتح فى المكاتبات بعبدالله ووليه وكان يتسمى بكنيته كما كان يلقب بكثير من ألقاب الكناية مثل الحضرة والديوان العزيز.

كما اهتم الكتاب بالإشارة إلى أدعية الخلفاء مثل « الطايقة » أو دعاء « أطال الله بقاءه » الذى كان مخصوصاً بهم.

الوزارة

الوزير كلمة عربية اختلف فى اشتقاقها : فقيل إنها مشتقة من الوزر بفتح الواو والزاى وهو الملجأ، سمى الوزير بذلك لأن الرعية يلجأون إليه فى حوائجهم، وقيل مشتقة من الأوزار بمعنى الأمتعة، لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته، وقيل من الوزر بكسر الواو وسكون الزاى وهو الثقل لأنه يتحمل أثقال الملك، وقيل من الأزر وهو الظهر سمى بذلك لأنه يقوى الحاكم الأعلى كما يقوى الظهر البدن(٢).

وعرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام، إذ كان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الإسلام يسمون أبا بكر وزير النبى صلى الله عليه وسلم، وكذلك كان شأن عمر مع أبى بكر وشأن على وعثمان مع عمر.

---

(١) Katalog der Orientalischen Munzen, Konigliche Museen zu Berlin. Berlin 1898.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٨٨ .

وذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب بعث إلى الكوفة بعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وقال لأهل الكوفة : إنى بعثت بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً (١) .

وفى عصر بنى أمية إتلقب بالوزير زياد بن أبيه فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وروح بن زنباع الجذامى فى عهد عبد الملك . وربما كانت تسمية الوزير فى صدر الإسلام والعصر الأموى مستمدة من الآيات الكريمة : «واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى . أشدد بى أزرى. وأشركه فى أمرى».

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها فى العصر العباسى : إذ صار الخليفة العباسى يستعين فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير . ويبدو أن منصب الوزير فى العصر العباسى تطور عن منصب الكاتب فى العصر الأموى . وربما وجد أكثر من وزير كان يرأسهم أحدهم (٢) . وكان أبو سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس وكان يلقب « بوزير آل محمد » وصار الوزير فى العصر العباسى الأول يتقاضى مرتباً ضخماً بالإضافة إلى الإقطاع .

ويتميز العصر العباسى الأول بالصراع بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير : ذلك الصراع الذى كان يؤدى عادة إلى القضاء على الوزير ، غير أن الصراع بين السلطتين لم يكن ينتهى بالقضاء على أحد الوزراء : إذ كان من يحل محله لا يلبث أن يحاول إقرار سلطة الوزارة وتقوية نفوذها . ومما تجدر الإشارة

---

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن : النظم ط ٣ ص ١١٣ .

(٢) جاء فى الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٣١ أن أبا العباس السفاح استشار وزراءه فى بعض الأمور .

إليه أنه فى كثير من الأحيان كان يشغل الوزارة فى العصر العباسى رجال من أصل فارسى وكانوا يعملون على إقرار أسرهم فى هذا المنصب ، وربما فعلوا ذلك تأثراً بالتقاليد الساسانية أو محاولة منهم لإرجاع السلطة إلى الفرس . ومن الأسر الفارسية التى نجحت فى الوصول إلى هذا المنصب فترة من الزمن ثم قضى عليها أسرة البرامكة فى عهد الرشيد (١) .

ولم يتعرض الوزراء فى العصر العباسى للضغط من قبل الخلافة فقط بل إنهم تعرضوا لضغط آخر من قبل الطامعين فى الاستئثار بالنفوذ والسلطان من العسكريين من غلمان الخلفاء ولاسيما من الأتراك .

وكاد هذا الضغط فى وقت من الأوقات أن يؤدى إلى زوال هذا المنصب: إذ حدث بعد مقتل المتوكل فى سنة ٢٤٧ هـ أن توقفت الوزارة مدة تسع سنوات ، ولم ترجع إلا بخلافة المعتمد فى سنة ٢٥٦ هـ .

وبالرغم من المنافسة الشديدة التى تعرض لها الوزراء من قبل الخلفاء من جهة ومن قبل القواد الأتراك من جهة أخرى ، فقد نجح بعضهم فى إثبات أسمائهم على السكة وعلى طراز المنسوجات (٢) . وفى بداية القرن الرابع الهجرى (١٠م) شغل منصب الوزارة أبو الحسين على بن عيسى الذى ساعدته كفاءته وخبرته وأخلاقه على أن يستفيد من كفاح سلفه من الوزراء فى إقرار منصب الوزير وسلطته وفى ضبط أمور الدولة وحسن تدبيرها .

ولكن لم تلبث أن تدهورت سلطة الوزارة منذ خلافة الراضى (٣٢٢-٣٢٨هـ) بسبب ظهور منصب أمير الأمراء . ثم انحط مركزها فى عهد بنى بويه إذ صار

---

(١) ديمومبين : نظم ص ١٥٠ .

(٢) د . حسن الباشا : الفنون الإسلامية جـ ٣ ص ١٢٣٥ .

الوزير سواء أكان وزيراً للخليفة أو لأمير الأمراء أشبه بالكاتب . وفى هذا العهد أطلق على الوزراء لقب «الصاحب» .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١م) ظهر وزراء أقوياء فى الأسر التى استقلت عن الخلافة العباسية واستطاع بعضها أن يسيطر عليها مثل بعض وزراء السلاجقة ومن أشهر هؤلاء الوزراء نظام الملك الذى وزر للسلطان ألب أرسلان وللسلطان ملكشاه ، وكان قوى النفوذ عظيم السلطان .

وانتقل منصب الوزارة من الدولة السلجوقية إلى دول الأتابكة وغيرها من الدول التى تفرعت منها ثم انتقل من الدول الأتابكية وبخاصة الدولة النورية إلى مصر فى عهد الأيوبيين ثم فى عصر المماليك . على أن مصر كانت قد عرفت منصب الوزارة قبل ذلك إذ يرجع إلى ماقبل العصر الفاطمى .

وكما ورث الأيوبيون والمماليك فى مصر منصب الوزارة عن العباسيين والسلاجقة ورثه أيضاً المغول فى إيران والعراق وكذلك الدويلات المعاصرة ، كما عرف أيضاً فى غرب العالم الإسلامى : فى بلاد الأندلس والمغرب .

ونظراً إلى أهمية منصب الوزارة وانتشاره فى الدول الإسلامية المختلفة أفردت عن الوزارة والوزراء كثير من المؤلفات مثل كتاب « أدب الوزير للماوردى» وكتاب «الوزراء» لابن عبدوس الجهشيارى ، و«الإشارة إلى من نال الوزارة» لابن الصيرفى ، كما عنيت به كثير من كتب النظم والمصطلح وغيرها من المؤلفات .

وتتحدث بعض كتب النظم عن نوعين من الوزارة هما : وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ ويختلف النوعان من حيث السلطات والشروط .

فمن حيث السلطات يجوز لوزير التفويض دون وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر فى المظالم وحق تفويض الولاة . والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه .

ومن حيث الشروط يشترط فى وزير التفويض دون وزير التنفيذ : (١) الحرية (٢) والإسلام (٣) والعلم بالأحكام الشرعية (٤) والمعرفة بأمرى الحرب والخراج .

أما فيما عدا ذلك فيستوى النوعان فى باقى الحقوق والشروط ومع ذلك فليس لدينا أدلة تاريخية عن تطبيق عملى لمثل هذا التقسيم المحدد .

الإمارة

الأمير هو ذو الأمر أو المتسلط . وتستخدم هذه اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخرى .

ومن حيث استخدام اللفظة كاسم وظيفة بمعنى الوالى فقد عرفت عند العرب قبل الإسلام واستخدمت أيضاً فى صدر الإسلام .

وكان نظام الحكم الإسلامى يقتضى أن يلى أمور المسلمين وال أعلى هو الخليفة له حق الطاعة على الأمة كلها . وكانت البلاد الإسلامية تنقسم إلى أقطار أو ولايات يولى عليها ولاة يستمدون سلطانهم من الخليفة ويتبعونه . وقد ظل هذا النظام سائداً فى الدولة العباسية التى كانت تنقسم إلى عدة ولايات كان يولى على كل منها وال .

وكانت ولايات الدولة العباسية فى عهد السفاح مثلا كما يلى :

(١) الكوفة والسواد (ما بين الفرات ودجلة) (٢) البصرة وإقليم دجلة

والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسجستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة (١٠) سورية (١١) مصر وأفريقية (١٢) السند .

وقد كان يجمع بين بعض هذه الولايات فى بعض الأحيان أو تقسم الواحدة منها إلى ولايتين أو أكثر . وقد فصل السفاح مثلا فلسطين عن الشام كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين . وكانت صقلية تتبع لولاية أفريقية . واستمرت أفريقية تتبع والى مصر إلى أن استقل بأفريقية إبراهيم بن الأغلب فى عهد هارون الرشيد استقلالا داخليا .

وكان الاسم الرسمى لكل من يلى هذه الولايات هو أمير . وقد استخدم لقب « الأمير » للولاة فى جميع الأقطار الإسلامية سواء أكانوا خاضعين للخلافة خضوعاً فعلياً أو إسمياً أم كانوا مستقلين عنها وكذلك أطلق على الوالى الذى كان يستولى على ولايته عنوة . (وفى العصور المتأخرة أطلق على الوالى اسم الملك أو السلطان وأسماء أخرى) .

وأفاض الكتاب[١] فى الكلام عن الأمير وواجباته وشروطه ومهماته أحياناً من الناحية النظرية أو الفقهية وأحياناً أخرى وصفاً لما هو كائن فعلا فقسموا الإمارة إلى نوعين إمارة خاصة وإمارة عامة . وأما الإمارة الخاصة فهى أن يقتصر فيها إشراف الأمير على تدبير الجيش وسياسة الشعب وحماية الولاية فى حدود معينة فقد لا يكون له حق الإشراف على القضاء أو المال أو إمامة الصلاة إذ قد يعين لها الخليفة مشرفين مستقلين عن الأمير ، وكانت الإمارات الخاصة قليلة فى إبان الخلافة العباسية .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج٩ ص ٣٩٩ — ٤٠٣

وأما الإمارة العامة فقسموها إلى نوعين : أولها امارة استكفاء وهى التى تنعقد عن اختيار الخليفة وبتفويض منه ، وثانيهما إمارة استيلاء وهى تنعقد عن اضطرار بأن يستولى الوالى على الولاية بالقوة بحيث يضطر الخليفة إلى الاعتراف به (١) .

ومهمة الأمير فى كلتا الحالتين هى النظر فى أمور الدين فى ولايته ولاسيما الصلاة وإمامتها ، والإدارة والسياسة والحكم ، والدفاع وإعداد الجيش وقيادته ، والحكم والقضاء ، وتدبير الأموال . وينيب الأمير بطبيعة الحال من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال . وفى حالة تبعية الأمير للخلافة تبعية حقيقية قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقل عنه يكون مسئولا مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج .

وجرت العادة أن يقيم الأمير فى قصر بجوار المسجد يسمى دار الأمارة .

وكان الأمراء يسكون أسماءهم على العملة بالإضافة إلى اسم الخليفة وكذلك على الطراز .

وظل لقب الأمير يطلق على ولاة الأسر التى استقلت بولاياتها مثـــل الطولونيين والأخشيديين فى مصر وبنى حمدان وبنى مرداس فى حلب (القرن الخامس ه) وبنى مروان فى ميافارقين وآمد (ق ٤ ه) وبنى عقيل فى العراق وبين النهرين . والطاهريين والسامانيين وغيرهم .

كما أطلق أيضاً على الولاة من بنى بويه الذين أنشئت بظهورهم إمارة ثانية فى قلب الخلافة العباسية نفسها إذ تحكموا فى بغداد وصار الخليفة بالنسبة لهم فى المرتبة الثانية من حيث الإدارة والسياسة فصار لهم الوزراء وللخلفاء الكتاب .

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٨

وكان أبناء الخلفاء وولاة عهدهم إذا ولوا ولايات أطلق عليهم لقب الأمير ، وقد أطلق على الأمين محمد بن أمير المؤمنين على سكة بتاريخ سنة ١٨٣ هـ ، وكذلك على المأمون حينما ولى حاكماً فخرياً على نيسابور فيما بين سنتى ١٨٧ هـ و١٩١ ، وعلى سكة بتاريخ سنة ١٨٧ هـ من بلخ باسم « الأمير المأمون عبدالله بن أمير المؤمنين ولى عهد المسلمين » كما أطلق أيضا على الأمير الرضا ولى عهد المسلمين على بن موسى على سكة بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ من مدينة سمرقند . ومن المعروف أنه ولى هو الآخر حاكماً فخرياً من قبل العباسيين (١) .

وعرف « الأمير » أيضاً كاسم لوظيفة الوالى فى غرب العالم الإسلامى أى فى بلاد الأندلس وشمال أفريقية .

ومن المعروف أن والى الأندلس الذى كان يتبع الوالى العام للمغرب صار يسمى بعد فتح إسبانيا بالأمير ، وصار بنو أمية يتلقبون بالإمارة منذ أن استقر عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨ هـ حتى تولى الأمير عبدالرحمن بن محمد إمارة قرطبة فأمر فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦هـ أن يخطب له بأمير المؤمنين .

وفى شمال أفريقية عرف الولاة باسم الأمراء بل إن أولى الأمر من المرابطين تلقبوا بالإمارة فى أول الأمر ، وظل لقب الأمير ينقش على السكة الى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين فاتخذ لقب أمير المسلمين بعد فترة من حكمه .

---

(١) د حسن الباشا : الفنون الإسلامية جـ١ ص١٢٩ .

الكتابة

اسم فاعل من كتب ومعناها جمع يقال « تكتب القوم » إذا تجمعوا ، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ، ومن ثم سمى الخط كتابة لجمع الحروف وضم بعضها إلى بعض .

ويطلق لفظ كاتب على كل من يقوم بالكتابة وبالتحرير .

ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من إنشائية وحسابية ومالية وغير ذلك وجرت العادة أن يتخذ أولياء الأمور كتاباً يستعينون بهم فى إنشاء المكاتبات الخاصة بهم وفى عمل الحسابات اللازمة وغير ذلك من الأعمال الكتابية وقد وصلنا توقيع أحد هؤلاء الكتاب ضمن نقش أثرى عربى يرجع إلى ما قبل الإسلام : إذ عثر فى أم الجمال على كتابة أثرية ترجع إلى القرن السادس الميلادى على لوح من الحجر اصطلح على تسميتها بكتابة أم الجمال الثانية وهى تتضمن دعاء لأحد الكتاب نصه : « الله غفرا لأليه بن عبيده كاتب الخليد أعلى بنى عمرى ... » ويتضح من هذه الكتابة أن أليه بن عبيدة كان كاتباً للخليد .

وبعد ظهور الإسلام اتخذ النبى (صلى الله عليه وسلم) كتاباً يكتبون له القرآن والوثائق المختلفة كالمكاتبات التى كان يرسلها إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام والعهود والمعاهدات وممن كتب للنبى (صلى الله عليه وسلم) على وعثمان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة .

ومنذ ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من ذوى العلم والمعرفة الملمين بالكتابة: فاتخذ أبو بكر عثمان بن عفان ، واتخذ عمر زيد بن ثابت وعبدالله ابن الأرقم ، واتخذ عثمان مروان ، واتخذ على عبدالله بن أبى رافع

وفى عهد عمر عين لكل ولاية إسلامية كاتب ، كما عين محمد بن شاهين الزهرى كاتباً للجيش .

وكانت مهمة الكاتب فى أول الأمر هى تحرير الرسائل والأوامر ولما دونت الدواوين اتسعت أعماله فشملت بالإضافة إلى ذلك ضبط حساب الديوان وأسماء الجند واعطياتهم (١) .

أما بخصوص كتابة الخراج والجباية فى الولايات فكان يقوم بها كتاب من أهلها إلى أن عرب عبد الملك بن مروان الدواوين .

ونستطيع أن نقول أنه وجد فى عصر الخلفاء الراشدين وصدر بنى أمية ثلاثة أنواع من الكتبة : كتبة الرسائل ، وكتبة ديوان الجيش ، وكتبة المال والجبايات .

وبعد تعريب عبد الملك بن مروان الدواوين بدأت تظهر طبقة الكتاب التى صارت تمثل صفوة المثقفين ، كما زاد أنواع الكتاب إلى خمسة ظلت موجودة إلى العصر العباسى : وهم كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى ، وكان أعلاهم كاتب الرسائل (٢) .

وأشار عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى رسالة له إلى كتاب الرسائل إلى خطورة منصبهم ، وإلى ضرورة إلمامهم التام بصناعة الكتابة وإلى الأخلاق والصفات الحميدة التى يجب أن يتحلوا بها .

ووجه عبد الحميد هذه الرسالة إلى « معشر الطلبة والكتبة » مما يستشف منه أن الكاتب كان يمر بمرحلة تدريبية هى مرحلة الطالب وذلك قبل أن يتولى وظيفة الكتابة (٣) .

---

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ — ١٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٤٣ .
(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٥ — ٢٧٩ .

واحتل الكاتب في أواخر عصر بني أمية مكانة رفيعة لصورها مكانة عبد الحميد الكاتب عند مروان بن محمد حتى أن الكاتب كان يسمى أيضاً باسم مشير(١) .

ومهدت هذه المكانة لأن يصبح الكاتب في عصر العباسيين بمثابة وزير بل صار يطلق عليه أيضاً لقب وزير : إذ لقب السفاح كاتبه أبا سلمة الخلال بلقب وزير ، ولم يتخذ المنصور في أول الأمر وزيرا واكتفى بكاتبه عبد الملك بن حميد وقلده كتابة دواوينه ثم اتخذ أبا أيوب المورياني لينوب عنه في مرضه ثم جعله آخر الأمر وزيراً له : واستقر منذ ذلك الوقت لقب الوزارة في الدولة العباسية ، وصار الكاتب مجرد موظف في الدواوين العباسية المختلفة ولو أن كتاب الرسائل حظوا بمركز رفيع نظراً لصلتهم الوثيقة بأولي الأمر من خلفاء وسلاطين ووزراء وأمراء حتى أن بعضهم كانوا يستشارون في أمر تولية الخلافة .

وطرأ على منصب الكاتب تغيير مهم في عهد ابن رائق حين شل سلطة الخليفة الراضي في ٦ ذي الحجة سنة ٣٢٤ هـ / ٩ نوفمبر ٩٣٦ م وقيد سلطة الوزير وأبطل الدواوين وصار هو وكاتبه ينظران في الأمور جميعها . وظلت الحال كذلك بالنسبة لمن ولي الامارة بعد ابن رائق : إذ اتسعت سلطات كاتب أمير الأمراء في عهد بني بويه وصار له الإشراف على سائر الموظفين والكتاب .

واحتفظ الغزنويون بالنسبة للكتاب بالنظام الذي كان سائداً في الدولة العباسية في ذلك الوقت : فكان كاتب السلطان قوي النفوذ يستشيره السلطان في شئون الدولة من تعيين الولاة إلى تسيير الجيوش .

وظلت الحال على ذلك في دولة السلاجقة حيث اشتهر إلى جانب كاتب

---

(١) الفخري : ص ١٣٦ — ١٣٧ .

الرسائل كاتب الخراج وكاتب الجند [1] . وفى عهد نظام الملك نشأت طبقة الكتاب الجياد الذين فرعوا المناصب وولوا المراتب .

ومع ذلك فقد كان يتولى وظائف الكتاب فى ذلك العصر بعض الأحيان أفراد غير ملمين بصناعة الكتابة الإلمام الكافى حتى أنهم تعرضوا لسخرية بعض الشعراء :

أمس الزمان لقد أتى بعجاب ومحا صنوف العلم والآداب
وأتى بكتاب لو انطلقت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب

وكان الكتاب أحياناً موضع تهكم الشعراء إذ كانوا يتهمونهم بالرشوة والتوسط للبعض ظلما وبمشاركة العمال فيما يأتيهم من الهدايا .

وكان الكتاب فى الولايات التابعة للخلافة الإسلامية يسيرون على نهج كتاب الخلافة وحسب أنظمتهم وكان الكتاب فى مصر مثلا ينقسمون إلى قسمين أساسيين هما كتاب الخراج أو المال ويتولون كتابة حساب الأموال ، وكتاب الرسائل ويتولون تحرير رسائل الوالى . واستمرت الحال على ذلك فى العصر الطولونى وعصر الأخشيديين .

الحجابة

عرفت الحجابة فى مكة قبل الإسلام وكانت تعنى حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها [2] .

وعرفت الحجابة فى الإسلام بدلالة جديدة إذ أصبح « الحاجب »

---

(١) دكتور عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ١٩٧ .
(٢) دكتور جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٣٩ — ٤٢

يطلق على من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم الاتصال له ، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به .

وصارت وظيفة الحجابة ذات أهمية رسمية بعد محاولة الخوارج اغتيال معاوية بن أبي سفيان .

واستمرت وظيفة الحجابة في الدولة العباسية وزادت أهميتها وسلطتها تدريجيا . وبدأ الخلفاء العباسيون باتخاذ حجاب اقتصر سلطانهم في أول الأمر على حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه : ثم قوى سلطان الحاجب فصار يمنع الناس عن مقابلة الخليفة إلا في الأمور الهامة : إذ صار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان حسب ما يراه الحجاب (وهذا ما يسمى بالحجابة الثانية) ، ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون عن الخليفة نفسه ، ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام .

وكان للحجابة في العصر العباسي قوانين ورسوم أوضحها هلال الصابىء في كتابه رسوم دار الخلافه (١) .

وصار يشغل هذه الوظيفة أفراد من العسكريين ذوى القدر الرفيع والرتبة العالية .

وأتاحت هذه الوظيفة لمن يشغلها فرصة للتحكم فيمن يحجبه من جهة وفي المحكومين من جهة أخرى ، كما تهيأت الظروف لبعض الحجاب في أن يغتصبوا السلطة ويؤسسوا دولا وأسرا حاكمة : فكان سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية حاجبا لنوح الثالث ثم لابنيه منصور وعبد الملك رؤوس الدولة السامانية ، وظل سبكتكين يلقب بالحاجب حتى بعد توليه الملك .

---

(١) ص ٧١ .

واستمرت وظيفة الحاجب في عصر السلاجقة من الوظائف الرئيسية كما كان الحاجب يعد من أهم رجال البلاط . كما صار واسطة بين السلطان والوزير : إذ صار هو الذى يتلقى الأوامر شخصيا من السلطان ويبلغها إلى وزير وأعيان المملكة ، كما كان هو الذى يبلغ مطالبهم إلى السلطان وكان الحاجب الأعظم (حاجب بزرك) يشرف على أمور البلاط ، كما كان كثيراً مايتدخل فى شئون الدولة ويستبدبها دون الوزير ، كما كان أصحاب الدواوين أى رؤساء الدواوين يرجعون إليه فى المسائل المتعلقة بدواوينهم .

هذا وأطلق لقب حاجب الحجاب على حاجب الخليفة القائم فى سنة ٤٥٣ هـ . كما كان للحاجب فى عصر السلاجقة نائب . ويبدو أنه منذ القرن السادس الهجرى (١٢م) صار كبير الحجاب يسمى بأمير حاجب مما يدل على قوة شوكته(١) .

وفى عصر السلاجقة أسس أيضاً بعض الحجاب أسراً حاكمة ، وأوضح مثال لذلك قسيم الدولة آق سنقر الحاجب أبو عماد الدين زنكى رأس الأسرة الزنكية التى حكمت الموصل وغيرها .

وحقق كثير من الحجاب فى عصر السلاجقة والأتابكة درجة كبيرة من الثراء بالإضافة إلى السلطة والنفوذ بحيث استطاعوا أن يشيدوا عمائر فخمة وضعوا عليها أسمائهم كما كان بعض الحجاب يسند إليهم الإشراف على تشييد بعض العمائر(٢) .

هذا وقد انتقلت وظيفة الحاجب إلى الدولة الأيوبية فى مصر وسوريا ثم المملوكية عن طريق دولة الأتابكة والدولة النورية إذ أن لقب الحجابة

---

(١) انظر مثلا الراوندى : راحة الصدور ص ١٦٠ و ٣٩٤ .

(٢) انظر مثلا : Herzfeld, Khorasan, Islam, XI, P. 167

لم يعرف فى الدولة الفاطمية حيث كان من يقوم بهذه الوظيفة يسمى صاحب الباب . واتسعت سلطة الحاجب فى مصر فى عصر المماليك اتساعاً كبيراً حتى وصلت حد التدخل فى الأحكام الشرعية ومزاحمة قضاة الشرع فيها كما زاد عددهم زيادة كبيرة ، وصاروا ينقسمون إلى درجات متفاوتة .

وعرف الحاجب فى غرب العالم الإسلامى حيث تطور مدلوله واختصاصاته ففى أول الأمر كان الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه(١). وأخذت سلطة الحاجب فى الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأنا وصار يسمى بذى الوزارتين وصار يشرف على الشئون المدنية والعسكرية ، ثم زاد نفوذه حتى استبد بالأمر وسيطر على الخليفة ، وبذلك صارت إليه أمور الدولة فى أواخر الخلافة الأموية بالأندلس (٢) .

ولما ولى الحجابة المنصور محمد بن أبى عامر فى سنة ٣٩٢ ﻫ حجر على الخليفة الطفل المؤيد هشام الثانى (٣٦٦ — ٣٩٩ ﻫ / ٩٧٦ — ١٠٠٩ م) واتخذ الزاهرة عاصمة جديدة بناها بدلا من الزهراء .

ومن الغريب أن المنصور ظـــل محتفظاً بلقب الحاجب رغم استبداده بالسلطة ، كما خلفه ابناؤه الذين احتفظوا بلقب الحاجب إلى إن سقطت الدولة العامرية فى سنة ١٠٠٨ م .

واحتفظ ملوك الطوائف بالأندلس بلقب الحاجب رغم تلقبهم بألقاب الخلافة ، وصار لقب الحاجب فى عصرهم يعنى الحاكم الشرعى والملك والخليفة أى صاحب السلطان الأول فى الدولة .

---

(١) Hitti, History of the Arabs, P. 527

(٢) دكتور السيد عبد العزيز سالم : النظم السياسية بالأندلس ص ٢٢٥ .

الدواوين

كانت الإدارة الحكومية فى الدولة الاسلامية موزعة على عدد من الدواوين سواء فى عاصمة الخلافة أو فى الولايات حيث وجدت دواوين إقليمية .

ويثير الأصل اللغوى لكلمة الديوان بعض الخلاف : إذ يميل سيبويه إلى أن اللفظة عربية إذ يقال دونه بمعنى أثبته(١) فى حين يرى ابن قتيبة(٢) أن الديوان فارسى : إذ كان يقال للكتاب والحساب فى الفارسية ديوان أى شياطين لحذقهم بالأمور وسمى موضعهم باسمهم ، ويقال فى ذلك أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون على أنفسهم فقال «ديوانه» أى مجانين ، فسمى موضعهم بهذا الاسم ، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً للاسم فقيل ديوان .

ويبدو أن الديوان عرف فى الدولة الاسلامية أولا بمعنى السجل وذلك حين وضع عمر الديوان أى سجل لإيرادات الدولة ومصروفاتها وأسماء المسلمين وأعطياتهم .

وظلت اللغة المكتوب بها فى ديوان كل ولاية هى اللغة السائدة فيها إلى أن أمر عبد الملك بتعريب الدواوين . وكان لهذا أثره فى نشر اللغة العربية وفى تقوية القومية العربية .

وصارت لفظة الديوان تنسحب على المكان الذى كان يعمل فيه الكتاب ومن ثم صار يطلق على الإدارة الحكومية لاسيما ما يتصل عملها بجباية الخراج أو الضرائب أو المكوس .

وجرت العادة أن يكون مكان الديوان بالمسجد الجامع فى العاصمة ثم

---

(١) الصولى : أدب الكتاب ص ١٨٨ .

(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٦٩ .

نقلت الدواوين من الجامع إلى دار الإمارة أو دار الوزير أو القصر أو إلى دار كانت تسمى بدار الملك فى العصر الفاطمى: الأفضل). وفى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) كانت الدواوين تغلق فى دار الخلافة يومى الجمعة والثلاثاء .

ويلاحظ أنه كان هناك تمييز واضح بين الديوان وبين السلطات المالية . وأياً ما كان الحال فإنه لم يصلنا معلومات وافية عن الدواوين العباسية ومن ثم كان على الباحثين أن يجمعوا معلوماتهم من أخبار متفرقة وأن يحاولوا التوفيق بينها .

هذا وقد أنشأ المهدى ديوان الأزمة أو الزمام وكانت مهمته القيام بجمع ضرائب بلاد العراق ، وتقديم حساب عن الضرائب فى الأقاليم الأخرى . كما كان من اختصاصه أيضاً جمع الضرائب العينية المسماة بالمعاون .

ووصلنا ثبت بدواوين معينة فى عهد المتوكل لكل منها اختصاصاته المتميزة فنجد مثلا ديوان الموالى والغلمان وكانت تسجل فيه أسمـــاء موالى الخليفة وعبيده ، وديوان النفقات وديوان الرسائل ، وديوان النظر فى المظالم ويتضح من وظيفته أنه كان لكل مواطن الحق فى التظلم للخليفة نفسه .

وفى عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ — ٩٠٢) ضمت دواوين الدولة فى ديوان واحد أطلق عليه اسم «ديوان الدار» أو «ديوان الدار الكبير» وقسم هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام: هى ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد العراق) .

وكانت الدواوين بدورها تنقسم إلى أصول وأزمة وكانت مهمة الأصل فرض الضرائب وحملها إلى بيت المال .

وفى سنة ٣٠٠هـ / ٩١١م فى عهد المقتدر عين لكل من الأصل والزمام رئيس مستقل .

وفى عهده أيضاً ظهرت دواوين جديدة إذ نتيجة لازدياد المشاكل المالية

أنشىء ديوان المصادرات أو المصادرين وكذلك ديوان الجهبذة أى المحاسبة أو الصيرفة كما أنشىء أيضاً ديوان التوقيع وديوان الفض وديوان الخاتم وديوان الأوقاف وديوان البر والصدقات .

هذا وقد وجدت دواوين أخرى فى عصور مختلفة مثل ديوان الحوائج وديوان الأحشام وديوان المنح أو المقاصاة وديوان الأكره للإشراف على الترع والجسور وشئون الرى .

وأحياناً نجد الإشارة إلى مجموعة من الدواوين يجمعها ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات ويقسم أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج .

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر فى مصالح غير المسلمين يدعى رئيسها الجهباز هذا وقد كثرت الدواوين كثرة كبيرة فى الدولة الإسلامية وتنوعت وذلك نظراً لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تعميق وتفريع وتخصص ؛ ومن الملاحظ أنه ربما أبطل بعضها فى وقت من الأوقات وربما استمر بعضها الآخر ، وكان لكل من هذه الدواوين مهماته الخاصة وتقاليده وأنظمته(١) .

ومن الدواوين التى أنشئت فى الدولة الإسلامية مرتبة حسب الحروف الهجائية :

١ - ديوان الأحباس (أى الأوقاف)	٢ - ديوان الأحداث والشرطة
٣ - « الأحشام	٤ - « الأزمة
٥ - « الاستدارية	٦ - « الاستيفاء
٧ - « إستيفاء الخاص	٨ - « الأسطول
٩ - « أسفل الأرض	١٠ - « الأشراف
١١ - « الأعمال والجبايات	١٢ - « الإقطاع

(١) دكتور عبد العزيز الدورى : النظم ص ١٩٩ .

١٣ - ديوان الأموال	١٤ - ديوان الإنشاء
١٥ - » الأمراء	١٦ - » البر والصدقات
١٧ - » البريد	١٨ - » البيمارستان
١٩ - » التحقيق	٢٠ - » الترسل
٢١ - » التوقيع	٢٢ - » الثغور
٢٣ - » الجند	٢٤ - » الجند والشاكرية
٢٥ - » الجوالى والمواريث الحشرية	٢٦ - » الجهبذة
٢٧ - » الجيش أو ديوان الجيوش	٢٨ - » حاكم بغداد
٢٩ - » الحجرية الكبرى	٣٠ - » الحشر
٣١ - » الخاتم	٣٢ - » الحكم
٣٣ - » الخاص	٣٤ - » الخاصة
٣٥ - » الخراج	٣٦ - » الخراجى
٣٧ - » الخرائط	٣٨ - » الخزانة
٣٩ - » خزانة السلاح	٤٠ - » خزائن الكسوة
٤١ - » الخلافة	٤٢ - » الخمس
٤٣ - » الخواص	٤٤ - » الدار
٤٥ - » الدية	٤٦ - » الرسائل
٤٧ - » الزكاة	٤٨ - » الرواتب
٤٩ - » الزمام	٥٠ - » زمام الأزمة
٥١ - » زمام النفقات	٥٢ - » السر
٥٣ - » السلطان	٥٤ - » السواد
٥٥ - » الشد	٥٦ - » الشرطة
٥٧ - » الصحبة	٥٨ - الديوان الشريف

٥٩ - ديوان الصيد
٦٠ - ديوان الصدقات
٦١ - » صندوق المستخرج
٦٢ - » الصناعة
٦٣ - » الضياع
٦٤ - » الصواف
٦٥ - » الطغرا
٦٦ - » الطراز
٦٧ - » العرض
٦٨ - » العطاء
٦٩ - » العساكر
٧٠ - الديوان العزيز
٧١ - » الغلمان
٧٢ - ديوان العمائر
٧٣ - » قاضي القضاة
٧٤ - » الفض
٧٥ - الديوان الكبير
٧٦ - » الكراع
٧٧ - ديوان الكشف
٧٨ - » القضاء
٧٩ - » المجلس
٨٠ - » المال
٨١ - » المرتجع
٨٢ - » المراسلات
٨٣ - » المشرق
٨٤ - » المستغلات
٨٥ - » المظالم
٨٦ - » المصادرة
٨٧ - » المفرد
٨٨ - » المغرب
٨٩ - » المقاصاة
٩٠ - » المقابلة
٩١ - » المنح
٩٢ - » المكاتبات
٩٣ - » المواقف الشريفة
٩٤ - » المواريث الحشرية
٩٥ - الديوان النبوي
٩٦ - » الموالي
٩٧ - ديوان النظر
٩٨ - » النظر في المظالم
٩٩ - » النفقات
١٠٠ - » النيابة
١٠١ - » الوزارة
١٠٢ - » الهلالي

وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين . وكانت تختلف درجاتهم ومرتباتهم بحسب أهمية دواوينهم وأحياناً بحسب نفوذهم.

وكان بكل ديوان كتاب وخزان وبوابون وأعوان، وكان يمد بالصحف والقراطيس ، وكانت الأرزاق تطلق فى الأسبوع الأول من كل شهر ، وكانت وظائف الدواوين وقفاً على الأحرار .

وكان المشتغل بإدارة الدواوين يمثل الثقافة الأدبية ولا يعالج العلوم الدينية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته ، وكان يلبس فى العادة دراعة فى حين كان العالم يلبس الطيلسان .

كما كان عمال الدواوين كثيراً ما يتعرضون للمصادرة . وطور كتاب الدواوين نظما خاصة بمراسيم الكتابة من حيث تزويد المكاتبات بالأدعية والألقاب . وبدأ ذلك منذ القرن ٣ ﻫ على نطاق ضيق ثم أخذ يزداد الإكثار من التكلف ويوضع له القواعد . وصارت الألقاب مما يتهافت عليه كبار رجال الدولة وكان ذلك من سلطة الخليفة وكأن الخلفاء وجدوا فى ذلك تعويضاً لهم من سلطانهم المفقودة .

ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى فى ذلك (٣٨٣ ﻫ /٩٩٣م) :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا   من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم   ما كان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا   هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وقد صار وضع هذه القواعد والمراسيم واختيار الألقاب من اختصاص ديوان الرسائل .

ديوان الرسائل

لعب ديوان الرسائل دوراً مهما فى إدارة الدولة الإسلامية . ويرجع أصل هذا الديوان إلى وظيفة الكاتب الذى كان يقوم بكتابة الرسائل للولاة ،

وفى العصر العباسى زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعت إلى تنظيمها وإسناد مهمتها إلى ديوان خاص سمى ديوان الرسائل أخذت اختصاصاته تتحدد على مر الزمن ، وكانت مهمته الأساسية إنشاء صيغ المكاتبات الرسمية المختلفة وتحريرها فى شكلها الرسمى سواء فى ذلك المراسلات أو المراسيم أو التعيينات أو الوصايا أو الأوامر الإدارية وكذلك تحرير المكاتبات الرسمية بين الدول الأجنبية . وفى أول الأمر كان الإشراف عليه إلى الوزير مباشرة إلا أنه نظراً إلى تضخم أعمال الديوان من جهة ، وزيادة أعباء الوزير من جهة أخرى كان الديوان ينفصل عن إشراف الوزير المباشر أحياناً لينفرد به رئيس خاص(1)؛ وقد ذكر ابن عبدوس الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب أنه حدث أن فصل أحد الوزراء فاقتصر به على ديوان الرسائل(2) ثم انتهى الأمر بأن أصبح من القواعد المقررة أن يستقل بالإشراف على هذا الديوان رئيس خاص يتبع الوزير وكان عالى الرتبة عليما بالكتابة وفنون الإنشاء .

وفى أوائل العصر العباسى كان الديوان يعرف باسم ديوان الرسائل أو ديوان المكاتبات وربما قيل له أيضاً الديوان العزيز ومن ثم كان رئيسه يسمى صاحب أو متولى ديوان الرسائل أو المكاتبات ، ثم أطلق على هذا الديوان بعد ذلك اسم ديوان الإنشاء وكان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس ديوان الإنشاء . أما فى الدولة السامانية فكان هذا الديوان يعرف أحيانا باسم « عميد الملك » وكان رئيسه يسمى لذلك « خواجى عميد »(3) .

---

(1) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج٢ص ٢٢٦ .

(2) Björkmann (W), Beiträge zur Gesegichte den Staatskanzelei im islamischen Agypten, P. 6.

(3) Barthold (W), Turkesten down to the Mongol Invasion, P. 230.

وفى العصر السلجوقى عرف الديوان باسم ديوان الطغرا وبالتالى أطلق على رئيسه اسم «طغرائى» كما عرف أيضا باسم ديوان الإنشاء وفضلا عن ذلك فكان رئيس ديوان الإنشاء يلقب أحياناً فى العصر العباسى بكاتب السر. أما فى العصر الفاطمى فعرف بكاتب السر وكاتم السر وكاتب أو صاحب الدست الشريف بالإضافة إلى صاحب ديوان الإنشاء، وفى المغرب عرف بلقب صاحب القلم الأعلى، وفى عصر المماليك عرف بصاحب دواوين الإنشاء فى الممالك الإسلامية.

وعلى نمط ديوان الرسائل أو الإنشاء فى عاصمة الخلافة الإسلامية قامت فى الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية وغيرها من الولايات الأخرى والبلاد الأجنبية

فمثلا فى مصر كان الولاة يقتصرون فى أول الأمر على اتخاذ كتاب يتولون إنشاء الكتب عنهم إلى الخلافة حتى جاء أحمد بن طولون فكان أول من أنشأ ديوان المكاتبات فى مصر وذلك على مثال ديوان المكاتبات بعاصمة الخلافة جريا على سياسته العامة فى تنظيم دولته بمصر على منوال الإدارة فى بغداد أو سامرا (١).

وكذلك كان الأمراء الأخشيديين فى مصر ديوان يشرف على مكاتباتهم وفى أواخر الدولة الأخشيدية نظم كافور ديوانا فرعياً بسوريا ربما كان الأول من نوعه وأسند رئاسته إلى يعقوب بن كلس.

وكان من أبرز مظاهر ديوان الإنشاء إقبال كثير من موظفيه على تأليف كتب تنظم نواحى نشاطه المختلفة، وكانت هذه الكتب بمثابة دساتير تقرر المصطلح السائد فى ديوان الإنشاء، وترشد موظفيه إلى أقوم السبل التى يجب أن يسيروا عليها حتى يقوموا بأداء مهمتهم على خير وجه.

(1) Dr. Zaki M. Hassan, Les Tulunides, P. 279.

ولم تكن هذه الدساتير مقتصرة على ناحية واحدة من نواحى نشاط الديوان بل كانت فى معظم الاحيان شاملة لمختلف أوجه نشاطه من كتابة وإنشاء وإدارة ومراسيم ومصطلح . وكان بعضها يذهب إلى أقصى حد فى التفصيل حتى أنه يتناول الكلام عن الورق وأنواعه والقلم وأصنافه والخطوط المختلفة والحروف وطريقة كتابتها والشكل والنقط إلى غير ذلك من الدقائق والجزئيات .

ونستطيع أن نتعرف على أوجه نشاط الديوان من مراجعة أبواب أحد هذه الكتب وليكن كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى : فنجد أنه يبدؤه بمقدمة عامة فى الكتابة والكتاب وديوان الإنشاء وقوانينه ثم يقسم كتابه إلى عشر مقالات يخصص المقالة الأولى فيما يجب أن يتزود به الكاتب من خبر علمية وعملية . والمقالة الثانية فى المسالك والممالك . والثالثة فيما تتفاوت به مراتب المكاتبات المختلفة بأنواعها بما فيها الألقاب . والرابعة فى المكاتبات . والخامسة فى الولايات وطبقاتها وما يراعى فى كتابتها وما يتسع به التفاوت فى رتبها . والسادسة فى الوصايا الدينية . والسابعة فى الإقطاعات والمقاطعات . والثامنة فى الأيمان . والتاسعة فى عقود الصلح والفسوخ . والعاشرة فى فنون الكتابة التى لا تتصل بكتابة الدواوين السلطانية كالمقامات .

أما الخاتمة فهى فى ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة كالبريد (وكان من اختصاص ديوان الإنشاء فى عصر المماليك) ومطارات حمام الرسائل ، ومراكب الثلج وهجنه والمناور والمحرقات .

ولم تكن هذه الدساتير بدعة خاصـــة بعصر دون عصر ، بل كانت حلقات فى سلسلة متصلة يمتد أصولها إلى القرون الأولى من العصر العباسى فنجد مثلا أدب الكاتب لابن قتيبة (٢٧٠ هـ) .

وكتاب الكتاب لابن درستويه (٢٤٦ هـ) .

وكتاب الصناعتين : الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى (٣٩٥هـ)

والأحكام السلطانية للماوردى (٤٥٠ هـ) .

وقانون ديوان الرسائل لابن الصيرفى (٥٥٠ هـ) .

وقوانين الدواوين لابن مماتى (٦٠٦ هـ) .

ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث (٦٢٥ هـ) .

والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٦٣٧ هـ) .

وحسن التوصل إلى صناعة الترسل لابن فهد الحلبى (٧٢٥ هـ) .

والتعريف بالمصطلح الشريف للعمرى (٧٤٩ هـ) .

وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى (٨٢١ هـ) .

والقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الإنشا .

ديوان البريد

البريد جمع برد وهى لفظة تطلق على الرسول وهى أيضاً مسافة قدرها ١٢ ميلا ، وغلب استعمال البريد للدلالة على عملية نقل الأخبار .

واختلف فى أصلها اللغوى فقيل عربى مشتق من بردت الحـــديد أى أرسلت مايخرج منه ومن أبردته أى أرسلته ، أو من برد اذا ثبت لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار ، وقيل فارسى معرب ، وأصله بالفارسية «بريده دم»

أى « مقصوص الذنب » ، وسمى بذلك لأن بغل البريد عند الفرس كان يقص ذنبه علامة على أنه من بغال البريد .

ومهمة البريد هى نقل الأخبار إلى الوالى وإخطاره بما يجد فى دولته لاسيما فى أطرافها البعيدة ، وكان بعض الولاة يستخدمونه فى نقل المراد : فيقال إن الوليد بن عبدالملك كان يحمل عليه الفسيفساء من القسطنطينية إلى إلى مكة والمدينة وغيرهما كما كان ينقل عليه أيضاً الأشخاص على سبيل السرعة.

وكان من عمل البريد فى بعض الأحيان التجسس لحساب الولاة ونقل ما يدور بين الناس . وكان البريد فى العصر العباسى يلجأ إلى استخدام الأخبار السرية والى التنكر إذا لزم الأمر . وقد حرص بعض الأمراء الذين استبدوا بالخلفاء أو بالسلطة المركزية أن يقطعوا البريد كما فعل بنو بويه ليخفوا عن الخلافة أخبارهم ولا سيما تحركهم نحو بغداد حتى يأخذوها على غرة [1] .

وكان يسمى القائم بنقل الأخبار بريدى ، ويقال للمشرف على البريد صاحب البريد ووالى البريد وصاحب الأخبار وصاحب الخبر وصاحب الخبر والبريد .

وكان من عمال البريد الساعى والفيوذج والكوهبانى والبدال .

وارتبطت أعمال البريد ببعض المراسم فى عصر المماليك ومن أبرز هذه المراسم حمل اللوح والشرابة (من حرير أصفر) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ و ١٩٧ - ١٩٩ ، ج١٤ ص ٣٦٨ وما بعدها ، تاريخ البيهقى ص ٢٥٥ ، ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة مخطوطة ١٥٨ وجه .

وأشار السبكى فى كتابه « معيد النعم » إلى البريدية فى عصره لعاب استخدامهم للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والأمتعة أو استدعاء مغن حسن الصوت أو نقل الأكاذيب . كما نصحهم بكتمان الأسرار وستر العورات ، ونبههم إلى عدم إجهاد خيلهم ، وإلى أن يسوقوها بقدر طاقتها ، ثم ذكرهم بحمل رسائل الإخوان لما فى ذلك من أجر عظيم .

وكان يرأس البريد فى عصر المماليك رئيس يقال له مقدم البريدية وأورد القلقشندى توقيعاً بتقدمة البريدية بحلب .

القضاء

اعتبر القضاء فى الدولة الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة ، وربما كان الاسم الرسمى للقاضى هو « الحاكم » .

ويثير الاشتقاق اللغوى للفظة بعض الاختلاف بين العلماء فأبو عبيدة يقول إن القضاء هو إحكام الشىء والفراغ منه ويستدل على ذلك بما جاء فى القرآن الكريم : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب » أى أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه .

أما أبو جعفر النحاس فيقرر أن القاضى سمى قاضياً لأنه يقال قضى بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ .

ومن العلماء أيضاً من يقول إن القضاء معناه القطع يقال قضى الشىء إذا قطعه ومنه قوله تعالى : «فاقض ما أنت قاض » وسمى القاضى بذلك لأنه يقطع الخصومة بين الخصمين بالحكم (٢).

---

(١) ج ١٢ ص ٤٣٣ .

(٢) القلقشندى : المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥١ ؛ ضوء الصبح ص ٣٤٦ .

وكانت مهمة القاضي هي الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية وكان يقوم بها في أول الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم . ولما زاد عدد المسلمين ودخل الإسلام أقاليم كثيرة في الجزيرة العربية أسندت هذه الوظيفة أيضاً إلى عدد من الصحابة . وسار الخليفة الأول أبو بكر الصديق على هذا المنوال إذ ولى القضاء عمر بن الخطاب (١) .

وفي خلافة عمر بن الخطاب وضع للقضاء نظام محكم فعين القضاة للمدن المختلفة في الدولة الإسلامية ، وسلمت لهم النظم والقواعد التي كان من الواجب عليهم اتباعها والعمل في ضوئها ، ووضعت التقاليد ، وحددت لهم المرتبات . ووصلنا عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء (٢) .

وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء الملمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوى الله وتحرى العدل وغير ذلك من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتصدر الحكم في الدماء والأموال . وفيما بعد وضع الفقهاء شروطاً يجب توافرها فيمن يختار لهذا المنصب : وهي أن يكون مسلماً ذكراً بالغاً عاقلا حراً قويم الخلق صحيح البصر والسمع ضليعاً في علوم الفقه وملماً بها .

وظل القضاء محتفظاً بخطورته في عصر الأمويين . جاء في كتاب كتبه عبد الحميد الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض من ولاه : «واعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا يمثل محله أحد من الولاة لما يجرى على يديه من مغاليظ الأحكام ومجارى الحدود» .

وفي هذا العصر كان الخليفة يعين قاضياً لكل ولاية ، ولكن نظراً

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين مخطوطة ١٥ وجه .

(٢) صبح الأعشى : ج ١٠ ص ١٩٣ .

لازدياد أعباء القاضي كان يختار خلفاء ونواباً له . ومهما يكن من أمر فقد كان القضاء إحدى الوظائف الأساسية في الولايات الإسلامية وهي الصلاة والشرطة والقضاء والمال والولاية (1) .

ومنذ البداية لم تقف سلطة القاضي عند حد النظر في الأحكام والفصل في الخصومات ولكنها امتدت أيضاً إلى النظر على الأوقاف والوصاية على الأيتام .

وفي العصر العباسي لم يقتصر عمل القاضي على المهام السابقة بل زادت له اختصاصات أخرى : فأضيف إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب والعيار وبيت المال والنظر في أموال المحجور عليهم وفي وصايا المسلمين وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء بالإضافة إلى الإفتاء والولاية على المساجد والخطابة والإمامة والتدريس . بل إن يحيى بن أكثم القاضي تولى في عهد المأمون قيادة الجنود الصائفة ، وكذلك أحمد بن داود قاضي القضاة في عهد الواثق .

وفي الدولة الغزنوية كان القاضي يشرف على جباية الأموال وكان يطالب أحياناً بأن تكون له السالارية والجند ، وكان يتبعه صاحب البريد والمشرف ويقوم بإرسال الأخبار إلى السلطان .

وكان القضاة في العصر العباسي يسند إليهم أحياناً الإشراف على تشييد مؤسسات الدولة كما يتضح من الكتابات الأثرية التي وصلتنا .

وصارت وظيفة القضاء في عصر السلاجقة وخلفائهم الأتابكة إقطاعاً يطمع فيه الطامعون كما كان القضاة يمنحون الإقطاعات في مقابل قيامهم بأعمالهم فمثلا حينما عين زنكي بهاء الدين الشهرزوري قاضي القضاة زاد من تفويضاته وأملاكه الخاصة .

---

(1) Wiet, CIA égypte, II, P. 54.

وقد وجد من حيث مناطق النفوذ أنواع من القضاة : منهم قضاة بمراكز الخلافة مثل دمشق ثم بغداد وسامرا ، وقضاة بعواصم الولايات كانوا يولون إما من قبل الخليفة أو من قبل الوالى نفسه وبخاصة فى حالة استقلاله السياسى ، وقضاة بالأقاليم الفرعية والمدن .

وكان كل من هؤلاء ينسب إلى البلدة التى يتولى قضاءها : فكان يقال القاضى بقيسارية مثلا . وحين ظهرت المذاهب الأربعة وجد قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وذلك للفصل فى منازعات أهل مذاهبهم ، وقد وجد أيضاً قضاة أربعة فى كل من الولايات .

وقد عرف القضاة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى بألقاب وظيفية اختلفت بحسب رتبهم ومدى اختصاصاتهم والدول والأقاليم التى وجدوا فيها : فعرف مثلا قاضى الجماعة فى شمال أفريقية والأندلس[1]، وقاضى الحضرة فى العصر العباسى وعصر المرابطين ، وقاضى الركب وهو القاضى الملحق بركب الحجيج فى عصر الفاطميين والمماليك ، وقاضى العسكر وهو القاضى الذى يفصل بين الجند أثناء تنقلاتهم ، وقاضى المظالم وهو الذى يتولى النظر فى المظالم .

وظهرت فى العصر العباسى أيضاً وظيفة قاضى القضاة وأول من أطلق عليه لقب قاضى القضاة هو أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم تلميذ أبى حنيفة وصاحب كتاب الخراج وأحد أقطاب المذهب الحنفى وتولى القضاء فى عهد المهدى وولديه الهادى والرشيد وأطلق عليه اللقب فى عهد الرشيد .

ومنذ ذلك الوقت صار لقب قاضى القضاة يطلق على كبير القضاة وكان مقره عاصمة الخلافة العباسية وصار منذ القرن الرابع الهجرى يقوم بتعيين القضاة فى سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم .

---

(١) Lévi-Provençal, Inscr. d'Espagne. No. 138 and pl. XXIX.

وكان عهد تولية هذه الوظيفة فى العصر العباسى ينص على تولى شاغلها القضاء ببغداد أو « بمدينة السلام وسائر الأمصار والآفاق والأقطار شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً » ويخول له النظر فى أمور اليتامى وأملاكهم وأموالهم والوقوف الجارية والاستخلاف فيما نأى عنه من البلاد وتسلم ديوان القضاء ومراعاة أمور الحسبة وعيار المكاييل والموازين واتخاذ كاتب وحاجب .

وكان يشرف أيضاً على إقامة وتشييد المؤسسات العامة ويؤخذ إذنه فى حالة الرغبة فى إجراء تعمير أو بناء .

الشرطة

من الوظائف الرئيسية فى الدولة الإسلامية وقد أشار القلقشندى إلى قولين فى اشتقاقها : أحدهما أن شرطة مشتق من الشرط بفتح الشين والراء بمعنى العلامة لأن الشرطة كانوا يتخذون علامات يتميزون بها ، والثانى أنها مشتقة من الشرط بفتح الشين وسكون الراء بمعنى الدون اللئيم السافل لأن الشرطة يحتكون بأراذل الناس وسفلتهم من اللصوص ونحوهم[١] . ويطلق على واحد الشرطة شرطى ، وعلى جماعة الشرطة شرط وشرطية .

وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة وربما سمى أيضاً عامل الشرطة ومتولى الشرطة وولى الشرطة .

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة على الأمن الداخلى ، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة ، وعمل التحريات اللازمة ، وتنفيذ العقوبة التى يحكم بها القضاة ، وإقامة الحدود .

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة فى عهد على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين الذى نظمت الشرطة فى عهده ، وكان صاحب الشرطة يختار من بين علية القوم وذوى العصبية .

---

(١) ديمومبين : نظم ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

ووضحت مهمة الشرطة فى العصر الأموى وزاد تنظيمها وتنسيقها فى العصر العباسى إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة تخضع لرئيس هو صاحب شرطة هذه المدينة ، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائباً ومساعدين يسمون الأعوان . وكان الشرطة يتخذون أعلاماً خاصة ويلبسون زياً خاصاً ويحملون مطارد وترسة تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة ويحملون فى الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة .

وكان صاحب الشرطة يجمع بين الشرطة والأحداث ، وقد أدخل نظام الأحداث فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ) وكان صاحبه يقوم بالأعمال العسكرية التى تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة وقائد الجيش . ويبدو أن الإدارتين ضمتا معاً فى العصر العباسى إذ صار لهما ديوان يعرف بديوان الأحداث والشرطة .

وتتضح مهمة صاحب الشرطة فى العصر العباسى من عهد كتبه الصابى عن الخليفة الطائع إلى عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه فى جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ أمره فيه بأن ينظر فى الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ويختار لها من الولاة « خيراً عليه الإيجابى ، وأن يردع الأشرار والدعار ، وأن يضرب على أيديهم ، وأن يعاقبهم فى الكبائر والصغائر ، وأن يقيم الحدود عليهم »(1) .

ويظهر من هذا العهد أن تعيين صاحب الشرطة كان من اختصاص الوالى أو الأمير ، ومن ثم كان عزل الوالى يتبعه فى معظم الأحيان عزل صاحب الشرطة ، وكان الوالى يختار لهذه الوظيفة من بين أبنائه أو أقاربه ، وكان صاحب الشرطة يخلف الوالى فى السلطة إذا غاب فى حج أو حرب أو غير ذلك . كما كان ينيبه عنه كثيراً فى إمامة الصلاة .

---

(1) أحمد عدوح حمدى : الشرطة ص ٨٥ — ٨٧ .

وكان صاحب الشرطة يولى أحياناً الإمارة ، كما كان الأمير يولى الشرطة فى بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة .

وعرفت وظيفة صاحب الشرطة فى الدول الإسلامية المختلفة التى تفرعت من الخلافة العباسية فعرفت مثلا فى الدولة الغزنوية وعرفت فى دول السلاجقة حيث كان يوكل حكم المدن الرئيسية إلى صاحب الشرطة الذى كانت وظيفته من الوظائف الإدارية الهامة فى الدولة وكان يتقاضى راتباً كبيراً وكان ولى الأمر يتخذه أداة فى بعض الأحيان لإيذاء منافسيه أو أعدائه أو مصادرة أموالهم .

ومنذ عصر الولاة فى مصر كانت وظيفة صاحب الشرطة من أكبر الوظائف وأهمها ، وكان صاحب الشرطة فى عصر الولاة الأمويين والعباسيين يسهم مع الوالى وعامل الخراج فى ضمان تحصيل الجزية والخراج على وزن بيت المال الذى كانت تقرره صنج السكة الزجاجية ، وكان صاحب الشرطة يتولى نيابة عن ديوان الخراج « إصدار دنانير حسب الصنج الزجاجية أما عدداً أو وزناً » ، وظهرت أسماء أصحاب الشرطة على صنج السكة الزجاجية المصرية بالإضافة إلى أسماء الولاة وعمال الخراج ، وكان اسم صاحب الشرطة يرد على الصنج عادة مسبوقا بعبارة « على يدى » ، وتعنى أن صناعة الصنجة تمت تحت إشراف صاحب الشرطة .

وكان صاحب الشرطة فى مصر يقوم أيضا بالإشراف على الأحباس ، وتنظيم مرتبات الجند ، وأدت أعماله فى بعض الأحيان إلى إثارة قلاقل بين الجند وربما ذهب ضحيتها فى بعض الأحيان .

وكان صاحب الشرطة يسهم فى عصر الولاة فى أعمال الحسبة التى كانت موزعة فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العباسيين بين القاضى وصاحب الخراج وصاحب الشرطة ، وظلت كذلك إلى أن اجتمعت أعمال الحسبة كلها لموظف واحد هو المحتسب فى عهد المهدى .

وكانت وظيفة صاحب الشرطة فى عصر الولاة فى مصر تسمى بخلافة الفسطاط : وذلك لأن صاحب الشرطة كان ينوب عن الوالى ، غير أن هذا اللقب اختفى منذ عصر الطولونيين ومن المعتقد أن وظيفة صاحب الشرطة كان يشغلها فى عصر الطولونيين بعض الأتراك .

وفى عصر الولاة كان صاحب الشرطة يقيم فى الفسطاط مع الوالى ، وعندما أسست العسكر وجدت شرطتان هى شرطة الفسطاط وكانت تسمى الشرطة السفلى ، وشرطة العسكر وكانت تسمى الشرطة العليا ، وكانت الشرطة العليا تقيم فى دار تقع تقريباً فى موضع جامع ابن طولون الحالى ، وكانت دار الشرطة تعرف فى مصر باسم الشرطة . وكانت تعرف فى بغداد وسامرا ودمشق حتى نهاية القرن ٤ ﻫ باسم مجلس الشرطة أو مجلس صاحب الشرطة[1].

وظل نظام الشرطتين العليا والسفلى معروفاً فى عهد الفاطميين غير أن صاحب الشرطة العليا كان يقيم بالقاهرة ، وكان صاحب الشرطة يسمى أيضاً فى عصر الفاطميين باسم حاكم القاهرة .

أما فى عصر المماليك فقد انتفت وظيفة صاحب الشرطة وأسندت مهامها إلى موظف سمى باسم الوالى أو والى القاهرة أو والى المدينة أو صاحب العسس ، غير أن بعض المؤلفين أطلق عليه اسم والى الشرطة أو والى الحرب .

وعظم أمر صاحب الشرطة فى دولة بنى أمية بالأندلس وانقسمت الشرطة إلى شرطتين : شرطة كبرى وشرطة صغرى .

وكانت مهمة الشرطة الكبرى هى النظر فى أمر الخاصة أقارب السلطان

(١) Wiet, CIA, égypte, II, p. 51, n. 3.

وكان من يليها يرشح للوزارة وللحجابة ، وربما سمى صاحب الشرطة الكبرى باسم صاحب الشرطة العليا .

أما صاحب الشرطة الصغرى فكان مخصصا للنظر فى أمر العامة .

وصار صاحب الشرطة يسمى فى الأندلس فى أواخر العهد الإسلامى بصاحب المدينة كما عرف عند العامة بصاحب الليل ، وعرف فى العصر نفسه تقريباً فى أفريقيا باسم الحاكم .

وربما جمع بين وظيفة الشرطة ووظيفة القاضى لرجل واحد فى الأندلس(١).

الحسبة

من الوظائف المتصل عملها بعمل القضاء والشرطة ولو أنها كانت مستقلة عنهما ، ويقال لصاحبها المحتسب وصاحب الحسبة ومتولى الحسبة وناظر الحسبة ووالى الحسبة .

وأثيرت بعض الخلافات بصدد الاشتقاق اللغوى للفظة المحتسب . . . فقال الماوردى إنه مشتق من قولهم « حسبك » بمعنى اكفف ، لأن وظيفة المحتسب الكف عن الظلم .

وقال النحاس إنه مشتق من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفى الناس مئونة من يبخسهم حقوقهم وأضاف أن حقيقته فى اللغة المجتهد فى كفاية المسلمين . إذ أن حقيقة « افتعل » عند الخليل وسيبويه بمعنى اجتهد ، وجاء فى القاموس إنه مشتق من قولهم احتسب عليه بمعنى أنكر .

ومن المعتقد أن وظيفة المحتسب نشأت تحقيقا لقوله تعالى :

(١) انظر مثلا : Girault de Praugey, Essai, pl, V.

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وبالرغم من أن مصطلح الحسبة لم يعرف إلا فى العصر العباسى فإن عمر ابن الخطاب يعتبر أول من وضع نظام الحسبة وكان يستخدم الدرة أو السوط فى معاقبة المخالفين .

وقد نشأت وظيفة الحسبة فى عهد المهدى كنتيجة لاهتمام العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم[1] . ومن المرجح أن هذه الوظيفة لم تتحدد معالمها إلا فى نهاية القرن الثانى الهجرى : وذلك بعد ظهور المذاهب الفقهية ، وازدهار التجارة ، وتقدم الصناعة ، وظهور الحاجة إلى مراقبة التجار والصناع ومختلف المتعاملين فى الأسواق وغير ذلك .

وصارت وظيفة المحتسب فى القرن الرابع الهجرى من الوظائف الثابتة ، الوطيدة الأركان فى جميع الدول الإسلامية .

وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء فى الحق وذوى الثقة والأمانة وربما كان من القضاة أو أعيان المعدلين . وربما أضيفت أعمال الحسبة إلى القاضى أو إلى الوالى أو صاحب الشرطة وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف .

وكان المحتسب يولى عنه نواباً فى سائر المدن والأقاليم التابعة له .

وكانت اختصاصات المحتسب تشتمل على نواح عدة : منها ما كان يتعلق بمراعاة تأدية العبادات مثل الأمر بتأدية صلاة الجمعة والمحافظة على الصلاة الجماعة وأداء الزكاة وردع أهل البدع .

---

(١) دكتور الباز العرينى : الحسبة والمحتسب مجلة الجمعية التاريخية م٣ عدد ٢ ، سنة ١٩٥٠ ص ١٥٩ و ١٦٠ .

ومنها ما يتعلق بمراعاة آداب السلوك والتمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة : فكان يحرص على أن يراعى العرف بين الرجال والنساء، ويعمل على منع المقامرة والعلاقات الجنسية المنافية للأدب ، وعلى مراعاة ارتداء الزى المناسب ، وعلى إلزام ذوى الهيئات بالصيانة التى تناسب مناصبهم ومراتبهم ، ومنع التسول ، ومنع المعلمين من المغالاة فى ضرب التلاميذ . ومنع معلمى السباحة من التغرير بالصغار ، وأمر السقائين بلبس السراويلات القصيرة الساترة لعوراتهم ، ومنع المضايقات فى الطرقات ، ومراعاة المحافظة على الآداب فى الحمامات والمحافظة على حقوق العبيد ، ومنع التعدى على أهل الذمة . والحث على الرفق بالحيوان وكفالة الصغار ، ورد الحقوق لأربابها ، واستيفاء الديون .

وبالإضافة إلى ذلك كان من عمل المحتسب أن يعمل على المحافظة على صحة المواطنين وسلامتهم ، ومنع ما يعكر الأمن : فكان عليه أن يعمل على منع أحمال الحطب والتبن وكل ذى رائحة كريهة من الدخول إلى الأسواق حتى لا يضر بصحة الناس وثيابهم ، ومنع الحمالين وأصحاب السفن من الإكثار فى الحمل حرصاً على سلامتهم ، وتكليف أصحاب المبانى الآيلة للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها ، وإزالة بروز مصاطب الحوانيت فى الأسواق وإماطة الأذى عن الطريق ، والاحتراز فى سقاية المياه ، وأمر السقائين بتغطية الروايا والقرب ، والإيعاز بتنظيف الجوامع والمساجد وإنارتها ومراعاة نظافة الحمامات ، وملاحظة المبانى العامة والحث على تعميرها ، وتأديب المفترين ومروجى الإشاعات المغرضة الكاذبة ، ومنع القصاصين من تعمد الكذب فى قصصهم .

ومن جهة أخرى كان على المحتسب أن يشرف على أن يقوم التجار والصناع بأداء الواجب عليهم ، وأن ينال كل أجره دون مماطلة أو تأخير

وأن يمنع الجهال من مزاولة صناعة لا يجيدونها وأن يمنع متعاطى الطب عن مزاولته إلا عن علم ، وأن يباشر محال الجزارة والمطاعم ، ويفتش قدور الأطعمة وختم اللحوم ، وأن يراعى تنفيذ الشروط الصحية المفروضة على أصحاب المصانع والصناعات المقلقة أو الضارة بالصحة : مثل المدابغ وسبائك الزجاج والحديد ومعامل الصابون وأماين الجير والآجر .

وكان المحتسب أيضاً يشرف على تثمير أموال الأحباس وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها .

وإلى جانب ذلك كله كان من عمل المحتسب النظر فى الأسواق ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة عيار الماء ، ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار ، والإشراف على دور الضرب والعيار ، ومراعاة إثبات اسم الخليفة على العملة الذهب والفضة والثياب والفرش والأعلام .

والإشراف على سوق الرقيق ، ومراقبة نوعية مواد الطعام والبضائع المصنوعة ، ومراقبة الصاغة حتى لا يبيعوا الأشياء بجنسها ليحل فيها التفاضل وحتى لا يبيعوا الحلى المغشوشة إلا بعلم المشترى ، ولا يسرقوا من الحلى أثناء سبكها أو لحامها وحتى يلاحظ ضرب العيار .

وكان على المحتسب أن يراقب طوائف أصحاب الحرف على اختلافهم ونظراً إلى أنه كان من رجال الدين وليس لديه إلمام بأسرار الصناعات والحرف المختلفة كان يختار لكل صنعة عريفاً من بين أفرادها يشرف على أحوال طائفته ، ويطلعه على أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتى يتسنى له مراقبتهم .

هذا وقد اشتملت كتب الحسبة(١) : على إرشادات للمحتسب حتى يكتشف الوسائل المختلفة التى يعمد إليها الصناع للغش والتدليس

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، السقطى : آداب الحسبة ، محمد

وكان عليه أن يعمل لديه معدلا لكل عمل ، وعياراً يقيس عليه الأعمال والمعايير ليعرف الصحيح منها والمغلوط .

النظام الحربي

كان جميع المسلمين القادرين فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين أفراداً فى الجيش فكان إذا دعى للجهاد خرج كل قادر على حمل السلاح وربما أصر بعض الصبيان على الخروج من باب الحمية والحرب فى الجهاد فى سبيل الله ، وقد يصحب الجيش بعض المتحمسات من النساء المؤمنات لخدمة الجند أو تمريضهم وربما لحمل السلاح إذا لزم الأمر وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدون من بعده يولون لكل حملة أميراً وربما جعل للأمير نائب يحل محله عند الضرورة .

ومن هنا كان يفرض لجميع المسلمين عطاءات،وقد قدر عمر بن الخطاب عطاءات المسلمين على أساس القرابة من النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم الفضائل الذاتية(١) .

وكان عمر أول من سجل أسماء الجند وحدد أعطياتهم أو مرتباتهم فى ديوان خاص بهم ، وأطلق على هذا الديوان فيما بعد اسم ديوان الجند ، ثم سمى ديوان الجند والعساكرية ليشمل الأتباع من الأتراك فى العصر العباسى .

وظل العنصر الغالب فى الجند فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى من العرب .

= ابن أحمد بن بسام : نهاية الرغبة فى طلب الحسبة ، ابن الاخوة : معالم القربة فى أعلام الحسبة ، ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام .

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ — ١٤

وبدأ فى العصر الأموى يتكون جيش أشبه بالجيش النظامى كانت نواته حرس الخليفة . وكان الجيش المقيم فى دمشق يتألف من أهل الشام من العرب الذين استقروا فى الشام . ومن المعتقد أن الأمويين كانوا يعتمدون فى إمداد جيشهم بالعناصر على بدو صحراء الشام ، وربما كان من أهم الأهداف لبناء قصور لهم فى صحراء الشام وإقامتهم فيها فترة من الوقت كل عام هو تجنيد عناصر جديدة من البدو(١) . وكانت البصرة والكوفة مركزين للتجنيد فى جيش الولايات الشرقية .

واستمر الجند يحصلون على أعطيات فى العصر الأموى ، ومما يذكر أن يزيد الثالث (١٢٦ هـ / ٧٤٤ م) أنقص الأعطيات فسمى يزيد الناقص .

وكان الجند فى العصر العباسى يأخذون أجورهم على هيئة مُرتبات ، وكان راتب الجندى من المشاة فى عهد السفاح نحو ٩٦٠ درهما فى السنة علاوة على الطعام والمخصصات وللفارس ضعف ذلك . وفى زمن المأمون كان راتب الجندى من المشاة ٢٤٠ درهما والفارس ضعف ذلك .

وظل الجند يأخذون أجورهم على هيئة مرتبات من خزينة الدولة . وفى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) وزع الأمصار بين العمال والقواد على أن يدفعوا أرزاق الجيش من موارد بيوت المال المحلية .

وفى العهد البويهى (٣٣٣ — ٤٤٠ هـ) صارت الأرض تعطى أرزاقاً للجنود بدلا من المال النقدى. وكان ذلك تمهيداً لنظام الإقطاع الذى استقر فى عصر السلاجقة : إذ فوض نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ) فى الدولة السلجوقية للجند الإقطاعات : فصار الجند يقطعون الأراضى ويأخذون مغلها كأجر على أن يؤدوا جزءاً من الإيراد إلى الدولة ، ويزعم البعض أن هذا النظام كان عاملا مهماً فى عمارة الأرض نظراً لاعتناء مقتطعيها بأمرها . وقد زاد نور الدين مسعود على ذلك بأن صار يورث الإقطاع مما أدى إلى زيادة حماس الجند فى الحرب .

---

(١) Hassan El Basha, The Umayyad Desert Palaces, The Islamic Review, England, Vol. XXXIX, No. 7.

وكانت وحدة الجيش الأموى تتكون تكويناً تقليدياً من خمسة أجزاء هى القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة ، وكان الجيش يحارب على هيئة صفوف متراصة : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

واستحدث مروان بن محمد تنظيما جديداً هو الكردوس وهو عبارة عن تقسيم الجيش إلى وحدات أو كتل صغيرة متراصة من الجند .

وكان الجند ينقسمون إلى مشاة وفرسان وأباله أى المحاربين على ظهور الإبل ، وكانت الإبل تستخدم أيضاً فى حمل الأدوات الحربية المختلفة .

وكان للأمويين أسطول بحرى قوى ألقى الرعب فى قلوب أعدائهم من البيزنطيين(١) .

وفى العصر العباسى بدأ الجيش على أساس الجنود التى جندها أبو مسلم الخراسانى وقام بها للقضاء على الأمويين وكانت من الخراسانية ومن العرب المؤيدين لبنى هاشم ، وكانوا فى أول الأمر عبارة عن جماعات لها رعاؤها مقسمة حسب القبائل والمقاطعات . ثم أخذ الجيش يتحدد فانقسم إلى قسمين هما المرتزقة والمتطوعة . والمرتزقة هم أصحاب الأعطيات الدائمة أو المرتبات الثابتة أما المتطوعة فكانت أجورهم تمنح حسب خدماتهم العسكرية فقط ، وذلك بالإضافة إلى حرس الخليفة وكانوا أكثر تميزاً من سواهم من حيث المرتب والمظهر والسلاح .

وكان الجيش العباسى يتألف فى أول الأمر بصفة أساسية من الخراسانية ،

(١) دكتور فهمى شتا : ظهور القوة البحرية الاسلامية . الدارة — العدد الاول ص ١٠٢ — ١١٥

وكان منهم حرس الخليفة ، ومن العرب ومن يلتحق بهم من مواليهم . وكان العرب من المضرية وهم عرب الشمال ومن اليمنية وهم عرب الجنوب . ولم يلبث أن أخذ نفوذ العرب فى الاضمحلال ثم دخل الأتراك الجيش فى عهد المعتصم وصارت لهم السيطرة والغلبة بعد ذلك .

ومنذ بدء تنظيم الجيش الإسلامى تنظيما محدداً قسم الجنود إلى عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف ، وأطلق على رؤساء الوحدات المختلفة ألقاب خاصة : فكان قائد العشرة يسمى عريفا ، وقائد الخمسين يسمى خليفة أو نقيبا ، ورئيس المائة يسمّى قائداً .

أما رئيس الجيش أو قائده فكان يسمى أميراً ، وقد عُرف لقب «أمير» بهذه الدلالة عند العرب قبل الإسلام ، وظل بهذا المعنى فى الإسلام منذ عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) فكان إذا جهز جيشاً جعل له أميراً أى قائداً ورئيسا ، وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وغيرهم[٢].

وعرفت ألقاب أخرى كثيرة فى الجيش العباسى فى العصور المختلفة .

ومن هذه الألقاب «قائد الثغر» الذى عرف منذ إنشاء الثغور ، ولقب «المقدم» الذى ظهر بمعنى القائد فى الدولة الغزنوية وفى الدولة السلجوقية وما خلفها من دول الأتابكة . كما عرف أيضا لقب «الاسفهسلار» وهو لفظ مكون من «اسفه» الفارسية ومعناها المقدم أو الرائد ، و«سِلار»

---

(١) Hitti, History of the Arabs, p. 328

التركية ومعناها الجيش فيكون معناه قائد الجيش . وقد نقل اللقب عن الفرس وشاع استعماله فى عصر السلاجقة والأتابكة[1].

ومن المرجح أنه فى العصر السلجوقى صار يسمى أفراد الجيش العام باسم العسكر فى حين كان يسمى أفراد الجيش المحلى باسم الجند . ويقال إن كلمة عسكر مأخوذة من كلمة «لشكر» الفارسية ومعناها جيش ، وربما كانت تحريفاً عربياً للكلمة اللاتينية ومعناها جيش .

(١) دكتور محمد موسى هنداوى : المعجم فى اللغة الفارسية ، البندارى : زبدة ص ٥٣ وما بعدها ، الراوندى : راحة الصدور ص ٢٢٤ .

الباب الثاني

العلم والفكر

عنى الإسلام بالعلم ودعا إليه ، وحث المسلمين على طلبه ولو بالصين . ونزلت أولى آيات القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم متضمنة للعلم: « إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . ووضح هذا المعنى فى كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة .

وجعل الله سبحانه العلم سبباً لخلافة آدم فى الأرض :

وعنى النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم حتى أنه جعل ثمن عتق الأسير أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

ودعا القرآن الكريم إلى تدبر مظاهر الكون وأسراره ، كما حث على الارتحال والسفر لطلب العلم ثم تعليمه : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » .

واتبع المسلمون هدى القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم فأقبلوا على العلم يغترفون من مناهله وينشرونه بين الناس . وبدأت عنايتهم فى أول الأمر بالقرآن الكريم فجمعوه فى عهد أبى بكر ، ثم نقلوا منه نسخاً وزعوها فى الأمصار فى عهد عثمان بن عفان .

ولم يكن لبنى أمية دور كبير فى العناية بالثقافة والعلوم ولو أنه ظهرت علامات أو مقدمات تنبىء بنهضة ثقافية قادمة ، وقد حدث الازدهار الثقافى فعلا فى العصر العباسى .

وبرزت العناية فى هذا العصر باللغة العربية وفروعها المختلفة إذ جمع تراثها الثمين من شعر ونثر وخطب وأمثال وحكم وغير ذلك . ومن فروع اللغة العربية التى نالت عناية خاصة الشعر فوضع الخليل بن أحمد فى أواخر القرن الثانى الهجرى (٨ م) علم العروض ، وظهر فحول الشعراء أمثال بشار بن برد وأبى نواس والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء[١] .

وامتدت العناية إلى النثر فظهرت كتب ابن المقفع وابن عبد ربه ومقامات الهمذانى والحريرى[٢] .

وازدهرت دراسة النحو وقننت قواعده وظهرت منها مدرستان ذواتا اتجاهات مختلفة : هما مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة كما وضعت القواميس اللغوية وألفت الكتب عن الكتابة والإنشاء وفنونها . والحق أن مظاهر العناية باللغة فى العصر العباسى تفوق الحصر .

واتجهت العناية بصفة خاصة إلى السنة النبوية الشريفة فبذل العلماء الجهد الكبير فى تدوينها ودراستها وبدأ الاهتمام بالحديث فى المدينة المنورة بصفة خاصة حيث وضع مالك بن أنس الموطأ . وبرز فى علوم الحديث رجال أفذاذ مثل البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه[٣] ، وكتب ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل كما ظهر أصحاب كتب الطبقات .

وعلى أساس القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وضعوا أسس الفقه وأحكام الدين . وفى العصر العباسى ظهر أصحاب المذاهب الأربعة :

---

(١) انظر هذه المواد فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر هذه المواد فى المرجع نفسه .

(٣) يسمون الستة فى علم الحديث .

أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وظهر فى ختامه المجد ابن تيمية . ومن كتب الفقه جاءت الشريعة والقانون ، ومن كتب الطبقات التى ألفت عن رواة الحديث تطور علم التاريخ .

وحظيت السيرة النبوية الشريفة بعناية المؤرخين المسلمين ، وربما بهذه السيرة بدأ التاريخ الإسـلامى . وليس من شك فى أن المجتمع الإسلامى كان يتمتع بعقلية تاريخية متفوقة . وبدأ التاريخ عند المسلمين بتسجيل الأحداث تسجيلا زمنياً . واشتهر فى مجال التاريخ كثير من المسلمين مثل محمد بن إسحق وابن هشام وابن سعد والطبرى وابن قتيبة وابن النديم وابن الأثير وابن خلدون .

ولم تقف عناية المسلمين فى الدول المختلفة عند حد العلوم الدينية واللغوية بل امتدت إلى سائر أفرع العلم من فلك وطب وهندسة ورياضيات وعلوم طبيعية وغير ذلك .

وكان أول أشكال التأليف فى الإسلام يتم بطريقة شفهية ، أى بطريقة الإملاء : إذ كان المدرس يملى علمه أثناء الدرس وبذلك يؤلف الكتاب عن طريق الإملاء الشفهى فإذا كتب طالب ما يمليه عليه مدرسه صار لديه أصول الكتاب مدونة ثم صار المدرس يملى من كتابه عن طريق القراءة .

ويزعم بعض المستشرقين أنه من المحتمل أن فكرة الكتاب عرفها المسلمون من إيران ، غير أن الحقيقة أن فكرة الكتاب نبعت عند المسلمين من تراثهم هم أنفسهم وكان أول مظهر للكتاب عند المسلمين هو جمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر ثم نسخه فى عهد عثمان بن عفان . وقد ورد ذكر الكتاب فى القرآن الكريم فى عدة آيات كريمة : « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » .

وكان للأجناس المختلفة فى الدولة الإسلامية دورها فى الحركة الثقافية . وقد ظهر فضل العرب بشكل واضح فى الشعر وظلت الثقافة فى العالم الإسلامى ذات طابع عربى وذات صلة وثيقة بالحياة والتقاليد العربية .

وكان الفرس من العناصر البارزة فى الحركة الثقافية . وقد ساعدتهم ظروف تأسيس الدولة العباسية وتنظيمها واختيار موقع العاصمة على أن يلعبوا دوراً كبيراً فى هذا المجال كما كانت التقاليد والحضارة الفارسية لاتزال غضة لم يعف عليها الزمن .

وكان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة دورهم ولاسيما فى حركة الترجمة التى كان لها أثرها فى تطوير الثقافة الإسلامية[1] .

---

(١) Hitti, History of the Arabs.

الفصل الأول

حركة الترجمة

لم يقف جهد المسلمين عند حد النظر والاجتهاد الشخصي بل عدوا إلى التعرف على ما أحرزته البشرية من تقدم في مجالات الثقافة المختلفة وذلك ليلموا بما عرفه من كان قبلهم من الشعوب الأخرى حتى يتسنى لهم أن يضيفوا الجديد إلى ماسبق التوصل إليه : وبذلك تزداد المعرفة الإنسانية وتتطور .

وكان من أهم وسائلهم إلى ذلك ترجمة الكتب التي تركها من سبقهم من الشعوب إلى اللغة العربية . والحق أن الترجمة إلى العربية بدأت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم : إذ كان يكلف بعض صحابته بتعلم اللغات الأخرى حتى يترجموا الكتب التي ترد من أقطار غير عربية .

واستمرت حركة الترجمة في العصر الأموي ولكن دون عناية كبيرة أو خطة منظمة .

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت ازدهاراً كبيراً ولاسيما في عهد المأمون واستمرت في تقدم واضطراد حتى أواسط القرن الثالث الهجري (٩ م)[١] وكان من مظاهر العناية بالترجمة تشجيع المترجمين وإجزال العطاء لهم ، والبحث عن المخطوطات القديمة وبذل الكثير من المال في سبيل الحصول عليها ، وإرسال الوفود والسفارات لجلبها من البلاد التي يعتقد وجودها فيها مثل بيزنطة بل كان أحياناً مايشترط بعض الولاة في معاهداتهم مع بلاد أجنبية أن يقدموا لهم كتباً معينة من المخطوطات المحفوظة لديهم .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٩ — ٣٤٠

وهكذا أخذ العالم الإسلامى يترجم إلى العربية كتباً فارسية وسريانية وعبرية ويونانية . وكانت السيادة للثقافة اليونانية فى مجال الترجمة فى الفلسفة والطب والرياضيات فى حين كان للثقافة الفارسية والشرقية بعامة دور واضح فى مجال الآداب .

وكان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة دور كبير فى حركة الترجمة كما سبق أن قدمنا .

ومن أوائل المترجمين أبو يحيى بن البطريق (ت ح ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) وكان يترجم عن اليونانية ، ويقال أنه ترجم للمنصور بعض كتب جالينوس وأبقراط التى ترجع إلى حوالى سنة ٤٣٦ ق . م .

ومنهم أيضاً يوحنا بن ماسويه وهو سوريانى واشتغل بالترجمة فى عهد هارون الرشيد وقد أسند إليه الخليفة حفظ الكتب القديمة التى عثر عليها بأنقره وعمورية وكان أكثرها فى الطب ، وعاش ابن ماسويه حتى عهد المتوكل وكان معلما لحنين بن اسحق .

أما حنين بن اسحق [١] ، فكان بحق شيخ المترجمين (١٩٣ — ٢٦٠ هـ / ٨٠٩ — ٨٧٣ م) وهو من نساطرة العرب ، ويقال أنه كان أعلم أهل عصره فى الطب .

واهتم بدراسة اللغة اليونانية وعمل مع جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون ، ثم عهد إليه ببيت الحكمة وأمره المأمون أن يترجم كل ما يمكنه من الكتب اليونانية ، وكان يعمل معه ابنه اسحق وابن أخته حبيش بن الحسن . ومن الترجمات التى تنسب إليهم شرح أرسطو (هرمنوتكا) وكتب

---

(١) انظر Encyclopaedia of Isiam.

لجالينوس وأبقراط وديسقوريدس ومجموعها حوالى خمسين كتابا ، وكتاب السياسة لأفلاطون والمقولات والخلقيات والطبيعيات لأرسطو .

ويقال إن المأمون كان يعطى ابن اسحق زنة مايترجمه من الكتب ذهباً ، وأن بنى شاكر وكانوا من المهتمين بالترجمة كانوا يدفعون له ولزملائه نحو خمسمائة دينار فى الشهر ثمن مايقومون بترجمته .

وكان من أوائل المترجمين فى مجال الرياضيات والفلك الحجاج بن يوسف بن مطر وكان من مدرسة حران وذاع صيته فيما بين سنتى ١٧٠ و ٢١٨ ﻫ (٧٨٦ — ٨٣٣ م) وتنسب إليه الترجمة الأولى لأصول الهندسة لإقليدس واحدى الترجمات الأولى لكتاب المجسطى لبطليموس .

وممن اضطلع بالترجمة فى هذا المجال أيضاً ثابت بن قرة وابناؤه ولقوا رعاية خاصة من الخليفة المعتضد . وكان ثابت من صابئة حران ومن ثم عنى هو وابناؤه بالعلوم الرياضية والفلكية ، وإليهم ينسب نقل كثير من كتب اليونان فى الرياضيات والفلك مثل مؤلفات أرشميدس (ت سنة ٢١٢ ق . م) وابلونيوس (ولد حوالى سنة ٢٦٢ ق م) وتنقيح ترجمة اقليدس .

وبعد ثابت بن قرة برز فى علم الفلك أبوعبد الله محمد بن جابر ابن سنان البتانى (ت ٣١٧ ﻫ - ٩٢٩ م) .

وهكذا صار العالم الإسلامى على معرفة بآراء أفلاطون وأرسطو وعلم جالينوس وأبقراط وديسقوريدس وبطليموس وأرشميدس وأبلونيوس بالإضافة إلى حكمة الهنود وآداب الفرس .

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من مؤلفات هؤلاء العلماء فقدت فيما بعد ولم تحفظ إلا بفضل ترجماتها العربية : كما هى الحال بسبعة من كتب

جاليئوس فى علم التشريح وكتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه عبد الله بن المقفع عن اللغة البهلوية وكان أصلا منقولا عن اللغة السنسكريتية .

وبفضل حركة الترجمة دخل فى اللغة العربية كثير من الكلمات المعربة يتضح من بعضها تناول العرب لعلوم جديدة ومنها : جغرافيا وفلسفة وأسطرلاب وأثير واكسير وابريز ومغناطيس وارغن .

ثم جاء بعد عصر الترجمة والاقتباس عصر ابتكار : إذ أخذ علماء العرب يمحصون آراء الأقدمين ويشرحونها ويصححونها ويضيفون إليها . وساعدت اللغة العربية بما تمتاز به من قوة ودقة بناء وسهولة تناول على التعبير عن الفكر العلمى .

وهكذا لم تقتصر جهود العرب على مجرد الترجمة أو النقل بل إنهم ابتكروا أيضاً الكثير وتفردوا بمذاهب فى البحث والإنتاج الخصب فى ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة ؛ وظهرت مآثرهم الضخمة فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية والتاريخ .

وفى الوقت الذى أحرزت فيه الدولة العباسية هذا التقدم العلمى الرائع كانت أوروبا تتخبط فى ظلام الجهل ، وكان اقصى ما يطمح إليه رجال الدولة فيها أن يتعلموا مجرد كتابة أسمائهم كما كانت الحال فى عهد شارلمان الذى يعتبر عهده من أزهى العصور فى أوربا فى العصور الوسطى (١) .

وحين تعرف الأوربيون على هذا الإنتاج العلمى العربى أقبلوا على اقتباسه وكان له الفضل الأول فيما بعد فى أنارة الطريق أمامهم وانتشالهم من وهدة الجهل .

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى الجزء الاول ص ١٧٦ وما بعدها .

ولقد حدث فى أوربا فى عصور لاحقه ولاسيما فى القرن السادس الهجرى (١٢م) حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية نقلت بفضلها المؤلفات العربية فى شتى فروع الفلسفة والعلم والأدب إلى الأوروبيين ، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر فى بعث روح النهضة فى أوروبا .

الفصل الثانى

العلوم الأساسية

نبغ فى العالم الإسلامى كثير من العلماء الذين أثروا المعرفة البشرية فى شتى المجالات ويكفينا أن نذكر فيما يلى بعض نماذج من هؤلاء العلماء الذين ذاع صيتهم وانتشر علمهم إلى خارج العالم الإسلامى وبخاصة أوروبا .

الطب :

أولا : من أعظم أطباء العرب أبو بكر محمد بن زكريا الرازى(١) (٢٥١ هـ — ٣١٠ هـ (٨٦٥ - ٩٢٥ م) . وينسب إلى الرى مسقط رأسه .

١ — ومن أهم كتبه فى الكيمياء كتاب الأسرار ، وقد نقل إلى اللاتينية وصار مصدراً رئيسياً فى الكيمياء إلى أن ظهرت مؤلفات جابر بن حيان فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) .

٢ — الكتاب المنصورى من عشرة أجزاء . نقل إلى اللاتينية وعرف باسم Liber Almonsoris ونشر لأول مرة فى ميلان ما بين سنة ١٤٨٠ و ١٤٨٩ م ، ونقل منه حديثاً فصول إلى الفرنسية والألمانية .

٣ — رسالة الجدرى والحصبة : وتعد أول ما كتب فى هذا المجال . وقد نقلت أولا إلى اللاتينية فى البندقية ثم نقلت إلى لغات أخرى .

٤ — كتاب الحاوى وهو أهم مؤلفاته وهو موسوعة طبية ونقل إلى اللاتينية فى سنة ١٢٧٩ م فى صقلية . وطبعت ترجمته مراراً بين سنتى ١٤٨٦ و١٥٤٣ م تحت اسم Continens وصدرت الطبعة الخامسة منه فى البندقية . وكان له أثر كبير على الغرب اللاتينى .

ثانياً : على بن العباس (ت٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) ومن أهم تآليفه الكتاب الملكى الذى وضعه لعضد الدولة (حكم من ٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) وسمى

---

(١) Encyclopaedia of Islam.

أيضاً كامل الصناعة الطبية وعمت دراسته إلى أن حل محله كتاب القانون لابن سينا .

ثالثاً : ابن سينا[١] (٣٧٠ — ٤٣٠ / ٩٨٠ — ١٠٣٧ م) أبو على الحسين بن عبد الله : ولد فى بخارى وكان أشهر اسم بعد الرازى فى تاريخ الطب العربى ،وكان يلقب بالشيخ الرئيس ، وجمع بين الطب والفلسفة والفقه والشعر ومن شعره قصيدة فى النفس وهبوطها فى الجسد جاء فيها :

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تحجب وتمنع

ومن أشهر كتبه التى نقلت إلى اللغات الأوربية :

١ — القانون فى الطب . نقل إلى اللاتينية فى القرن السادس الهجرى (١٢ م)

وصار الكتاب المدرسى لتعليم الطب فى أوربا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وظهر منه ١٥ طبعة لاتينية وواحدة عبرية . ونقل بعضه حديثاً إلى الانكليزية ، ويشتمل القسم الخاص بالأدوية به على حوالى ٦٧٠ دواء . وقد ظل هذا الكتاب المرجع الاساسى فى الطب مدة أطول من أى كتاب آخر .

رابعاً : على بن عيسى : ولد فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) وهو أشهر أطباء العيون العرب وله ٣٢ كتاباً فى علم الرمد أفضلها تذكرة الكحالين وقد وصف فيها ١٣٠ مرضاً من أمراض العيون ، ونقلت إلى العبرية مرة وإلى اللاتينية مرتين .

خامساً : ابن جزلة (ت ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م) وقد صنف موجزاً طبياً عنوانه « تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان » ورتب فيه الأمراض على غرار ترتيب النجوم الفلكية ونقل إلى اللاتينية فى ستراسبورغ سنة ١٥٣٢ م .

---

(١) Hrtti, op, cit.

الفلسفة :

صار العرب يطلقون كلمة فلاسفة أو حكماء على المفكرين الذين لا تتقيد آراؤهم بقيود الدين ، كما كانت لفظة متكلمين أو أهل الكلام تطلق على أولئك الذين أخضعوا طرقهم الفكرية لنظم الدين المنزل . ثم صار « الكلام » يعنى علم الإلهيات ، وأصبح المتكلم هو العالم بالإلهيات . فالغزالى بهذا المعنى متكلم وظهر فى العالم الإسلامى عدد من الفلاسفة نقلت كتبهم إلى اللغات الأوربية أهمهم : —

أولا : الكندى (أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندى) : ولد فى الكوفة فى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى (٩٠٠م) واشتهر فى بغداد ويسمى فيلسوف العرب نظرا لنسبه العربى الصريح ، وجمع بين الفلسفة والعلم بالتنجيم والكيمياء والبصريات وأصوات الموسيقى . نسب إليه نحو ١٦٥ كتابا أكثرها مفقود ومنها :

١ — كتاب فى علم البصريات : ظلت له مكانته إلى أن ظهر كتاب لابن الهيثم وتأثر روجر بيكن بترجمة لاتينيه لكتاب الكندى عنوانها :
De aspectibus

وذكر الكندى فى إحدى رسائله عن الموسيقى الإيقاع كعنصر من عناصر الموسيقى العربية مما يدل على أن العرب عرفوا الغناء الموزون قبل أوربا بقرون .

ومن الغريب أن أكثر المحفوظ من مؤلفات الكندى موجود فى الترجمات اللاتينية مثل ترجمات جراره القرمونى وليس فى أصله العربى . (١)

---

(١) G. Quadri, La Philosophie arabe dans l'Europe Médiévale, pp. 58 — 70.

ثانيا : الفارابي (١) (محمد بن محمد بن طرخان أبو النصر الفارابي) : عمل في بلاط سيف الدولة الحمداني حيث عرف بالتصوف وتوفي بدمشق سنة ٣٤٠ هـ (٩٥٠م) عن حوالى ٨٠ سنة وكان يلقب بالمعلم الثاني وذلك باعتبار أرسطو المعلم الأول . وكتب في علم النفس والسياسة وما وراء الطبيعة بالإضافة إلى شروح أرسطو وغيره ، ومن كتبه رسالة نصوص الحكم ورسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة وكتاب الموسيقى الكبير .

الفلك (١) :

عنى العرب بالفلك فألفوا فيه الكتب وبنوا المراصد وجهزوها بأدوات مختلفة منها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة (ساعة شمسية) وعدد من الكرات ، كما عملوا التقاويم وكان التقويم يعرف في اللغة العربية باسم الزيج . ومن علماء الفلك العرب :

أولا : ابراهيم الفزاوى (ت ٧٧٧ م) وهو أول مسلم صنع اسطرلابا .

ثانياً : على بن عيسى الاسطرلابي . اشتهر في بغداد ودمشق قبل سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) وقد وضع رسالة تعتبر من أقدم الرسائل في الاسطولاب

ثالثاً : أبناء موسى بن شاكر : وقد أسهموا في قياس الدرجة الأرضية لتحديد حجم الأرض ومحيطها على أساس أنها مدورة ، وكانت حساباتهم دقيقة نسبيا .

رابعاً : الخوارزمى : وضع زيجا نقحه بعد قرنين العالم الفلكى الأندلسى مسلمة المجريطى (ت حوالى ٣٦٧ هـ — ١٠٠٧ م) ونقل إلى اللاتينية في سنة ١١٢٦ م . هذا وقد أصبحت التقاويم العربية أساسا لغيرها من التقاويم

---

(١) G. Quadri, op. cit.; pp. 71—94.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٤٣ .

والتصانيف الرياضية التي صدرت بعد ذلك في المشرق والمغرب ، من المعروف أن هذه التقاويم شاعت فأخذ بها الناس حتى في الصين .

خامساً : أبو العباس أحمد الفرغاني . أمره المتوكل سنة ٢٤٦ هـ - (٨٦١م) بعمل مقياس للنيل عند الفسطاط بمصر . ومن أهم كتبه « المدخل إلى علم هيئة الافلاك » ، وقد ترجم إلى اللاتينية سنة ١١٣٥م ونقل أيضا الى العبرية .

سادسا : عبد الرحمن الصوفي (٣٥٧ هـ - ٩٦٨م) وهو صاحب كتاب الكواكب الثابتة وهو رسالة رائعة في الرصد الفلكي .

سابعا : أبو عبدالله محمد بن جابر البتاني اشتهر فيما بين سنتي ٢٦٣ و ٣٠٥هـ (٨٧٧و٩١٨م) ويعتبر من أعظم الفلكيين العرب .

ثامنا : البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٣٩ هـ/ ٩٧٣ - ١٠٤٨ م) وله كتب في الفلك منها « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » .

التنجيم [١] :

وكان أبرز رجاله أبو معشر (ت ٣٧٢هـ / ١٠٨٦م) ولد في بلخ وأقام في بغداد واعتبرته المراجع الأوربية في العصور الوسطى حجة . وصور كقديس أوني ونقل أربعة من كتبه إلى اللاتينية في القرن ١٢م . وقد اكتشف حقائق علمية تتعلق بنظم المد والجزر وعلاقتهما بطلوع القمر وغيابه .

الرياضيات :

أولا : أبرز شخصية عربية في تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي [٢] (١٦٣ - ٢٣٥ هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٠ م) وقد استخدم الخوارزمي

---

(١) انظر وصية منجم في التعريف لابن فضل الله العمري ص ١٤١ .

(٢) Encyclopaedia of Islam.

فى مؤلفاته الأرقام الهندية - العربية وبفضل هذه المؤلفات أخذ الأوربيون نظام الأرقام التى يستعملونها الآن حيث سميت باسمه فى أول الأمر algorisma . وكان الأوربيون يستعملون قبل ذلك الأرقام اللاتينية التى لا تساعد على إجراء العمليات الحسابية المعقدة ، ومن ثم لم يتح لهم التقدم فى الرياضيات إلا بعد استخدامهم للأرقام العربية التى يسميها العرب بالأرقام الهندية اعتقاداً بأنهم نقلوها عن الهنود .

ومهما يكن من شىء فإن العمليات الحسابية لم تتطور تطوراً كبيراً إلا بعد استخدام العرب لهذه الأرقام ومن المعروف أن لفظة زيرو zero فى اللغة الإنجليزية ولفظة cipher التى عرفت عند الإنجليز قبلها بمائتى عام هما تحريف للفظة « صفر » العربية ، وكان استخدام الصفر فى الأرقام العربية مساعداً على التقدم فى علوم الحساب والرياضيات .

ومن أشهر أعمال الخوارزمى :

١ — الزيج المشهور الذى سبقت الإشارة إليه .

٢ — كتاب فى الحساب : ويعتبر أقدم كتاب فى علم الحساب ولم يصلنا إلا فى نسخة مترجمة .

٣ — حساب الجبر والمقابلة : وهو أقدم كتاب فى الجبر ولا يزال الأصل العربى مفقوداً .

وقد نقل إلى اللاتينية فى القرن السادس الهجرى (١٢ م) وظل الكتاب المعتمد فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر الميلادى وبواسطته عرفت أوربا علم الجبر وكذلك اللفظة نفسها .

ثانياً : عمر الخيام : وهو ممن تأثروا بالخوارزمى فى علوم الرياضيات وله كتاب فى الجبر .

الكيمياء :

أدخل العرب فى دراسة الكيمياء فكرة التجربة العلمية وهى أرقى من غيرشك من نظريات الإغريق الغامضة . ومن أشهر العلماء العرب فى الكيمياء: جابر بن حيان[1]: وقد بدأت شهرته فى الكوفة حوالى سنة ١٢٨هـ (٧٧٦ م) ويعتبر أبا الكيمياء العربية ويعد بعد الرازى أعظم الكيميائيين فى العصور الوسطى . وهو أول من أدرك أهمية الاختبار العلمى . ويقال إنه عاش فى الكوفة بعد وفاته على معمله وبه هاون وقطعة كبيرة من الذهب . وينسب إليه مائة كتاب بالعربية واللاتينية وتعتبر كتبه بعد القرن الرابع عشر الميلادى أشهر كتب الكيمياء أثراً فى أوربا وآسيا .

هذا وقد تفوق المسلمون أيضاً فى علوم أخرى ولاسيما الجغرافيا والتاريخ .

(١) المرجع نفسه .

الفصل الثالث

المعاهد العلمية والتعليمية

كان من مظاهر النهضة الثقافية والعلمية فى العالم الإسلامى، والعناية بوسائلها الحرص على تأسيس المدارس والمكتبات .

ولقد بدأ التدريس فى أول الأمر فى المساجد والجوامع . كما كان يجرى أحياناً فى بيوت المدرسين الخاصة . ثم صار يعد له دور علم خاصة يؤسسها الخلفاء والولاة كان يطلق عليها اسم بيوت الحكمة وخزائن الحكمة (١) ، وصواوين الحكمة . وكانت هذه أساساً دور كتب وربما وجد فيها أيضاً مدرسون وعلماء بالإضافة إلى التراجمة والنساخين والمجلدين .

وربما كان أول بيت حكمة عرفه المسلمون هو بيت الحكمة الذى أسسه العباسيون فى بغداد . وربما أنشىء أول الأمر فى عهد المنصور (١٣٥ — ١٥٨ ﻫ / ٧٥٢ — ٧٧٤ م) ، وازدهر بصفة خاصة فى عهد المأمون الذى جعله أيضاً بمثابة مدرسة للتعليم .

أما خزائن الحكمة فمن أشهرها خزانة الحكمة التى أنشأها الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ / ٨٤٦ — ٨٦١ م) ، وقد أسس الخليفة المعتضد أيضاً دوراً ومساكن ومقاصير للتعليم . ومن بيوت الحكمة المشهورة بيت الحكمة بالقيروان . ويقال إن أول من أسسه هو زيادة الله الثالث الأغلبى (٢٩٠ — ٢٩٦ ﻫ) وكان به مكتبة ودار للترجمة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ﺟ ٢ ص ٢٨٣ .

والتأليف ومعهد لتدريس الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقى وغيرها .

وكانت دور الكتب سواء العامة أو الخاصة عامرة بالكتب فى جميع فروع العلم والمعرفة ، وبلغ عدد الكتب فى بعضها أكثر من مليون كتاب .

وإلى جانب دور الكتب انتشرت محال الوراقة كمراكز للعلم والثقافة : إذ كانت تعمل فى نسخ الكتب وتجويد الخط بالإضافة إلى أهميتها كمراكز أدبية ، وقد أحصى اليعقوبى فى بغداد فى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) أكثر من مائة من محال الوراقة .

وفى القرن الخامس الهجرى (١١ م) بدأ يظهر نوع من المؤسسات العلمية والتعليمية عرف باسم المدارس . ويبدو أن ظهور هذه المدارس كان كرد فعل لنشاط دور العلم الشيعية إذ كانت الوظيفة الأساسية للمدارس هى نشر المذاهب السنية ومحاربة المذاهب الشيعية عن طريق العلم والتدريس .

وقد أنشئت المدارس فى أول الأمر على نفقة المدرسين أنفسهم : ففى نيسابور أسس ابن فورك مدرسة على نفقته ، وفى مرو شيد أبو حاتم التبتى مدرسة تشتمل على مكتبة وغرف لإيواء الطلبة الغرباء (١) .

وفى عهد السلطان محمود الغزنوى ظهرت أربع مدارس فى نيسابور : هى المدرسة البيهقية التى أسسها البيهقى ، ومدرسة شيدها أبو سعد اسماعيل بن على ابن المثنى الاستراباذى الصوفى الواعظ ، ومدرسة ثالثة بنيت للأستاذ أبى اسحق الاسترايني ، وأخيراً المدرسة السعيدية التى أسسها نصر ابن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوى أمير نيسابور ، والتى تعتبر من أوائل المدارس التى أنشئت على يد الدولة (٢) .

---

(١) د . حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ ٣ ص ١٠٤٨ .

(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١

والحق أنه منذ منتصف القرن الخامس الهجرى (١١م) بدأت الدول تسهم بطريقة فعالة فى حركة تأسيس المدارس بحيث صارت مؤسسات رسمية أو شبه رسمية ذات معالم واضحة محددة ، ويزاول فيها المدرسون مهامهم التعليمية .

ولقد ازدهرت هذه الحركة فى عصر السلاجقة وبخاصة على يد الوزير نظام الملك . وبدأت فى خراسان وأخذت تمتد غرباً حتى وصلت مصر وبلاد المغرب .

ومن الأسباب الرئيسية التى دفعت السلاجقة إلى تأسيس المدارس ونشرها رغبتهم فى نشر المذهب السنى الذى كانوا يدينون به ، ومحاربة المذهب الشيعى باعتباره الدعامة الفكرية والعقائدية التى تستند عليها الخلافة الفاطمية . ومن الملاحظ أن المذهب السنى كان هو مذهب الخلافة العباسية التى اعتمد عليها السلاجقة لدعم نفوذهم والتى كانت فى الوقت نفسه قد فقدت قوتها السياسية بحيث أمن السلاجقة تهديدها لنفوذهم وسلطانهم .

ولقد اعتمد السلاجقة فى تعليم المذهب السنى على مدرسين من الفقهاء السنيين ولاسيما من الشافعية الذين صاروا بحق من أشد فقهاء السنة تعصباً ضد الشيعة على اختلاف نحلهم وألوانهم السياسية .

وهكذا صار للمدرسين دور سياسى إلى جانب وظيفتهم التعليمية : فلم يقتصر المدرسون على أن يكونوا مجرد معلمين أو مجرد مجوزين لموظفين فحسب بل صارت لهم أهميتهم فى مجال السياسة الداخلية والخارجية ، كما كان يختار منهم فى كثير من الأحيان رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم كما كانوا بمثابة مستشارين للولاة والأمراء .

وازداد نفوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبي والروحي فعظمت منزلتهم بين الناس في حياتهم أو بعد موتهم ، ومن ثم استطاعوا أن يوجهوا الرأى العام .

وقد استغل الولاة هذه المنزلة فعنوا بتأسيس المدارس وتقريب المدرسين حتى يضمنوا كسب الرأى العام واستقرار الأمور ، وانتصار المذهب السنى وبالتالى سلطانهم السياسى .

وكان الوزير السلجوقى نظام الملك من أوائل من فطن إلى أهمية المدارس والمدرسين فأسس مدارس فى كثير من أنحاء الدولة السلجوقية ، وعين فيها مدرسين من أشهر العلماء المعاصرين له .

وفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (١١م) أسس نظام الملك فى نيسابور مدرسة نصب للتدريس فيها إمام الحرمين الجوينى وقد وصلنا مرسوم بتعيين مدرس فى هذه المدرسة يعتبر من أقدم مراسيم تولية المدرسين ونعنى بذلك التوقيع الذى أصدره السلطان سنجر السلجوقى بتعيين محمد بن يحيى مدرساً فى المدرسة النظامية بنيسابور فيما بين سنتى ٥١١ هـ و ٥٢٢ هـ[1] .

وبالإضافة إلى مدرسة نيسابور أسس نظام الملك مدارس فى بغداد والبصرة وأصفهان وبلخ وهراة والموصل[2] وغيرها وكانت هذه المدارس تسمى بالنظامية نسبة إليه .

وأشهر هذه المدارس المدرسة النظامية فى بغداد ، وقد تولى بناءها أبو سعيد الصوفى سنة ٤٥٧هـ على شاطىء دجلة بأمر نظام الملك ، وبنى حولها

---

(١) ناجى معروف : التوقيعات التدريسية ص ٢٦٧ .

(٢) دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٨١

أسواقاً أوقفت عليها ، كما ابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ستين ألف دينار . وكان أول مدرسيها الشيخ أبو السعود الشيرازى وكان فى قمة شهرته ، كما درس فيها مشاهير علماء المسلمين ومنهم الإمام أبو نصر الصباغ وأبو القاسم الدبوسى وأبو حامد الغزالى والشاشى والكيا الهراسى والسهروردى وكمال الدين الأنبارى وبهاء الدين كاتب تاريخ حياة صلاح الدين .

ووصلتنا نسخة توقيع بتدريس كتب به عن الإمام الناصر لدين الله للقاضى محيى الدين محمد بن فضلان بتدريس المدرسة النظامية ببغداد فى سنة ٦١٤ هـ يتضح منه أن كان من مهمة المدرس — إلى جانب التدريس — نظار وقوف المدرسة وعمارتها ، والعمل على استنمائها ، والتوفر على كل ما يعود بتزايدها وزكائها[١].

وحضر الرحالة ابن جبير فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (١٢ م) أحد الدروس بالنظامية بعد صلاة العصر فذكر أن المدرس كان يقف على منصة ، وأن التلاميذ كانوا يجلسون على مقاعد ، وأن التلاميذ أخذوا يسألون المدرس حتى صلاة المغرب ، ويبدو أن المدرسة كان بها مدرس واحد ومعه معيدان[٢].

ومن المدارس التى أسست فى بغداد فى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (١١م) مدرسة أبى حنيفة التى بناها شرف الملك أبو سعد محمد ابن منصور العميد الخوارزمى للسلطان ألب أرسلان السلجوقى ، وافتتحها سنة ٤٥٩ هـ ، وكان أول مدرس فيها هو أبو طاهر إلياس بن نصر .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) Hitti, Hstory of the Arabs, pp. 410—411.

وقد أورد ابن الساعي توقيعاً صادراً من المخزن المعمور في خلافة الناصر لدين الله في ٢١ ذي القعدة سنة ٦٠٤ هـ يقضي بتعيين ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي مدرساً بمشهد أبي حنيفة ومدرسته وناظراً في وقوفهما على أن يكون له الإشراف على قوام المشهد والمدرسة وعلى خازن الكتب وأن يأخذ كل شهر على ذلك ثلاثين قفيزاً من الحنطة وعشرة دنانير .

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) أخذت المدارس تنتشر في الدولة السلجوقية : فأنشئت مدارس في خراسان والعراق وسورية وآسيا الصغرى على نمط المدرسة النظامية . وكانت المدرسة تقام فيها الصلوات وتشتمل على مساكن للطلبة . وكان تأسيس المدارس يعتبر في الإسلام من أعظم القربات إلى الله . ومن ثم أقبل المسلمون على إنشاء المدارس والوقوف عليها تقرباً إلى الله بنشر العلم والمذاهب السنية .

وربما كانت أقدم الكتابات الأثرية التي وصلتنا مشتملة على لفظة مدرس كتابة أثرية جنائزية من منبج مؤرخة بشهر ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ / ١٢ أغسطس ١١١٦ م باسم « الشيخ أمين ابن الشيخ أحمد المدرس المفتي » .

ومن أقدم المدارس التي أنشئت في ذلك العصر وبقيت لنـــا منها آثار المدرسة المجاورة لجامع أورفا في تركيا ، ويرجع تاريخها حسب ماجاء في بعض الكتابات الأثرية إلى سنة ٥٢٧ هـ / ١١١٣ م .

وقد وصلتنا كتابة أثرية من عصر سلاجقة الروم من مدرسة المظفر بروجردي (البروجية أو حاجي مسعود) بسيواس بآسيا الصغرى تتضمن وقفية شرط فيها الواقف « مدرساً واحداً وثلاثة من المعيدين وثلاثين من الفقهاء وأربعة من الحفاظ وإماماً واحداً ومؤذناً وعمارناً واحداً لخزانة الكتب

من جملة ما وقف الواقف رحمه الله على هذه المدرسة المباركة من قرية أسكى من ناحية ايليكاو » (١) .

ويتضح من هذه الكتابة الأثرية أن المدرسة كان بها مدرس واحد كان يعتبر بمثابة مديرها ، وكان يساعده فى التدريس ثلاثة من المعيدين .

وورث الأتابكة عن السلاجقة العناية بتأسيس المدارس : فامتدت المدارس فى عهدهم إلى الغرب فأنشئت مدارس فى الموصل وأربل وسنجار ونصيبين وغيرها ، كما أنشئت فى سورية حيث دخلت فى صراع عقائدى مع المذهب الفاطمى والكنيسة الصليبية ، وبانتصارها عليها تأكد نظام المدارس السنية (٢) . ومن المدارس السورية المشهورة المدرسة الأمينية بدمشق التى شيدت فى سنة ٥١٤ هـ وكانت تسمى حق الذهب ، وقد وصلنا تقليد بتعيين ابن خلكان مدرساً بها فى سنة ٦٧٩ هـ ، ووصلنا تقليد آخر بإعادة ابن خلكان نفسه للتدريس بها فى سنة ٦٨١ هـ .

وتولى نور الدين محمود بن زنكى حركة تشييد المدارس سائراً على نهج السلاجقة وفى عهده انتشرت المدارس فى الشام والجزيرة ، وأنشئت مدارس فى دمشق وحلب وحماة وبعلبك وحمص والرقة والبصرة ومنبج وكان يفد إليها العلماء من نيسابور وبغداد وقرطبة وغرناطة ومراكش .

وأسس نور الدين فى دمشق المدرسة النورية ، وقد وصلنا كتابة أثرية منها بتاريخ شهر شعبان سنة ٥٦٧ هـ / أبريل سنة ١١٧٢ م تتضمن إنشاء المدرسة بأمر هذا السلطان الذى « أوقف عليها وعلى القربة التى بناها لنفسه وعلى المجاورين من الفقهاء والمدرسين والمتفقهين على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه جميع البستان المعروف ببستان الجوزة فى أرزة .. »

---

(١) CIA, Siwas, no. 20, pl. XLII.

(٢) Van Berchem, CIA, égypte, I, p. 263.

ويتضح من هذه الكتابة أن نور الدين قد بنى لنفسه ضريحاً بالمدرسة .

وبإنشاء نور الدين لنفسه ضريحاً بالمدرسة بدأ فى سورية فكرة الجمع بين الضريح والمدرسة، ولقد استقر هذا النظام فى سورية منذ ذلك الوقت ، كما صار من التقاليد المتبعة فى عصر المماليك الذى يعتبر من الناحية الفنية استمراراً للعصر الأيوبى ، وبمقتضاه صار مؤسس المدرسة يدفن تحت قبتها .

ويشتهر عهد نور الدين فى مجال الدراسات الأثرية والفنية بظاهرة مهمة : ونعنى بها الكتابات الأثرية التى تركها على مدارسه فى المدن السورية ذلك أنها تعتبر أقدم الكتابات الأثرية التذكارية التى حل فيها الخط النسخ محل الكوفى (١) .

وورث صلاح الدين عن نور الدين نظام تأسيس المدارس ، التى عمل هو وأسرته على نشرها فى مصر وسورية والجزيرة رغبة فى نشر المذهب السنى ومحاربة المذهب الفاطمى .

غير أن مصر كانت قد عرفت تأسيس المدارس قبل صلاح الدين ربما من باب التأثر بالمدارس السلجوقيـــة ومن المعروف أنه قد أنشىء بالأسكندرية فى عهد الفاطميين مدرستان : إحداهما أنشأها رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ فى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م ، والثانية أنشأها العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م . وقد قام على التدريس بها الحافظ السلفى ، وكان من أعظم علماء الفقه والحديث ، وقد أدركه صلاح الدين ، وكان يحرص على سماع دروسه بالأسكندرية مع أولاده وأهله .

وأورد القلقشندى نسخة سجل بتدريس بالمدرسة الحافظية بالإسكندرية

---

(١) Hitti, op. cit , p. 659–660.

كتب به لأبى الظاهر أشير فيه إلى إنشاء المدرسة الحافظية بأمر الخليفة الفاطمى ، وإلى موافقته على أن يكون ما يصرف عليها من عين وغلة مطلقاً من ديوان أمير الجيوش ، كما أوصى فيـــه الأمير والقاضى وكافة الحماة والمتصرفين والعمال المستخدمين بالأسكندرية برعاية المدرسة وطلبتها ، كما أمر بأن يتلى هذا المنشور بالمسجد الجامع ، وأن يخلد بالمدرسة حجة بما تضمنه .

وفى عصر الفاطميين أيضاً أسس صلاح الدين المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر فى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، وكان لا يزال وزيراً للعاضد الفاطمى ، وخصص الأولى للشافعية والثانية للمالكية (١) .

وكان أول من ولى التدريس بالمدرسة الناصرية هو ابن زين التجار فعرفت به ، ثم صارت تعرف بالمدرسة الشريفية نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين الارمودى قاضى العسكر ، وكان قد درس بها أيضاً ، وقد اشتهرت بهذا الاسم حتى عصر المماليك .

وبانقراض الدولة الفاطمية توسع صلاح الدين فى إنشاء المدارس بحيث صار بحق من أعظم بناة المدارس فى الإسلام .

وفى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م أمر بإنشاء المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، ومدرسة ثانية بجوار المشهد الحسينى ، والمدرسة السيوفية للفقهاء الحنفية بالقاهرة أيضاً ، وكانت أول مدرسة أوقفت عليهم . كما أنشأ بالأسكندرية فى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م مدرسة وبيمارستان وداراً للمغاربة .

وفى عهد صلاح الدين أسست فى مصر مدارس أخرى مثل المدرسة

---

(١) حسن عبد الوهاب : نشأة المساجد ورسالتها ص ٥

القطبية التى أسسها الأمير قطب الدين خسرو فى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ، والمدرسة الأرسوفية التى أسسها عفيف الدين عبد الله محمد الأرسوفى (١) .

وفى عهد صلاح الدين أيضاً أصبحت دمشق بحق مدينة المدارس ، ولقد أشار ابن جبير إلى هذه الحقيقة حينما زارها فى سنة ١١٨٤م إذ ذكر أنه عدد بها عشرين مدرسة .

وما أن فتح صلاح الدين بيت المقدس حتى حول كنيسة سانت آن إلى مدرسة لتعليم الشريعة الإسلامية حسب المذهب السنى ، وقد كانت من قبل دار علم فى عهد الفاطميين ، وهكذا حدد صلاح الدين هدفه التعليمى وهو يتلخص فى محاربة الصليبيين والشيعة .

واقتدى بصلاح الدين من خلفه من أهله بمصر وسورية فتسابقوا إلى إنشاء المدارس حتى بلغ عددها فى مصر فى نهاية العصر الأيوبى خمساً وعشرين مدرسة (١) ، كما أسست بسورية مدارس كثيرة نذكر منها بدمشق المدرسة العادلية التى أنشئت فى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م فى عهد سيف الدين أبى بكر ، وبحلب المدرسة الظاهرية التى أنشئت فى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م والمدرسة السلطانية التى أسست فى عهد الملك العزيز فى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، ومدرسة الفردوس فى عهد الملك الظاهر غازى فى سنة ٦٣٣هـ ، والمدرسة الشرفية فى سنة ٦٤٠ — ٦٥٠ هـ والمدرسة الكاملية وغيرها .

وقد أورد القلقشندى نسخة توقيع أيوبى بتدريس مدرسة بحلب والنظر عليها والإشراف على أوقافها وسائر تعلقاتها (٢) .

وقد وصلنا كتابة أثرية بالنسخ الأيوبى بتاريخ سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ٢٦٦ .
(٢) صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٤ — ٣٧ .

حول حنية باب المدرسة السلطانية بحلب وتعرف بالظاهرية تتضمن نص تعمير وإنشاء فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن الملك الغازى بن السلطان الملك صلاح الدين باسم أتابكه وولى أمره وكافل دولته شهاب الدين أبى سعيد طغريل بن عبد الله الملكى الظاهرى الذى أنشاها تكية وتربة وجعلها مدرسة للحنفية والشافعية ومقرا للطلاب من الطائفتين والذين يعينهم المدرس بها من الفريقين مشتملة على مسجد ومدفن السلطان الملك الظاهر . . وشرط فيها .. أن يكون المدرس شافعى المذهب، والإمام للصلاة فى مسجدها شافعى المذهب وكذا المؤذن(١) .

كما أشير إلى سكنى المدرس فى كتابة أثرية أخرى من هذا العصر بتاريخ سنة ٦٢٠هـ بالمدرسة الأتابكية (جامع الكلتاوية) بحلب تتضمن نص إنشاء ووقفية باسم أبى سعيد طغريل بن عبد الله الملكى الظاهرى أشير فيها إلى «مشهد لله تعالى تقام فيه الصلوات الخمس. ويسكنه المدرس والفقهاء الحنفية على ماشرطه فى كتاب الوقف . . »

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى أدخلت المدرسة لأول مرة بالحجاز. كما كان يعين مدرسون أيضاً بالحرم الشريف ، وقد وصلنا كتابة أثرية جنائزية على شاهد بزلت من مكة بتاريخ ٤ ربيع الآخر سنة ٦١٤هـ/١١ يوليه ١٢١٧م باسم «الفقيه القاضى الإمام العالم الزاهد المدرس بالحرم الشريف محى الدين ناصر الشرع شرف القضاة قاضى الحرم الشريف والمفتى بها أبى جعفر أحمد ابن الشيخ الصالح السعيد أبى بكر بن محمد بن ابراهيم الطبرى»

وفى العصر الأيوبى برز أحد الولاة المحليين كراع عظيم للمدارس ونعنى به الملك مظفر الدين صاحب أربل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ : إذ بنى كثيراً من المدارس بالإضافة إلى دور الأيتام واللقطاء والأرامل وغيرها .

---

(١) محمد أسعد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب ص ٧٥ حاشية عن الطباخ ٣٧٤/٤ .

على أن حركة بناء المدارس قد استمرت حتى أواخر الخلافة العباسية. وربما كانت أشهر المدارس التى أنشئت فى أواخر العصر العباسى هى المدرسة المستنصرية التى أنشأها الخليفة المستنصر بالله العباسى فى بغداد فى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م ، وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة ، وهى المذهب الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى . وقد عين لكل مذهب مدرساً من أشهر علماء العصر ، وحدد لكل مدرس خمسة وسبعين طالباً ومعلما للقرآن وآخر للحديث ، وألحق بالمدرسة جامعة وخزانة كتب وميضأة وحمامات ومطابخ وبيمارستان، كما زودها بساعة عند المدخل ، وخصص لكل مذهب ايوانا . وكان المدرس يجلس على كرسى من الخشب عليه البسط تحت قبة صغيرة من الخشب ، ويجلس على يمينه وشماله المعيدون ليعيدوا دروسه على الطلاب (١) .

وتعتبر المدرسة المستنصرية أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة . وكانت مدرسة الفقه تتوسط أقسام المدرسة ، وكان بها الجامع .

ولم يقتصر التدريس فى المستنصرية على الفقه بل شمل علوما أخرى مثل النحو واللغة والحساب والمساحات ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتصحيح الأبدان ، وكان يتولى تدريس كل منها مدرسون مشهورون. وقد وصلنا اسم قمر الدين الحاسب الذى رتب عند افتتاح المدرسة مدرسا للحساب والفرائض بها .

وكان علم الطب من العلوم التى كانت تدرس بالمدرسة ، وقد خصص له مبنى خاص مواجه للمدرسة عبارة عن صفة تحت إيوان تم بناؤها فى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان أيضاً بمثابة مستشفى لعلاج مرضى المدرسة ، وقد وصلنا أسماء بعض مدرسى الطب بالمستنصرية .

---

(١) ناجى معروف : علماء المستنصرية ، المدرسة المستنصرية .

وكان بالمستنصرية ساعاتيون يقومون بالإشراف على ساعات المدرسة، ومن أشهر هؤلاء نور الدين الساعاتى (٦٠١ — ٦٨٣ هـ) وكان مشتهراً بعلم الهيئة والنجوم وعمل الساعات .

هذا وقد نجت المستنصرية مثلها مثل النظامية من تخريب هولاكو وتيمورلنك ثم اندمجتا معاً فى سنة ١٣٩٥ م أى بعد غزو تيمورلنك لبغداد بسلنتين .

على أن حركة تأسيس المدارس قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً فى دولة المماليك الذين نهجوا فى ذلك نهج الأيوبيين . وقد تنافس سلاطين المماليك فى إنشاء المدارس واقتدى بهم أثرياء دولتهم حتى بلغ مجموع ما أنشىء من مدارس بمصر وحدها حتى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥ م) خمساً وأربعين مدرسة بالإضافة إلى المدارس الأيوبية وعددها خمس وعشرون .

وكانت المدارس فى عصر المماليك طريقاً موصلة إلى الوظائف الرفيعة فى الدولة .

وكان تعيين المدرس يتم بمجرد الانتهاء من بناء المدرسة . وقد احتفظ المدرسون فى هذا العصر بالمكانة الأدبية والسياسية التى وصلوا إليها من قبل، وقد عنى كتاب المصطلح المملوكى بوظائف التدريس، وحددوا الأوصاف والألقاب التى يجب أن يخاطب بها المدرس فى مخاطباته، والوصايا والنصائح التى توجه إليه [١] .

وكانت وظيفة المدرس فى هذا العصر من الوظائف الدينية التى يشغلها علماء مدنيون ، ولم يكن المدرس مجاس بحضرة السلطان . وكانت ولايات أكابر المدرسين فى مصر تصدر عن السلطان : فكان السلطان هو الذى يعين المدرسين بالزاوية الخشابية أو الصلاحية بالجامع العتيق وبالمدرسة الصلاحية

(١) السبكى : معيد النعم ص ١٠٥ — ١٠٦

بتربة الإمام الشافعى بالقرافة ، وبالمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصورى فى بين القصرين ، ودرس الجامع الطولونى .

وكانت وظيفة التدريس يشغلها فى بعض الأحيان الأبناء محل آبائهم إذا كان هؤلاء الأبناء فى مستوى علمى مناسب ، وقد حدث مثلاً بعد وفاة قاضى القضاء بدر الدين أبى البقاء — وكان من جملة وظائف التدريس بالمدرسة الصلاحية المجاورة لتربة الإمام الشافعى — أن ولى هذه الوظيفة ابنه جلال الدين بتوقيع من السلطان (١).

كما كان يجمع فى كثير من الأحيان لعالم واحد بين التدريس ووظائف أخرى : مثل وظيفة نائب الحكم العزيز ، والقاضى أو قاضى القضاة ، وشاهد الخزانة الخاص والمفتى وكاتب السر .

وعلى نمط النظام المتبع فى الديار المصرية سار التدريس فى دمشق وغيرها من الممالك الشامية وكانت التولية فيها عن النائب بتواقيع كريمة غالباً ، أما التداريس الصغار فكانت التولية فيها عن النواب ولا يولى فيها السلطان إلا نادرا .

واعتبر القلقشندى وظيفة التداريس الكبار فى دمشق الوظيفة السادسة من بين الوظائف الدينية بها .

وعنى العثمانيون أيضاً بإنشاء المدارس وأول من أسس المدارس فى الدولة العثمانية هو السلطان أرخان (٢) ، ثم اقتدى به سلاطين آل عثمان فى ذلك . وأشهر المدارس العثمانية هى المدارس الثمانيــة التى أنشأها السلطان سليم .

وأنشئت المدارس فى غرب العالم الإسلامى : ففى الأندلس أنشئت المدارس فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٢٣٥

(٢) توفى سنة ٧٦١ هـ .

وبلغ عدد المدارس فى مملكة غرناطة وحدها سبع عشرة مدرسة كبرى ومائة وعشرين مدرسة صغرى(١) . غير أنه من المعتقد أن مدارس الأندلس لم تكن على غرار المدرسة النظامية .

ومهما يكن فقد انتشرت المدارس فى بلاد المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين . وقد بلغت مدرسة فاس درجة عالية من حيث المستوى والشهرة فى تلك الفترة ، كما اشتهر فى المغرب مدارس سبتة وطنجة وأغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش ، وفى الأندلس مدارس قرطبة ومرسية والمرية ودانية وأشبيلية وبلنسية وطرطوشة وغرناطة وبطليوس وشاطبة وسرقسطه وشلب .

واشتهر فى غرب العالم الإسلامى عدد من المدرسين نذكر منهم القاضى عياض الذى ذاع صيته فى أوائل القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، وكان من أشهر مدرسى مدرسة سبتة(٢) .

واهتم بنو مرين ببناء المدارس متأثرين بالحماسة الدينية بحيث اعتبروا أعظم بناة المدارس فى بلاد المغرب : ومن أشهر مدارسهم فى فاس مدرسة الصفارين ومدرسة الصهريج ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة بوعنانية .

وفى شرق العالم الإسلامى سار المغول على نهج السلاجقة والعباسيين فأنشأوا المدارس فى بلادهم ، وكانت المدرسة فى عهدهم تخصص فى الغالب لمذهبين معا .

وارتبط بنشأة المدارس فى العالم الإسلامى ظهور طراز خاص فى العمارة الإسلامية هو طراز المدرسة .

---

(١) Ameer Ali, Short History of the Saracens, p. 627.

(٢) دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٣١ — ٤٣٣

ويبدو أن المدارس النظامية التى أسسها نظام الملك اتخذت طابعاً معماريا متشابها . وعلى الرغم من أننا لانعرف على وجه التحديد تخطيط المدارس النظامية وتصميمها(١) فإنه من المحتمل أن عمارة هذه المدارس تأثرت بالإيوانات الساسانية . والحق أن الإيوانات الساسانية ظهر تأثيرها بشكل واضح فى بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية المتأخرة رغم خضوع كل منها للتقاليد المحلية : إذ كانت قاعاتها على هيئة إيوانات تفتح على صحن فى الوسط ، وتعلوها قبوات ضخمة نصف أسطوانية متكسرة .

ومن المتعذر تتبع تطور عمارة المدرسة فى العراق نظرا لاختفاء آثار المدارس المبكرة . وإذا كان قد أمكن فى الوقت الحالى ترميم المدرسة المستنصرية فإن المدرسة تمثل فى الواقع أوج التطور المعمارى للمدرسة العراقية : ذلك أنها كانت أولى المدارس الإسلامية التى جمعت فيها المذاهب الأربعة بالإضافة إلى علوم أخرى .

أما مدارس سورية فكانت فى معظم الأحيان تخصص لمذهب واحد وفى بعض الأحيان لمذهبين ، هما الشافعى والحنفى . وفى حالة المذهب الواحد كانت المدرسة تشتمل على مصلى وبهو مستطيل بواجهته ثلاث بوائك ، وفى وسطه نافورة ، وقلما وجد فى جهة من جهات البهو أكثر من قاعة واحدة مقسمة أو إيوان . أما فى حالة المذهبين فكانت المدرسة تشتمل على إيوانين متقابلين يحف بهما من الجانبين غرف للطلبة .

وكانت المدارس السورية عبارة عن شكل رباعى قائم الزوايا موجه نحو القبلة ، ومن النادر اشتمالها على مئذنة على عكس المدارس المصرية . ومنذ نور الدين صارت المدارس السورية تشتمل على ضريح مؤسس المدرسة وبذلك بدأت هذه المدارس تقليداً اتبع فى عصر المماليك كما سبق أن أوضحنا .

(١) ذكر مهرخويند وغيره من الكتاب أن النظامية فى بغداد . كانت مبنى عظيماً Van Berchem, CIA, égypte I, p. 265.

أما فى مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التى بدأ بتأسيسها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد : إما الشافعى أو المالكى أو الحنفى ، وذلك فيما عدا المدرسة الكاملية التى كان يدرس بها الحديث والتى بقيت بعض آثارها . وقد تأثرت المدارس المصرية بطبيعة الحال بالمدارس السورية .

وكانت المدارس المصرية فى الغالب تشتمل على إيوانين متقابلين بينهما فناء ويرتبطان معاً بواسطة غرف متصلة . ومن المحتمل أن الإيوان القبلى كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة لمذهب واحد ، فى حين يستخدم الإيوان الآخر للتدريس . أما إذا كانت المدرسة لمذهبين فكان الايوان القبلى يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط ، وكقاعة للدرس بين مواعيد الصلوات ، كما يتضح من وجود ثلاث محاريب فى الإيوان القبلى بالمدرسة الصالحية ، ومن الإشارة إلى وجود محراب بالايوان القبلى بالمدرسة الظاهرية ، وفيما عدا استثناءين اثنين لم تزود المدارس المصرية بمساجد ذات طراز خاص .

وعلى عكس المدارس السورية اشتملت المدارس المصرية على مئذنة تعلو مدخل المدرسة مما يرجح تأثر المدرسة المصرية بعمارة المساجد(١) .

وبتأسيس المدرسة الصالحية فى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م لتدرس بها المذاهب الأربعة لأول مرة فى مصر صارت المدرسة تشتمل على أربعة ايوانات . وقد أنشأ الملك الصالح هذه المدرسة على قطعة أرض كانت جزءاً من القصر الشرقى الفاطمى يشتمل على أحد أبوابه وهو باب الزهومة . وكانت المدرسة تتكون من قسمين على يمين وشمال الداخل من الباب الرئيسى ، ويتوسطهما صحن كبير ، وكان بكل قسم إيوانان .

(١) Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, Vol. II, Chapter VI.

ولم يتبق من مبانى هذه المدرسة غير واجهتها التى تشتمل على المدخل الرئيسى وتعلوه المئذنة . ويبق من الجزء الشمالى الإيوان الغربى وهو ملاصق لضريح السلطان الصالح ، وأجزاء قليلة من الإيوان الشرقى ، أما القسم الجنوبى فلم يبق منه سوى الواجهة[1] .

وفى عصر المماليك صارت معظم المدارس المصرية تدرس فيها المذاهب الأربعة مما أدى إلى ظهور المدارس ذات الإيوانات المتعامدة كما هى الحال فى مدرسة السلطان حسن ومدرسة زين الدين يوسف : إذ صارت المدرسة تشتمل على أربعة إيوانات متقابلة تكون تخطيطاً متعامداً . وكان إيوان المحراب هو أكبر هذه الإيوانات ، فى حين كان الإيوانان الجانبيان هما أصغرها ، وكان يتوسط الايوانات صحن مكشوف به قبة الفسقية ، وكان يلحق بها مدفن مؤسس المدرسة على نمط المدارس السورية والأيوبية ، وسبيل يعلوه كتاب بالإضافة إلى مساكن للطلبة . وفى حالة المدرسة ذات الحجم الصغير كان الصحن يغطى ، كما كان يستغنى عن الفسقية وعن قبتها فى وسطه . وقد أثر طراز المدرسة ذات الإيوانات الأربعة على تصميم المساجد المصرية فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) بحيث شيدت كثير من المساجد على مثال المدرسة دون أن تكون مخصصة للتدريس[2] .

ولقد اختلف العلماء بصدد أصل الطراز المتعامد فى المدرسة المصرية : إذ يعتقد فان برشم مثلا أن هذا الطراز متأثر بصفة أساسية بالكنائس البيزنطية ذات التخطيط الصليبى فى حين يؤكد كرزول أنه متطور عن نظام البيوت المصرية الإسلامية .

ومن مصر انتقل نظام المدارس السنية إلى المغرب الأدنى ومن ثم انتشر

---

(١) شحاته عيسى : القاهرة ص ١١٧

(٢) Creswell, op. cit.

فى كافة أنحاء المغرب ، وظهرت المدارس فى المغرب الأقصى بعد ثلاثين سنة من ظهورها فى المغرب الأدنى .

واشتقت المدرسة المغربية تصميمها من عمارة الأربطة إذ كانت تتألف من صحن مركزى يتوسطه حوض ، وتحيط به من الشمال والشرق والغرب غرف صغيرة ضيقة أعدت لإقامة الطلبة . أما الجهة القبلية التى كانت تقع عادة قبالة المدخل الرئيسى فكانت تشتمل على المصلى ، وكانت ذات أسقف هرمية . وكانت المدرسة المغربية تشتمل فى معظم الأحيان على مئذنة كما كانت الحال فى المدارس المصرية .

غير أن المدرسة المغربية كانت تختلف عن المدرسة المصرية والسورية من حيث عدم احتوائها على ضريح[1] .

وفى شرق العالم الإسلامى أسس المغول فى دولهم مدارس على طراز المدارس السلجوقية ، وكانت المدرسة المغولية تخصص غالباً لمذهبين معاً مما أدى إلى ظهور عمارة المدرسة المزدوجة .

وإذا كانت المدارس هى معاهد الدراسات التخصصية والعليا فقد عرف العالم الإسلامى معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث وقد اصطلح على تسميتها بالكتاتيب . وكان الكتاب يبنى فى عصر المماليك حسب طراز معمارى معين ولا يزال بعض الكتاتيب المملوكية باقياً حتى اليوم .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : مدارس فاس ٢٠١ — ٢٠٧

الباب الثالث

المجتمع الإسلامى

مقدمة :

لم يعن المؤرخون الإسلاميون كثيراً بدراسة المجتمع الإسلامى ، وحياة السكان اليومية وأجناسهم ومدى اختلاطهم ، إذ كان جل همهم منصرفاً نحو أمور البلاط وأحوال السياسة وأخبار الحروب . ومن ثم كان على دارس المجتمع الإسلامى أو الحياة الاجتماعية أن يستنبط حقائقه مما يرد من إشارات فى الكتب المختلفة من تاريخية وأدبية ودينية سواء أكانت على هيئة أمثال أم قصص أم غيرها ، وكذلك فى ضوء ما وصلنا من آثار أو منتجات فنية .

ومهما يكن من أمر فقد كان المجتمع الإسلامى يتألف من طبقات يقوم على رأسها الخليفة ثم أفراد أسرته وأدنى منهم كبار الموظفين ثم أتباع هؤلاء جميعاً من جند وحرس وندماء وموال وخدم . وكان كثير من الخدم من الرقيق الذين ينتمون فى أصلهم إلى شعوب غير مسلمة .

وبالإضافة إلى هذه الطبقات التى تمثل الفئة الحاكمة وجدت طبقات الشعب وهذه تنقسم بصفة أساسية إلى فئتين : عليا ودنيا . أما الطبقة العليا فكانت تشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع وأهل الفن . وأما الطبقة الدنيا فكانت تشمل أصحاب المهن المتواضعة كالشيالين والسقائين والفلاحين والرعاة وأشباههم وكان للعلماء مركزهم سواء عند العامة

أو الخاصة ، كما تمتع بعض التجار بالثراء والجاه . أما الصناع فكانت سمتهم الغالبة الإتقان والإجادة كما يتضح مما وصفنا من إنتاجهم [١] .

ومن حيث التمييز الديني فقد وجد إلى جانب المسلمين طوائف أخرى من ديانات مختلفة : من النصارى واليهود والصابئة [٢] ، وكان لهم حق أداء شعائرهم الدينية ، كما نعموا بالرخاء ، وشغلوا كثيراً من الوظائف حتى العليا منها . ويختلف العالم الإسلامي في ذلك عن الدول المسيحية التي لم تسمح في الغالب بوجود مسلمين بينهم .

أما من حيث الجنس فمن المعروف أن الدولة العباسية استعانت بالعنصر الفارسي سواء في قيامها أو في إدارة شئونها ، ومن ثم وجد إلى جانب العنصر العربي الذي كانت له السيادة المطلقة في العصر الأموي عنصر آخر هو العنصر الفارسي . وقد برز الفرس في شتى نواحي المجتمع العباسي ، وتقربوا إلى الخلفاء : فكان منهم كبار رجال الدولة سواء في السياسة أو الجيش أو الإدارة ، ووجد تنافس بين العنصرين : العنصر الفارسي الذي كان يحاول أن تكون له السيطرة ، والعنصر العربي الذي كان يناضل في سبيل الاحتفاظ بمكانته السابقة ، ثم لم يلبث أن ظهر عنصر ثالث منذ عهد المعتصم : هو العنصر التركي الذي استطاع أن يغتصب من كلا الفرس والعرب أهم المناصب في مجال الحكم والحرب .

ومع ذلك فقد أدت تعاليم الإسلام إلى الجمع بين هذه العناصر ومزجها معا في بوتقة الإسلام والعروبة .

---

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٨

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٥٨ — ٦٣ .

كما حدث تزاوج بين الأجناس المختلفة بفضل التسرى أو اتخاذ الإماء. وفى حين كان خلفاء بنى أمية يحرصون على المحافظة على نقاء الجنس العربى حتى أن جميع خلفائهم قبل يزيد الثالث وهو الخليفة الثالث عشر — كانوا أبناء عربيات، كان جميع خلفاء بنى العباس أبناء أمهات غير عربيات فيما عدا ثلاثة فقط : هم السفاح والمهدى والأمين.

وليس من شك فى أن أفراد الشعب قد تأسوا بخلفائهم : فوجد التزاوج بين الأجناس المختلفة، وساعد على ذلك كثرة الأجناس الخاضعة للدولة الإسلامية وسهولة الاتصال بينهم : إذ لم تكن هناك حواجز سياسية بالاضافة إلى تجارة الرقيق التى ساعدت على الامتزاج بين الأجناس وكان من نتيجة ذلك أن كثر الهجناء من أبناء الإماء، وقد أدى ذلك إلى أن ضعفت العصبية العربية التى كانت عماد الدولة الأموية، وحل محلها طبقة من الموظفين من جنسيات مختلفة. وغلب على هذه الطبقة فى أول الأمر العنصر الفارسى، ثم حل محله فيما بعد العنصر التركى والديلمى.

وكان للمرأة دورها فى الحياة الاجتماعية وقد نقل التاريخ أسماء بعض نساء من الحرائر والرقيق كان لهن نصيب فى المجتمع الإسلامى ومن هؤلاء زبيدة زوج الرشيد التى شاركت الخليفة مجده وعظمته حتى فى القصص.

وكانت بطريقتها فى الحياة وزيها ومقتنياتها وتحفها الثمينة مصدراً لتقاليد الزى والتزين والتزيين فى عصرها : إذ كان المترفات من النساء يحرصن على تقليدها. ومما يذكر فى ذلك أن النساء قلدنها فى اتخاذ الخفاف المرصعة بالجوهر واستعمال شمع العنبر.

ومنهن أيضاً علية والعباسة ابنتا المهدى والثانية بطلة نكبة البرامكة عند بعض الباحثين وكانت علية قدوة للنساء فى اتخاذ العصابة المطرزة بالجوهر وكانت قد استعملتها أصلا لتخفى عيباً فى جبينها.

أما الجوارى من النساء فكان لهن دورهن فى رفاهية المجتمع [1]، ولا سيما النابهات منهن فكان منهن الشاعرات والمغنيات اللاتى يحيين مجالس السمر والطرب واللهو . وكانت الجارية التى تجيد الغناء تسمى قينة .

ومن الإماء اللاتى حظين بالذكر فى الأخبار محبوبة جارية جعفر المتوكل وكانت بارعة فى الفنون والأدب وجيدة للشعر كما كانت راوية ظريفة وتتقن الغناء ، وكانت ذات حظوة عند الخليفة . وبلغ من إخلاصها له أنها بعد أن قتل المتوكل وتفرقت جواريه وصارت محبوبة إلى الوصيف الكبير امتنعت من الغناء . وحين ألح عليها سيدها الجديد أن تطربه غنت بما يلى :

أى عيــش يلذ لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا ضنى وسقام فقــد برا
غـــير محبوبة التى لو ترى الموت يشترى [2]

(١) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ ٢ ص ١٣٦ ، جـ ٤ ص ١٩ ، جـ ٥ ص ٢٨ .

(٢) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٦٤

الفصل الأول

الرقيق

الرقيق نظام اجتماعي قديم جداً خفف الإسلام من قسوته ومهد لإلغائه، وقد اعترفت الدولة الإسلامية بهذا النظام شأنها شأن غيرها من الدول المعاصرة لها أو السابقة عليها . وزادت العناية في هـــذه الدولة بتنظيمه والإشراف عليه . وصار للرقيق فيها دور مهم سواء في الدولة أو في المجتمع. وكان من حسن معاملة الرقيق فيها أن تهيأت الفرصة لطبقة الرقيق أن تكون لها السلطة العليا في الدولة في كثير من الأحيان .

وأخذ دور الأرقاء يعظم منذ عهد المعتصم حين استكثر من شراء الغلمان من الأتراك وأدخلهم في خدمته كحرس خاص له ثم استفحل أمرهم : فصاروا يكونون الجزء الأكبر من الجيش ، وأخذوا يستبدون بإدارة الدولة حتى استولوا على السلطة دون الخلفاء(١) .

وبلغ نفوذ المماليك شأواً في الدول الإسلامية حين استولى السلاجقة على السلطة وصار مماليكهم من الأتراك عماد جيوشهم وحكومتهم . وبالرغم من الأصل الرق للمملوك فقد كان ذا مركز ممتاز ولم يكن ينقصه عن الأحرار شيء في الحياة العامة إن لم يكن مميزاً عنهم .

وكثيراً ما كان المملوك يحصل على حريته ، إما بأن يمنحها أو يشتريها أو يغتصبها على أن العتيق الذى حرر لم يكن يمتاز عن المملوك بشيء في الحقوق الاجتماعية أو الحياة العامة .

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٦٨

ومن بين هؤلاء المماليك أو العتقاء ارتفعت طبقة الأمراء الذين أسند إليهم قيادة الجيش والإشراف على أهم المناصب الإدارية ، ووزعت عليهم الإقطاعات لتسديد نفقاتهم .

ومن بين الأمراء ظهرت الأتابكة[١] الذين انتهى بهم الأمر إلى حكم ولايات الدولة السلجوقية لحسابهم وحساب أسرهم من بعدهم .

واستمر المماليك يزداد نفوذهم شيئاً فشيئاً فى العالم الإسلامى حتى استطاعوا أن يصلوا بأنظمتهم إلى غايتها حين حكموا مصر ، وبعثوا الخلافة العباسية فيها من جديد لخدمة مطامعهم السياسية ولإقرار سلطانهم ، ولإكسابه الصبغة الشرعية ، ومن ثم ادعوا أحقيتهم فى السيادة على العالم الإسلامى بأجمعه .

هذا وقد وجد نوع من الرقيق عرفوا أحياناً باسم الطواشية[٢] ، وهم الخصيان من الغلمان ونظراً إلى أن الإسلام قد حرم هذا الإجراء فإن تجار الرقيق كانوا يجلبون بعض الرقيق إلى العالم الإسلامى بعد إخصائهم .

وكان الطواشية يقومون بدور مهم فى البيت الإسلامى : إذ كان يسند إليهم خدمة الحريم وحراستهم ، ومن ثم كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة عند رب البيت وحريمه ، كما كانوا يطلعون على أسرارهم جميعاً . وكان كبير الطواشية يلقب بالأستاذ : ومن أمثلة هؤلاء كافور الذى صار يلقب بالأستاذ حين عظم أمره فى زمن أنوجور فى الدولة الأخشيدية فى مصر . ومما تجدر

---

(١) ابن بطوطة : جـ ٢ ص ٢٥٨

(٢) دكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٣٨٢

الإشارة إليه أن كافور ظل محتفظاً بلقب الأستاذ حتى بعد أن أتاه التقليد بالولاية من الخليفة المطيع فى المحرم سنة ٣٥٥ هـ[١] .

ومن لقب الأستاذ تفرع لقب أستاذ الدار الذى حور إلى استادار وهو المشرف على دار الخليفة والعامل على مراعاة الآداب فيها ، وربما أسند إليه الحجابة أو بعض الأعمال الكتابية . كما عرف أيضاً لقب أستاذ الأستاذين أى كبيرهم ، وقد أطلق على خبن فى عهد الحاكم فى الدولة الفاطمية فى مصر .

أما الإماء أو الجوارى وهن أناث الرقيق فلم يكن دورهن فى المجتمع العباسى يقل عن دور الذكور ، بل ربما زاد كثيراً .

وأصل الجوارى هو ما يسبيه الفاتحون فى الحرب من النساء والبنات إذ يصرن ملك الفاتحين مهما علا شأنهن : يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يبيعونهن أو يهدونهن أو يعتقونهن .

وقد لعب الجوارى دوراً مهما فى التاريخ والمجتمع العباسى : إذ صار بعضهن أمهات الخلفاء والسلاطين والأعيان ، كما نال بعضهن حظوة كبيرة عند أسيادهن ، ومنهن من صارت من السلاطين مثل شجر الدر .

وحظى بعض الجوارى باعزاز أسيادهن كما يشهد بذلك وجود شواهد قبور خاصة ببعض الإماء .

كما أن بعض الجوارى حصرن على جانب كبير من الثراء بحيث استطعن أن يشيدن عمائر يوقفنها على أعمال الخير[٢] .

(١) دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٦٧ — ١٠١

(٢) Van Berchem, Inschr. aus Syrien, ZDPV, XIX, p. 105, pl. V ; Wiet, stèles Funéraires, I, pl, XVI.

ونظراً إلى أن الجوارى كن أكثر تحرراً من حيث اللبس والاختلاط والتبرج فقد تهيأت لهن فرص المشاركة فى الحياة الاجتماعية أكثر من غيرهن من الحرائر ، ونال كثير من الجوارى حظا وافراً من العلم ، وبرعن فى الفنون والآداب والصناعات .. وكان التجار يحرصون على تزويدهن بكثير من الخبرات رغبة فى زيادة قيمتهن ، ومن ثم كان للجوارى أثر [illegible] فى التقدم الاجتماعى والفنى والثقافى والصناعى .

كما يجب ألا يغفل أثرهن فى مزج الأجناس والتقريب بين الثقافات وتعليم اللغات الأجنبية : وذلك لأنهن كن من أجناس وقوميات مختلفة .

وكان الجوارى أحيانا عرضة لغيرة الزوجات الحرائر ، ولأمر ما كان الزوج أحياناً يوافق فى عقد الزواج على أن يكون أمر جواريه بيد زوجته ، إن شاءت باعتهن وإن شاءت أعتقتهن : ومن أمثلة ذلك ما جاء فى عقد زواج مؤرخ بالعشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٢٧٩ هـ على ورقة بردى من أشمون بمصر محفوظة بدار الكتب المصرية ومما جاء فيه :

« هذا ما أصدق يعقوب بن إسحق بن يحيى النساج الساكن مدينة أشمون هنيدة ابنة إسحق بن سرى .. وشرط لإسحق بن سرى شروطا أوجبها على نفسه بعد أن عقد عقدة نكاحها ... كل جارية يتخذها عليها ... يكون بيعها بيد امرأته هنيدة إن شاءت عتقت وإن شاءت بيعت فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له »(١) .

وكان النساء يتخذن أيضاً جوارى لهن ، وكانت السيدة الحرة حرة التصرف فى جاريتها إن شاءت أعتقتها أو أهدتها أو باعتها .

---

(١) جروهمان : أوراق البردى العربية ص ٨٨ - ٩٢ ، رقم ٤١ ، لوحة ٣

وكان للجوارى أحياناً دور فى المؤامرات السياسية : فمثلا كن يستخدمن فى أعمال التجسس أو التفريق والإيقاع بين الخصوم أو التخلص منهم : إذ قد تدرب جارية تمتاز بالذكاء والجمال وتهدى إلى وال قد تستطيع بجمالها ودهائها أن تنال حظوة لديه ، وبذلك يسهل عليها أن تعرف أسراره وتنقلها إلى سيدها الأول .

وقد يطلب منها أن تعمل الحيلة لتقريب شقة الخلاف بينهما ، أو تكلف بأن توقع بين مولاها الجديد وبين عدو آخر لسيدها الأول . ومن هنا كان الجادون من الولاة ينصرفون عن الجوارى .

وعرف فى بعض عصور الدولة العباسية من الجوارى نوع سمى بالجوارى الغلاميات : وهن اللائى كن يلبسن ملابس الغلمان ، ويقال أن زبيدة هى أول من اتخذت الجوارى الغلاميات وأنها اتخذتهن لابنها الأمين[1] .

وقد تتزوج الأمة من حر أو عبد ، غير أن الأولاد الذين تنجبهم كانوا يصبحون عبيداً لسيدها . وكان من حق الزوج العبد أن يطلق زوجته الأمة ، ويصبح طلاقها بلا رجعة بعد الطلقة الثانية . وكانت عدة الأمة سواء كانت أرملة أم مطلقة هى نصف عدة الحرة ، وإذا أنجبت الأمة من سيدها صارت أم ولد . وكان إنجاب الأمة من سيدها يمنحها حقوقا معينة فبالرغم من أنها تظل ملكا له يستمتع بها فإنه كان لا يجوز بيعها أو إهداؤها وإذا مات عنها صارت حرة ، كما كان طفلها يعتبر حراً منذ ولادته .

وكان أمهات الولد يحظين فى معظم الأحوال بتقدير وإجلال ، ولا عجب فى ذلك فإنهن قد أنجبن لأسيادهن من جهة ، وأصبحن أمهات أبنائهم من

---

(١) المقريزى : سلوك جـ ١ ص ١٦ حاشية .

جهة أخرى . ويتضح هذا الإعزاز كثرة الشواهد الجنائزية التى وصلتنا باسماء أمهات الولد .

وتمتع بعض أمهـــات الولد بألقاب الحرائر من زوجات الخلفاء والسلاطين وذلك بفضل إنجابهن أولاداً أحراراً ، وقد وصلنا كتابة أثرية بوقفية من مكة من حوالى سنة ٥١٢ ه وردت فيها الإشارة إلى « الجهة الكريمة رزين ابنة عبد الله أم ولد الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه »(١) .

(١) Répertoire Chronologicque d'épigraphie Arabe, VIII, p. 120 — 121 no. 2977

الفصل الثانى

الأعياد والحفلات والمواكب

حفلت الدولة الإسلامية بكثير من الرسوم والمظاهر الاجتماعية ، وكان من ضمن العناية بالمظاهر فيها الاهتمام بالأعياد والحفلات والمواكب وتنظيمها حسب قواعد معينة وأنظمة محددة يتقيد بها الموكب أو الاحتفال ، وأطلق على هذه الأنظمة التى يجب مراعاتها فى احتفالات الدولة اسم الرسوم وقد ألف هلال الصابى كتابا فيها عنوانه رسوم دار الخلافة[1]. وقد تميزت رسوم الدولة العباسية بالبذخ والترف فضلا عن التكلف والمبالغة فى الإتقان والتنظيم .

ويمكن تقسيم الرسوم إلى الأنواع الرئيسية الآتية :

أولا : الأعياد والاحتفالات الدينية :

وقد رضخ الاهتمام منذ الدولة الإسلامية باحتفالات وأعياد ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة الخلافة العباسية التى كانت بصفة خاصة ذات طابع دينى . وقد تعددت أنواع الأعياد الدينية وكان أهمها مايلى :

١ — أعياد إسلامية .

٢ — أعياد دينية مذهبية .

٣ — أعياد تتعلق بديانات غير إسلامية .

٤ — أعياد تقليدية تتصل بعبادات الشعوب القديمة التى خضعت للدولة الإسلامية .

(١) نشره ميخائيل عواد فى سنة ١٩٦٤ .

١ - الأعياد الإسلامية :

وكان أهمها عيدين ينبعثان من التعاليم الإسلامية نفسها : وهما عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى ويرجع الاحتفال بهذين العيدين إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإلى تعاليم الإسلام ، وكان الاحتفال بالعيد يبدأ بصلاة العيد حيث يجتمع المسلمون فى المدينة فى مكان واحد فسيح وكان الخليفة يؤمهم ويلقى عليهم خطبة العيد ، وبعد الصلاة ينصرف المسلمون إلى منازلهم حيث يتقربون إلى الله بالأضاحى فى العيد الكبير . أما فى عيد الفطر فكانوا يتصدقون بزكاة الفطر قبل صلاة العيد .

وكان الاحتفال بالأعياد فى الثغور[1] الإسلامية يتسم بروعة بالغة فى هذه الثغور كان يجتمع المجاهدون الذين كانوا يرابطون فيها لجهاد أعداء الدين وكان المسلمون يرسلون إليهم الهدايا فى مناسبة الأعياد تكريما لهم وتقربا إلى الله .

وكان من مظاهر الأعياد لبس الجديد والتصدق على الفقراء والتزاور . وكان المسلمون ينتهزون فرصة العيد ليروحوا عن أنفسهم بالتسلية واللهو والإقبال على أنواع خاصة من الأطعمة .

ومن الأعياد الإسلامية التى احتفل بها فى الدولة العباسية الاحتفال بأوقات معينة مفضلة عن غيرها مثل أول رمضان وأول العام الهجرى والمولد النبوى الشريف وليلة النصف من شعبان وليلة الإسراء وليلة القدر ... ومن

---

(١) هى البلاد التى على الحدود بين الدولة الإسلامية وما جاورها من الدول أخذا من الثغر وهو الصن لأنه كالباب على الحلق .

دكتور حسن الباشا . الألقاب الإسلامية ص ٤٤٩ .

الملاحظ أن هذه الأعياد لايستند الاحتفال بها إلى أساس من القرآن أو السنة ، وربما أضيف إليها أيضا الاحتفال بذكرى مولد الخليفة القائم .

٢ — الأعياد الدينية المذهبية : ومن أمثلتها احتفال الشيعة بيوم عاشوراء وبيوم غدير خم (١٨ ذى الحجة) .

٣ — أعياد الطوائف غير الإسلامية : ومن أمثلتها أعياد النصارى واليهود ، وكانت الدولة تسمح لهم بالاحتفال بها .

٤ — الأعياد التقليدية : وكانت هذه الأعياد ترجع إلى التقاليد الفارسية إذ أدخل فى المجتمع الإسلامى الاحتفال ببعض الأعياد الفارسية القديمة : ومن أهمها النوروز وهو عيد العام الجديد ويقع فى أول الربيع ودخول الشمس فى برج الحمل : وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد فتحها ، ولكنه أعيد فى العصر العباسى ، وكان من عادة الفرس فى هذا العيد تبادل الهدايا وبخاصة أنواعا من الأطعمة مثل السكر والحلوى .

وتجدد فى العصر العباسى أيضاً الاحتفال بعيد فارسى ثان هو المهرجان وكان يسمى عند الفرس « روزمهر » ، وكان موعده نهاية العام كما احتفلوا بعيد آخر اسمه « الرام » . وقد اعتبرت هــذه الأعياد فى العصر العباسى أعيادا رسمية .

ثانيا : المواكب :

اهتمت الدولة منذ العباسيين اهتماما خاصا بالمواكب وذلك جريا على عادتهم من حيث الاهتمام بالرسوم والمظاهر ، وأهم مواكبهم المواكب التى كان يشترك فيها الخليفة . وقد جرت العادة أن يأخذ موكب الخليفة مظهرا

حربيا . وكان من التقاليد المتبعة فى هذه المواكب ظهور الخليفة بشارات خاصة أو علامات خاصة هى البردة والخاتم والقضيب[1] . هذا وقد كان الخلفاء يخرجون فى مناسبات مختلفة منها .

(أ) مواكب الجمع : وكان الخليفة يخرج لصلاة الجمعة فى موكب فخم إذ كان الحرس من مختلف الطبقات يسيرون فى المقدمة وهم يحملون الأعلام ويأتى بعدهم أمراء بيت الخلافة على ظهور الخيل المزدانة ، ثم الخليفة وهو يمتطى جواداً أبيض وحوله كبار رجال الدولة . وجرت العادة أن يلبس الخليفة العباسى فى هذا الموكب قباء أسود ، ويضع على رأسه قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية ، وبيده قضيب الخلافة وبأصبعه خاتم ، ويتدلى على على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة ، وكان الهادى هو أول من أدخل هذا النظام . وكان من الرسوم المتبعة أن يضرب على باب قصر الخلافة فى بغداد بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلاة .

(ب) مواكب الحج : جرت العادة أن يخرج الحجيج كل عام فى موكب على رأسه الخليفة أو من ينوب عنه ، ومن الملاحظ أنه لم يخرج خلفاء للحج بعد هارون الرشيد . وكان يخرج من كل قطر موكب يضم الحجاج من ذلك القطر . وكان أعظم هذه المواكب موكب بغداد حيث كان يجتمع كثير من المسلمين الراغبين فى الحج القادمين من الأقطار الشرقية : العراق وفارس وخراسان . وكانوا يحملون معهم زادهم وتخرج معهم مجموعة من الجند لحراستهم . وكان يتقدم موكب الحج هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم فى أحدها أمير الحج .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠ و ٢٤٢ و ٢٦١ .

وقد عرفت وظيفة أمير الحج منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم : إذ كان ينيب عنه أحياناً عند الضرورة أحد الصحابة في رئاسة المسلمين الذاهبين إلى الحج (١) ، وسار الخلفاء والولاة على هذه السنة : فكانوا يعينون نواباً عنهم يرأسون الحجيج الخارج من أقطارهم إلى بيت الله الحرام ، وعرف هؤلاء في الدولة الاسلامية باسم أمراء الحاج .

وذكر الماوردي(٢) أن أمير الحاج ينظر في أشياء أهمها توجيه من برفقته من الحجاج في الطريق السليم ، والمحافظة عليهم حتى لا يضل بعضهم الطريق أو يعجز عن اللحاق برفقائه وأن يهيء لهم وسائل العيش من ماء ومرعى وأن يحرسهم ويصد عنهم من يتعرض لهم بأذى ، وأن يصلح بين المتنازعين منهم بالمعروف ، وأن يؤدب المخطيء بما لا يتجاوز التعزير إلى الحد ، وأن يحرص على أن يصلوا إلى غايتهم في الوقت المناسب لأداء شعائر الحج ، ثم يعود بهم سالمين إلى موطنهم .

هذا وكان موكب الحج تزداد روعته وأبهته إذا خرج الخليفة على رأسه وكان الخليفة يركب أحياناً فيلا أبيض مزيناً ، وهو يجلس في هودج محلى بالأصداف اللامعة وفي يده قضيب الخلافة ، وفي الأخرى الخاتم وعليه جبة موشاة ، وفوقها بردة خضراء تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم (٣) .

(ج) مواكب الاستقبال : وفي هذه المناسبات كان الخليفة يخرج في موكب لاستقبال بعض الملوك أو السفراء ، وكانت هذه المواكب تبلغ

---

(١) ديمومبين : نظم ص ١٤٦ . ورد الاسم في الكتابات الأثرية بصيغة أمير الحاج أو أمير حاج .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٠٣ — ١٠٥ .

(٣) المدور : حضارة الإسلام في دار السلام ص ٥٤ — ٥٥ .

درجة من العظمة تفوق الخيال . ومن أمثلة هذه المواكب استقبال الخليفة المقتدر سنة ٣٠٤هـ / ٩١٧م فى بلاطه رسل الامبراطور قسطنطين السابع : إذ مشى فى موكب الخليفة ١٦٠ ألف فارس وراجل وسبعة آلاف خادم وسبعمائة صاحب ، وسار رسل الامبراطور بين صفين من السباع عددها ١٠٠ سبع يقودها سباعوها .

ثالثا : مجالس الخلفاء :

كان للخليفة العباسى مجلسان : مجلس خاص ومجلس رسمى وفى الجلوس الرسمى كان يجلس على سرير الخلافة فى نهاية إيوان رحب أثث بأثمن الرياش وحلى بأجمل الزينات وكان يحجب الخليفة عن الحاضرين ستر كان أحياناً يرفعه فيبدو الخليفة أمام الحضور بهيئة تبعث على الاحترام والخضوع .

وكان هذا المجلس الرسمى ينظمه كثير من المراسم والتقاليد التى تؤكد من رفعة الخلافة وجلالها مثل مراسم الدخول على الخليفة والتحية والكلام والجلوس والانصراف .

أما فى المجالس الخاصة فكان الخليفة يبدو أكثر قرباً وألفة بجلسائه الذين كانوا يختلفون من حيث الوظيفة ومدى الصلة . فكان منهم رجال الدولة من وزراء وكتاب وقادة وأعيان . وكثيراً ما كان يقرب الخليفة إليه العلماء والأدباء والشعراء والندماء ، كما كان يستمع إلى المغنين والموسيقيين والقصاص وجرت العادة أن يجزل الخليفة العطاء للمجيدين منهم والمقربين إليه .

ولم تكن المجالس مقصورة على القاعات والأواوين بل أحياناً ما كانت تعقد المجالس فى السفن حيث كان يستمتع الخلفاء المقربون إليهم بالمنادمة واللهو فى نهر دجلة ولقد روى أنه كان للخليفة الأمين عدة حراقات أو سفن فى دجلة مشكلة على هيئة حيوانات وطيور مثل الأسد والفيل والفرس والعقاب والحية بلغت تكاليفها مبلغا طائلا من المال .

وقلد الأعيان من الشعب خلفاءهم فى الأخذ بأسباب المتعة واللهو : فكان للوزراء والقواد ورجال الدولة مجالس للترفيه والتسلية واللهو عمرت بمظاهر الأبهة والثراء :

رابعاً : حفلات الزواج : وكانت هذه الحفلات من المناسبات التى تعرض فيها مظاهر البذخ والترف والغنى ، وقد سجل لنا التاريخ وصف بعض هذه المناسبات مثل زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل وزواج الخليفة المعتضد من قطر الندا بنت خارويه حيث كان وصف ما اشتملت عليه هذه الاحتفالات يفوق الخيال ، فمثلا مما جاء فى وصف بعض مظاهر الاحتفال الذى أقيم بمناسبة زواج المأمون من بوران فى سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م أن وقف العريس وعروسه على حصير منسوج من خيط الذهب ومرصع بالدر والياقوت ثم نثر عليهما ألف لؤلؤة من صينية ذهبية(١).

خامسا : الولائم :

وإلى جانب هذه الاحتفالات زادت العناية فى العصر الإسلامى بالولائم التى كانت تقام فى كثير من المناسبات وجرت العادة أن يمد السماط حيث توضع عليه شتى أنواع الأطعمة ، وقد أخذ العباسيون عن الأمويين عادة مد السماط ، ويقال إن معاوية بن أبى سفيان كان أول من مد السماط .

وكانت الولائم تقام عادة فى الأعياد وفى ليالى رمضان بالإضافة إلى المناسبات الأخرى وقد أطلق عليها أسماء تختلف بحسب مناسباتها فقيل الوليمة لطعام العرس ، والأعذار لطعام الختان ، والخرس لطعام الولادة ، والوكيرة لطعام الاحتفاء ببناء الدور ، والمأدبة للدعوات .

---

(١) دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .

وكانوا يتفننون فى أصناف الطعام التى تقدم فى هذه المناسبات كما ألفت الكتب الخاصة بالمطابخ ، ويقال إن المعتصم أمر بإقامة مباراة فى الطبخ ، كما أن المتوكل كافأ من أجاد طبخ قدر أعجبه بأن منحه قدرا مملوءة بالدراهم ، وينسب إلى الخليفة نفسه نوع من الحساء أطلق عليه اسم المتوكليه ، ويقال إن إبراهيم ابن المهدى أولم لأخيه هارون الرشيد وليمة كان ضمن ما قدم فيها صحن من ألسنة الأسماك الرقيقة ، ورغم ما فى هذا الخبر من مبالغة واضحة فإنه يدل على مدى البذخ فى الولائم . حتى صار يحاك حوله الأساطير .

الباب الرابع

التراث المادى

لم يقتصر التقدم على الجانب الفكرى والثقافى فحسب بل امتد بطبيعة الحال إلى الجانب المادى : ذلك أن الازدهار الثقافى لابد وأن يؤثر على الجوانب الاجتماعية الأخرى ، وقد ظهر هذا التأثير فى المجتمع الإسلامى : إذ نلحظ تقدماً ملموساً فى مظاهر الحضارة المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة ومواصلات .

الفصل الأول
الزراعة

حظيت الزراعة بكثير من العناية ، ومن المعروف أن الزراعة تزدهر في ظل الحكومات القوية ذلك أن مثل هذه الحكومات تستطيع أن تعمل على توفير ما يلزم الزراعة من متطلبات على نطاق واسع مثـــل إصلاح الأراضي وتوفير مياه الري وتيسير نقل المحاصيل .

ولقد عملت الدولة الإسلامية على إصلاح الأراضي التي كانت قد أهملت في أواخر العصر الأموي من أراض زراعية وبساتين فاكهة وحدائق أزهار فاتجهت العناية إلى إعادة حفر القنوات والترع القديمة التي كانت قد ردمت مثل نهر عيسى الذي كان يربط بين الفرات عند الإنبار في الشمال الغربي وبين نهر دجلة عند بغداد ، ومن الملاحظ أن الدولة العباسية لم تحفر كثيرا من القنوات الجديدة وإن ما قامت به كان مجرد إعادة حفر أو تعمير لقنوات قديمة كان قد أهمل أمرها(١).

وكانت الخلافة الإسلامية تسيطر على عدد من الأقطار الخصبة الغنية بمحاصيلها الزراعية مثل مصر والعراق وخراسان ، وكانت الدولة حريصة على نقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين ولايات الدولة وعلى توفير ما يلزم لحفظها وصيانتها من التلف أثناء النقل : فكان البطيخ مثلا ينقل من خوارزم إلى بغداد داخل صناديق من الرصاص بها المقادير اللازمة من الثلج .

وزادت العناية بزراعة الزهور لاستخراج العطور ، وازدهرت صناعة العطور بصفة خاصة في دمشق وشيراز وفيروزاباد ، وكانت العطور تصدر

---

(١) دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٠٤ .

من فارس إلى الصين ، وكان خراج فارس إلى الخلافة يشمل ضمن ما يشمل ٣٠ ألف قارورة عطر مستخرج من الورد الأحمر .

واسترعى النبات أنظار العلماء كمصدر الأدوية والعقاقير . وتتضح أهمية النبات من الكتب الكثيرة التى ألفت أو ترجمت عن اليونانية ، وقد أورد ابن النديم فى الفهرست قائمة ببعضها ، ومن أشهر هذه الكتاب كتاب الحشائش والنباتات أو خواص العقاقير لديسقوريدس (١) . وقد اشتهر هذا الكتاب فى مجال التصوير الإسلامى : إذ عثر على بعض نسخ منه مزوقة بالتصاوير (٢) .

هذا وقد كانت الأراضى الزراعية فى أقطار الدولة فى يد أصحابها من أهالى البلاد الأصليين ، وكانت الدولة تفرض على هذه الأراضى خراجا محددا أو ضريبة تقوم بجمعها عن طريق جباتها وحين كانت السلطة المركزية المتمثلة فى الخلافة تسيطر سيطرة تامة على سائر ولايات الدولة حتى العصر العباسى الأول كان الفائض من الخراج يبعث به الولاة إلى عاصمة الخلافة حيث يصرف منه على شئون الإدارة والجيش ومختلف منافع الدولة ومن هنا عمر بيت المال مما هيأ للدولة فرص التقدم والازدهار .

ولكن حين ضعفت الخلافة ، وأخذت الدولة العباسية فى التمزق وانقسمت إلى ولايات شبه مستقلة حاول الولاة أن يستأثروا بأكبر قدر ممكن من دخل ولاياتهم مما أدى إلى فقر بيت مال الخلافة وعجزه عن أن يقوم بتغطية أوجه الصرف المختلفة : ففقدت الدولة استقرارها المالى ، وتعرضت لأزمات مالية ، وتكرر حدوث العجز عن الدفع الفورى اللازم لمتطلبات

---

(١) Materia Medica

(٢) دكتور حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ص ٩٧ و ١٣٢ .

الدولة ، وكان أخطر ما تعرضت له السلطة المركزية هو العجز عن توفير أرزاق الجند مما سبب قيام كثير من الفتن والثورات .

وفى سبيل التخلص من ذلك لجأ بنو بويه بعد استيلائهم على بغداد إلى نظام الإقطاع ، إذ أخذ معز الدولة يقطع القرى لقواده كأرزاق عوضاً عن المرتبات النقدية . كما لجأ أيضاً إلى الاكثار من المكوس والمصادرات .

واستقر نظام الإقطاع فى عصر السلاجقة حين وزعت الأراضى كاقطاعات على الجند على أن يأخذوا ما تغله كأجر وأن يؤدوا مقابل ذلك جزءاً من الإيراد كضريبة للدولة وأن يقوموا هم أنفسهم بجمع الضرائب من الزراع .

ومن المحتمل أن نظام الإقطاع كان له أثره فى تحطيم الوحدة السياسية وتقسيم الدولة العباسية إلى دويلات : إذ كان الإقطاع يكبر بحسب نفوذ صاحبه ، وباتساع الاقطاعات ازداد نفوذ أصحابها وتجمعت فى يد كل منهم سلطات كثيرة وقد ساعدهم ذلك على الاستقلال عن السلطة المركزية .

وبالرغم من أن أهمية الزراعة والاعتماد عليها فى تمويل الدولة عن طريق خراج الأراضى فان التطور الاجتماعى فى الدولة الإسلامية أدى إلى الحط من مركز الزراع لحساب التجار إذ ازدادت العناية بتأسيس المدن ، وتشجيع التجارة والإشادة بها كما يتضح من كتابات الجاحظ وأحاديثه عن التجار ومن قصص ألف ليلة وليلة . وكان من جراء ذلك أن ظهر الاهتمام بتجميع الأموال ، وتكوين رؤوس أموال ضخمة وازدهار أعمال الصيرفة[1] وتبادل العملة ، واستثمار الأموال فى الزراعة والتجارة على نطاق واسع .

ونتيجة لهذه الرأسمالية استعيض عن الجندى العربى بغلمان يشترون أو جند يؤجرون من أجناس مختلفة كالأتراك والديلم ، وظهرت طبقة حاكمة من أجناس مختلفة تتألف من القواد وملاك الأراضى والتجار .

---

(١) عرفت المكتبة العربية كتبا كثيرة عن الصيرفة منها كتاب المختار فى كشف الأسرار للجوبرى وكتاب الباهر فى الحيل والشعبذة لأحمد بن عبد الملك الاندلسى ومعيد النعم ومبيد النقم للسبكى .

الفصل الثانى

التجارة والمواصلات

انتعشت التجارة فى الدولة الإسلامية إذ بعثت التجارة العالمية من جديد بعد أن توقفت فترة قصيرة ، كما حدث ازدياد مضطرد فى التجارة فى الدولة العباسية سواء فى التجارة الخارجية أو الداخلية .

التجارة الخارجية:

وفى مجال التجارة الخارجية كان للعالم الإسلامى علاقات تجارية مع غرب أوروبا وشمالها ومع الشرق الأقصى ومع القارة الافريقية .

مع غرب أوروبا : كانت العلاقات التجارية مع غرب أوروبا تقوم بصفة أساسية على تصدير الرقيق إلى العالم الإسلامى وكان الرقيق يجلب إلى الموانىء الفرنسية ثم يحمل منها إلى العالم الإسلامى ، إما عن طريق أنطاكية ثم بغداد . وإما عن طريق مصر فالفرما فالقلزم فالبحر الأحمر فموانىء الحجاز .

وبهذه المناسبة أورد بيرن بعض النظريات التاريخية التى أوضحها فى عدة مؤلفات منها محاضرات فى جامعة برنستون عن مدن العصور الوسطى ، ومحمد وشارلمان وتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . ويحاول بيرن فى هذه النظريات أن يدحض الرأى الشائع الذى يقول بأن الحضارة الرومانية انتهت على يد غزو البرابرة . ويزعم أن العرب هم الذين قضوا على الحضارة الرومانية وأنه بظهور الدولة العربية الاسلامية انتهى دور البحر الأبيض المتوسط كوسيلة للاتصال وأصبح حاجزاً بين الشرق والغرب .

ويضيف بيرن أيضاً أن ظهور الإسلام ثم الدولة الإسلامية كان السبب الرئيسى لظهور شارلمان ويقول بهذا الصدد « إن محمداً هو الذى صنع شارلمان أى انه لو لم يوجد محمد صلى الله عليه وسلم لما وجد شارلمان .

وقد أثارت آراء بيرن موجة من المعارضة بين مؤرخى العصور الوسطى والأوروبيين ومن الملاحظ أنه يمكن نقض آراء بيرون على الأسس الآتية:

أولا — ظل التبادل التجارى مستمرا بين العالم الاسلامى من جهة والدولة البيزنطية ودول أوروبا من جهة أخرى .

ثانيا — كانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد قضى عليها تماما قبل ظهور الاسلام وذلك باستيلاء البرابرة على روما سنة ٤٧٦ م . أما الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية فلم يقض عليها إلا فى سنة ١٤٥٣ م على يد الأتراك العثمانيين أى بعد ظهور الاسلام بأكثر من ثمانية قرون .

ثالثاً — العرب المسلمون هم الذين حافظوا على التراث اليونانى الرومانى ولولاهم لما بعث من جديد فى عصر النهضة الأوروبية .

مع شمال أوروبا : وجدت العلاقات التجارية فى العصر العباسى مع شمال أوروبا وكانت اسكنديناوة تصدر بصفة خاصة الفراء الذى كان يحمل عبر روسيا إلى العالم الاسلامى . وعثر على نقود عربية فى فلنده والسويد والنرويج التجارى بينها وبين كما عثر على قليل منها فى الجزر البريطانية وايسلنده مما يدل على وجود التبادل العالم الإسلامى .

مع الشرق الأقصى :

حدث تبادل تجارى على نطاق واسع بين العالم الاسلامى والشرق الأقصى الذى حل فيه الوفاق بدلا من العداء الذى كان سائداً فى العصر الأموى . وكانت التجارة مع الشرق الأقصى تتخذ طريقين إما طريق البر أو طريق

البحر . فمن جهة كانت القوافل التجارية تسير عبر الطريق التجارى القديم الذى الذى كان مستخدماً فى عصر الدولة الساسانية . ومن جهة أخرى وجد طريق الخليج العربى وطريق البحر الأحمر ومنهما إلى الهند وجنوب شرق آسيا والصين . وكان العالم الاسلامى يستورد الحرير من الصين والفيلة والتوابل وأخشاب البناء من الهند (١).

مع القارة الافريقية : كانت القارة الافريقية تصدر إلى العالم الاسلامى الذهب والآبنوس والعاج وكانت المتاجر تنقل من زيلع على الشاطىء الافريقى فى مواجهة عدن .

التجارة الداخلية : كانت التجارة الداخلية تعتمد فى انتقالها إما على الطرق البرية أو الطرق المائية من أنهار وقنوات وبحار .

ويزعم بعض المستشرقين أن العرب المسلمين لم يهتموا بتمهيد الطرق البرية نظرا لعدم استخدامهم العربات ذات العجل فى نقل المتاجر ولاعتمادهم بصفة أساسية على الجمال والحمير ومن ثم اكتفت الدولة بالسبل أو الجادات

غير أنه من الملاحظ أن العرب اهتموا بالطرق كوسيلة للمواصلات ونقل المتاجر وسير القوافل فعنوا بتزويدها بالقصور أو منازل الاستراحة وبحفر الآبار ولإجراء العيون وعمل المناهل لامداد المسافرين وأبناء السبيل بالمياه اللازمة ، كما أقاموا الأميال أو العلامات التى تحدد الأطوال على الطريق وقد عثر على أربعة أميال ترجع إلى عهد عبدالملك بن مروان (٢) .

هذا ويجب ألا ننسى أن العناية بالطرق تعتبر فى الاسلام من الواجبات الدينية ومن القربات إلى الله نظراً لاستخدامها فى الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوى الشريف .

---

(١) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age, (Leipzig 1925), Vol. I, p. 72.

(٢) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, I, no .14-17

الفصل الثالث

الفنون والصناعات

نشأة الفنون الإسلامية :

ما أن دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة عقب الهجرة حتى أمر ببناء مسجد يقيم به الصلاة ، فمهدت قطعة من الأرض اشتراها النبي من غلامين يتيمين بالمدينة المنورة ، ثم خطط المسجد وأعدت مواد البناء من حجارة ولبن وجذوع نخيل وغير ذلك ، واشترك النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته فى أعمال البناء حتى تمت إقامة المسجد النبوى الشريف كأول عمل معمارى هام فى الإسلام .

وصار هذا المسجد النبوى النموذج الذى أخذت تبنى على نمطه المساجد فى الإسلام ، وذلك على سبيل الاقتداء بالسنة النبوية الشريفة ، ومن أمثلة ذلك مساجد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والمسجد الأموى فى دمشق(١) .

وفى مبانى المساجد تطورت العناصر المعمارية والزخرفية التى انتقلت إلى سائر أنواع المبانى الإسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك ، مثل الأعمدة والعقود والمداخل والقباب والزخارف الهندسية والنباتية والكتابية وغيرها .

---

(١) دكتور حسن الباشا : عمارة المساجد . الحرم النبوى الشريف .
مجلة منبر الإسلام العدد ٣ ـــ السنة ٢٦ ص ١٧٧ - ١٨٤ .

ومن طريق العناية بأثاث المسجد والرغبة فى تجميله نشأت الفنون التطبيقية الإسلامية ، إذ تطورت فنون المعادن مثلا بفضل عناية المسلمين بأساس المسجد المعدنى من أباريق وثريات وشمعدانات ومساند ، وتطورت كذلك الصناعات الخشبية بمختلف أنواعها فى ضوء الاهتمام بالأثاث الخشبي فى المسجد من منابر وكراسى وأرحال وتطورت فنون الزجاج عن طريق العناية بمصابيح الإضاءة والنوافذ . وارتقت فنون السجاد تبعاً للاهتمام بفرش المساجد بل إن هذا الفن الذى نبغ فيه المسلمون ، وكاد أن يختص بهم وحدهم استمدوا اسمه من لفظة المسجد نفسها .

وبالإضافة إلى المسجد النبوى الشريف كان هناك محور آخر تكونت حوله أنواع أخرى من الفنون الإسلامية ، ونعنى بهذا العامل نسخ المصحف. وقد تم جمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) وتم نسخه وتوزيعه على سائر الأمصار فى عهد عثمان (رضى الله عنه)[١] وكما كان لهذا العمل أهميته فى توحيد رسم القرآن وفى حفظه بفضل الله تعالى الذى تكفل بذلك « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » كان له أثره أيضاً فى نشأة فنون إسلامية احتلت المكانة الأولى بين سائر الفنون ، وهى فنون الكتاب ، من خط ، وتذهيب ، وتزويق ، وتجليد .

حول هذين المحورين : المسجد ، والمصحف ، نشأت الفنون الإسلامية وارتقت حتى بلغت القمة ، وانتشرت بحيث صارت من أوسع فنون العالم انتشاراً ، وطال عمرها حتى أصبحت من أطول فنون العالم عمراً .

---

(١) دكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف . مجلة المجمع العلمى العراقى . المجلد ٢٠ ص ٩ — ١٣ .

وظل هذان الأساسان عامل توحيد فى الفنون الإسلامية برغم اختلاف عصورها وأماكن إنتاجها ، وبرغم كثرة الشعوب الإسلامية التى أسهمت فى تكوينها وتطويرها ، وبرغم التأثيرات الأجنبية التى دخلت عليها .

واستوحى الفن الإسلامى فى نشأته وتشكيله روح الإسلام وتعاليمه ، فمن جهة يلاحظ أن الفن الإسلامى نشأ بدافع الرغبة فى الإجادة والإتقان وهذه الرغبة مستمدة من الإسلام نفسه »(١) . قال (صلى الله عليه وسلم) :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

والحق أن هذا الدافع يفسر لنا الدرجة العظيمة من الإتقان التى بلغتها الفنون الإسلامية ومن المعروف أن المبالغة فى الإتقان تؤدى بطبيعتها إلى التنميق والتزويق والزخرفة ، ومن جهة أخرى تأثر الفن الإسلامى بدافع آخر هو الرغبة فى تجميل الحياة والاستمتاع بها ، وهذه الرغبة أيضاً مستوحاة من العقيدة الإسلامية .

قال الله تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، كما ينسب إليه تعالى أنه زين السماء بالكواكب « وقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين » .

وعلى عكس ما يزعم المستشرقون كان للعرب دور مهم فى تشكيل الفن الإسلامى .

حقاً إننا لا نعرف الكثير عن الحالة الفنية فى بلاد العرب عند ظهور الإسلام ، وإن كان ما وصلنا من التراث الأدبى يدل على أن العرب فى ذلك الوقت كانوا قد بلغوا مستوى رفيعاً جداً فى الذوق والإحساس الفنى بصورة

---

(١) قال الله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

عامة ، بحيث لسنى لهم أن يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم وأن يقروا بإعجازه[1] ، ومع ذلك يمكننا فى ضوء ماوصلنا من شواهد قليلة أن نتعرف على بعض المظاهر الفنية فى بلاد العرب ، ويتضح مما وصلنا من الآثار والتراث الأدبى أنه كان للعرب قبل الإسلام فن معمارى ازدهر نوع منه حتى انتشر خارج الجزيرة ، ونعنى بذلك عمارة الحصون والآطام التى اشتهرت فى بلاد العرب ، ومن أشهر هذه الحصون قصور غمدان وبينون وسلحين التى ورد ذكرها فى كثير من الشعر الجاهلى .

وكانت الحصون التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام متينة البنيان مشيدة بالصخور الضخمة من عدة طبقات ، هذا ومن المعروف أنه كان فى المدينة المنورة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم آطام وشيدت خارج الجزيرة العربية حصون متأثرة فى عمارتها بالحصون العربية ، وانتشرت هذه الحصون حتى وصلت بيزنطة ، ومن المرجح أن القصور التى بناها الأمويون فى صحراء الشام مثل « قصر المشتى » و « الحير الغربى » و « الطوبه »[2] وغيرها قد شيدت على نمط هذه الحصون .

وبالإضافة إلى هذه الدلائل المادية وردت الإشارة إلى البناء والعمائر والتمثيل بها فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف ، فضلا عما جاء فى الأدب الجاهلى ، وكلها تشهد بصلة العرب الوثيقة بهذه الفنون : إذ ورد فى القرآن الكريم ذكر الحصون والبروج والقصور والغرف والجدران ، كما ضرب المثل بالبنيان الذى يشد بعضه بعضاً فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) دكتور حسن الباشا : فنون التصوير الإسلامى فى مصر ص ٢٠ .

(٢) انظر Creswell, (K. A. C.), Early Muslim Architecture, Vol. I.

أما من حيث الفنون التشكيلية أى « النحت والتصوير » فمن المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام أى أنهم ولا شك قد وجد بينهم من اشتغل بصناعة صور وتماثيل كان يتعبد إليها العرب فى الجاهلية ووصلنا أسماء بعضهم مثل أبى تجراة[1] ، كما أشارت الأحاديث النبوية الشريفة إلى طبقة المصورين الذين يصنعون الأصنام ، ونهتهم عن هذا العمل وحذرتهم من صناعة الأصنام من تماثيل وصور « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

ويتضح من هذا كله أن العرب كانت لهم خبرة بالفن التشكيلى بصرف النظر عن الأهداف التى كانوا يرمون إليها .

ومن جهة أخرى لا شك أن العرب كانت لهم خبرة أيضاً بأنواع الفنون التطبيقية ولا سيما الفنون الوثيقة الصلة بمعيشتهم مثل صناعة الأسلحة والحلى والنسيج ودباغة الجلود وما أشبه ذلك ، ولقد وصلتنا أحاديث نبوية شريفة تشير إلى اتخاذ العرب لبعض التحف الفنية مثل المنسوجات المزخرفة بالصور والسيوف والرماح والحلى ، كما ورد ذكر الخاتم والكير والسيف فى أحاديث نبوية شريفة .

نخرج من هذا كله بأن العرب كانت لهم تقاليد فنية عند ظهور الإسلام ، ولذلك لم يكونوا عالة على الحضارات الأخرى فى المجال الفنى ، وحينما دخل العرب المسلمون الأقطار الخاضعة للفرس الساسانيين وللروم البيزنطيين ، والتى شملت ما بين المحيط الأطلسى غرباً وحدود الهند شرقاً ، سارع أهلها إلى الانضواء تحت راية الإسلام والعمل فى ظله ، وساعد تفوق العرب السياسى والحربى والخلقى فى ذلك الوقت على سيادة الطابع العربى الإسلامى

(١) الأزرقى : أخبار مكة ص ٧٢ .

فى هذه الأقطار وكان العرب المسلمون على قسط وافر من سعة الأفق السياسى والحضارى ، بحيث حافظوا على التقاليد الفنية والصناعية النافعة فى البلاد التى فتحوها ، بل عملوا على تقدمها وتطورها فى الطريق السليم ، واستطاعت الدولة الإسلامية الناشئة بفضل الروح الإسلامية الجديدة والخبرات الفنية والصناعية المتنوعة التى يتمتع بها شعوبها من عرب وفرس وروم وقبط وغيرهم ، أن تبتكر فناً جديداً يمتاز بامتزاج التقاليد الصناعية المختلفة وسيادة الطابع العربى الإسلامى .

ميزاتها :

وإذا كانت الفنون تختلف فيما بينها من حيث موقفها من تقليد الطبيعة والقرب من الواقع والميل نحو الزخرفة والمثالية فإنه يمكن القول بأن الفن الإسلامى كان بطبيعته فناً زخرفياً بالدرجة الأولى(١) .

ويتجلى الطابع الزخرفى فى الفن الإسلامى بشكل واضح فى استخدام الفنانين المسلمين فى تزويق منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف ، من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية ، ومن زخارف هندسية ونباتية بالإضافة إلى الزخارف الكتابية ، ومن الملاحظ أنه فى مجال استخدام الكائنات الحية كان الفنان الاسلامى ينحو نحواً زخرفياً بعيداً عن محاكاة الطبيعة ، كما أنه استخدم رسم الكائنات الخرافية ، وساعده خياله الخصب والأدب العربى على ابتكار أشكال كثيرة .

ومن حيث استخدام الزخارف النباتية ، يلاحظ أن الفنانين المسلمين استخدموا عناصر زخرفية كثيرة مستمدة من عالم النبات من أشجار وأوراق وغصون وأزهار وثمار وغير ذلك كما طوروا انواعا من هــــذه الزخارف

(١) دكتور حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ص ٢٠ .

النبـاتية أطلق عليه الأوروبيون اسم « أرابسك » Arabesque[١] نسبة للعرب ويسمونها أحيانا « نصف مروحة نخيلية » ، وكانت هذه الزخرفة النباتية من الزخارف الإسلامية الأصيلة التى انفرد بها الفن الإسلامى ، وتتألف هذه الزخرفة من عناصر زخرفية مكونة من أفرع نباتية محورة وأوراق نباتية ذات فصين تتداخل أو تتشابك معاً بطريقة منسقة جميلة .

وبلغ الفن الإسلامى فى الزخارف الهندسية مرتبة لا يدانيه فيها أى فن آخر وطور المسلمون الزخارف الإسلامية على أسس مدروسة[٢] وابتكروا أنواعا من هذه الزخارف لم تعرفها الفنون الأخرى ، ومن أمثلة تلك الزخارف ، ما اصطلح على تسميته « بالأطباق النجمية » ويتألف الطبق النجمى من عناصر هى الترس واللوزة والكندة .

طرزها :

الفنون الإسلامية شأنها شأن غيرها من الفنون تعمل فى طبيعتها بذور التجديد والاختلاف ومن ثم انقسمت إلى عدة طرز متميزة ، ولكن هذه الطرز ظلت يوحد بينها طابع العروبة والاسلام الذى جعل عناصر الوحدة فيها أقوى من عوامل الاختلاف .

حتى الآن لم نعثر على آثار فنية مؤكدة من عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين، ولم يصلنا من ذلك العصر غير نماذج قليلة تتمثل فى الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة ، وفى جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، ولو أن جميع هذه الآثار جرى عليها كثير

---

(١) انظر هذه المادة فى Encyclopaedia of Islam

(٢) انظر : Bourgoin (g.), Les Arts arabes

من التغيير والتبديل أفقدها معالمها الاصلية وذلك فضلا عن الآثار النبوية الشريفة التي يحتفظ بها في بعض الاماكن مثل مسجد الحسين بالقاهرة(١) .

غير أن المنتوجات الفنية التي وصلتنا من عهد الامويين من سنة ٤١ — ١٣٢هـ/٦٦١ — ٧٥٠م تدل على أن الفن الإسلامي اتخذ في ذلك العصر طابعا خاصاً متميزاً وأن الإسلام أنتج فناً يضاهي في قيمته وعظمته انتصاراته السياسية والحربية والإدارية ، ويتضح من الآثار والتحف الاسلامية التي وصلتنا من هذا العصر أن الفن الاسلامي نشأ في كل إقليم من أقاليم الدولة الاسلامية على أساس الفنون السابقة بها .

ففي ايران نشأ على أساس الفن الساساني ، وفي الشام على الفن البيزنطي والفن الهيلنستي وفي مصر الفن القبطي والفن البيزنطي والفن الهيلنتي والفن الفرعوني ، كما استمد في الوقت نفسه من التقاليد الفنية في الأقاليم الأخرى الخاضعة للإسلام والتي أتاح لها الحكم الواحد فرصة الامتزاج ، وفي الوقت نفسه كان متمشياً أيضاً مع تعاليم الدين الجـــديد وروحه وشعائره والطابع العربي .

واصطلح على تسمية هذا الفن الإسلامي الجديد باسم الطراز الأموي(٢)، ويعتبر هذا الطراز (الأموي) طابعاً دولياً ، إذ انتشر في الأقطار الكثيرة التي كانت خاضعة للخليفة الأموي وساعد على انتشاره اصطناع ذوو الجنسيات المختلفة الذين كانوا كثيراً ما يشتركون في العمل معا في انتاج واحد ، كما هي الحال في بناء المسجد النبوي الشريف في عهد الوليد بن عبد الملك .

وبعد أن استولى العباسيون على الخلافة في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) اقلوا

---

(١) أحمد تيمور : الآثار النبوية ص ١٠ وما بعدها .

(٢) دكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ١٥ .

مركز حكمهم إلى العراق ، حيث أسسوا مدينة بغداد فى سنة ٧٦٦م . بالقرب من حدود إيران واتخذوها عاصمة لدولتهم ، وربما فعلوا ذلك ليكونوا على مقربة من الفرس الذين اعتمدوا عليهم فى إقامة حكمهم ، وكان من نتيجة ذلك أن زاد الأثر الإيرانى « الساسانى » فى الإنتاج الفنى الإسلامى مما أدى إلى ظهور طراز فنى إسلامى جديد هو الطراز العباسى المبكر ، ويمثل الإنتاج الفنى الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية التى أجريت فى سامرا نضج هذا الطراز ويرجع فن سامرا إلى ما بين عام ٢٢١ و٢٧٦ هـ /٨٣٦ — ٨٨٩م ، وهى الفترة التى كانت فيها سامرا مركزاً للخلافة العباسية(١) .

واتخذ فن سامرا طابعاً دولياً إسلامياً ، إذ انتشر فى سائر العالم الاسلامى ، وذلك بحكم سيطرة الخلافة العباسية فى بداية العصر العباسى على سائر العالم الإسلامى باستثناء الأندلس .

ولكن لم تلبث الخلافة العباسية أن انتابها الضعف ، فأخذت الولايات المختلفة تستقل عن الخلافة العباسية ، كما ظهرت خلافتان أخريان هما ، الخلافة الفاطمية فى مصر والخلافة الأموية فى الأندلس وأدى هذا الاستقلال السياسى إلى أن يتميز الفن فى كل دولة من هذه الدول بمميزات خاصة ، وبذلك ظهرت بعض الطرز المحلية التى كان لكل منها مميزاته الخاصة ، وإن كان يجمع بينها طابع واحد وروح واحد هو الروح الإسلامى للعرب

ووجد فى مصر الفن الفاطمى أثناء حكم الخلفاء الفاطميين (٣٥٨—٥٦٧هـ) ثم الطراز الأيوبى ، فى عصر الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨هـ) ثم الطراز المملوكى ، فى عهد سلاطين المماليك (٦٤٨ — ٩٢٣هـ) .

---

(١) Sarre und Herzfeld, Archäoligische Reise im Euphrat- und — Tigris — Gebiet, I, p . 69, 87

ووجد في الأندلس فن أندلسي[١] اصطلح على تسميته (بالطراز الأموي الغربي) نسبة إلى بني أمية الذين استقلوا بحكم الاندلس في الغرب بعد زوال خلافتهم في الشرق واستمر هذا الطراز إلى القرن الخامس الهجري ثم قام في أعقابه الطراز الاسباني المغربي في القرن السادس الهجري وبلغ قمته في غرناطة في القرن الثالث الهجري ، ولايزال المغرب يحتفظ إلى اليوم ببعض الأساليب الفنية المتصلة بهذا الطراز .

أما في مشرق العالم الاسلامي فقد حل محل طراز سامرا فن جديد كان له أيضاً طابع الدولية ، وهذا الفن هو الفن السلجوقي ، وذلك نسبة إلى السلاجقة الذين قدموا إلى آسيا الوسطى وتمكنوا ومن خلفهم من الأتابكة أن يحكموا أفغانستان وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى حتى حوالى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ومن الملاحظ أن الفن الأيوبى والمملوكى يمكن اعتبارهما متطورين عن الفن السلجوقى .

وقام في إيران بعد الطراز السلجوقى طرز إيرانية أولها (الطراز المغولى) الذى ازدهر أثناء حكم أسر الإيلخانيين في القرن الثامن الهجرى ، والطراز التيمورى الذى ازدهر أثناء حكم التيموريين في القرن التاسع الهجرى ، ثم الطراز الصفوى الذى ازدهر أثناء حكم الأسر الصفوية من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر بعد الهجرة[٢] .

ووجد في الهند طراز هندى إسلامى متأثر إلى حد ما بالطراز الإيرانى وذو صبغة هندية محلية .

وفى آسيا الصغرى أعقب الطراز السلجوقى طراز فنى آخر قام فى عصر الأتراك العثمانيين وانتشر هذا الطراز التركى العثمانى فى الولايات التى خضعت

---

(١) ماريل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى أسبانيا ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ص ١٦ .

(٢) دكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ١٥ — ٤٢ .

لحكم الأتراك العثمانيين فى مصر والشام والعراق والجزيرة العربيــة وشمال أفريقيا .

وبعد استقلال هذه الأقطار عن الأتراك العثمانيين أخذت تعمل على ابتكار فنون خاصة بها . ولا تزال هذه الطرز الإسلامية المختلفة باقية فى العالم الإسلامى رغم أنه منذ القرن الثانى عشر الهجرى أخذت التأثيرات الأوروبية تتوغل بشكل خطير فى البلاد الإسلامية . ولم يكن الفن الإسلامى فى أى فترة من تاريخه فناً راكداً أو جامداً أو منعزلا ، بل كان دائم الاحتكاك بالفنون الأخرى فى الشرق والغرب ، مما ساعد على احتفاظه بحيويته وأدى إلى تطوره ، وبفضل الملاقات المختلفة التى قامت بين العالم الإسلامى والشرق الأقصى ، نجد أن الفن الإسلامى كان يتبادل التأثير مع فنون الشرق الأقصى بعامة وفنون الصين بخاصة .

ومن جهة أخرى ساعدت ظروف كثيرة على انتقال التأثيرات الفنية الإسلامية إلى أوربا . وإلى الفن الإسلامى يرجع الكثير من الفضل فى نشأة بعض الفنون الأوروبية ، مثل الفن القوطى ، وانتقلت التأثيرات الفنية الإسلامية إلى أوربا عن طريق أسبانيا وصقلية ودولة الترك العثمانيين فى البلقان وبحر الأرخبيل ، كما كانت الحروب الصليبية والتجارة بين الجمهوريات الإيطالية ومدن الشرق الأدنى ونحوره ، وقدوم الأوروبيين للحج إلى فلسطين ذات أثر كبير فى تبادل العناصر الفنية بين الإسلام وأوروبا[1] .

هذا وقد عنى العلماء منذ حوالى بداية القرن العشرين باجراء حفائر إسلامية كشفت عن كثير من الآثار والتحف الفنية التى تعتبر ذخيرة قيمة

---

(١) تراث الإسلام ترجمة دكتور زكى محمد حسن ص ٣ وما بعدها .

فى دراسة الفنون الإسلامية خاصة ، والحضارة الإسلامية عامة .. ومن أهم هذه الحفائر :

١ — حفائر بنى حماد فى الجزائر ، قام بها « بلانشيه » فى سنة ١٨٩٨م وتبعه « دى بيلى » فى سنة ١٩٠٨ م .

٢ — حفائر مدينة الزهراء بالأندلس قام بها « فيلاسكويز بوسكو » فى سنة ١٩١٠ م .

٣ — حفائر الفسطاط ، قام بها على بهجت سنة ١٩١٢ م

٤ — حفائر سامراء بالعراق ، قام بها « زاره » و « هرتسفلد » فيما بين ١٩١١ — ١٩١٣ م .

٥ — حفائر قصير عمره وحران والطوبه ، قام بها « جوسان » و « سافينياك » سنة ١٩٢٢ م .

٦ — حفائر فى إيران قام بها بعثة سويدية فى سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ وفى نيسابور متحف المترو بوليتان .

الكتابة العربية

من أهم الفنون التى ازدهرت فى العالم الاسلامى الخط العربى أو الكتابة العربية وقد وصلتنا روايات كثيرة مختلفة عن أصل الكتابة العربية ونشأتها وكلها ترجع إلى مصادر عربية من العصر الإسلامى ، ويمكن تلخيص هذه الروايات إلى الأقسام الآتية :

القسم الأول : روايات تذكر أن الكتابة العربية اخترعت اختراعا على يد اسماعيل بن ابراهيم (١) عليهما السلام ، أو على يد أبنائه نفيس ونصر

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٧ و ٨ .

ونباه ودومه ، وتتمشى هذه الآراء مع روايات أخرى تقول : إن اسماعيل هو أبو العرب المستعربة ، وأنه هو أول من تكلم منهم العربية بعد أن أخذها من العرب العاربة .

القسم الثانى : روايات تقول إن الكتابة العربية منقولة عن الخط المسند الذى عرف فى بلاد اليمن وتختلف هذه الكتابات فيما بينها فى تفاصيل الانتقال من اليمن إلى الحجاز ، ونستطيع أن نقسمها بدورها من هذه الناحية إلى أقسام :

أولا : روايات تقرر أن الخط نشأ فى بلاد اليمن ثم انتقل منها إلى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ، ومن أهل الحيرة تعلمه أهل الانبار ، ومن أهل الأنبار تعلمه أقوام نقلوه إلى الحجاز ، ويذكر أصحاب هذه الأخبار أن ممن تعلمه من أهل الحجاز سفيان بن حرب أو أباه حرب بن أمية وأنه تعلمه من رجل يدعى « أسلم بن سدرة » [١] حسب رأى ابن خلدون أو يدعى عبد الله بن جدعان ، حسب رأى آخر .

ثانياً : رأى يقول إن ثلاثة نفر من طى من بولان وهم : مرامر بن مره ، وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره ، كانوا قد سكنوا الأنبار ، فاقتطع مرامر الخط من المسند فسمى الجزم ووضع صورة الخط ، ووضع أسلم الفصل والوصل ، ووضع عامر الإعجام (النقط) . وتعلم أهل الأنبار هذا الخط من هؤلاء الثلاثة ثم نقلوه إلى أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان من أصحابه حرب بن أمية إذ كان يتاجر فى العراق فتعلم منه الكتابة ، وسافر بشر بن عبد الملك صحبة حرب بن أمية إلى مكة حيث تعلمها منه جماعة من أهلها .

---

(١) الدكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٥٦ وما بعدها .

ومن الملاحظ أن هذه الآراء تتفق فى جعل الكتابة العربية مستمدة من الكتابة السائدة فى بلاد اليمن وهى الخط المسند وتتناسب هذه الآراء مع ما كان العرب يعرفونه عن حضارة بلاد اليمن ، وأنها كانت مصدراً مهماً من مصادر الثقافة والحضارة فى بلاد العرب ، وأنها كانت متقدمة فى مجال العلوم، والفنون والصناعة والزراعة وأنها كانت فى كثير من الأحيان تفرض على الجزيرة العربية سلطانها السياسى وذلك بحكم سيطرتها على طرق التجارة العربية وعلى طريق القوافل بين الشمال والجنوب وبحكم ثرائها وغناها وثروتها الكبيرة من البخور (١)، ومن الملاحظ أن بلاد اليمن قدمت عدداً غير قليل من الإخباريين الذين زودوا التاريخ العربى بكثير من أخبار العرب فى الجاهلية والذين كانوا ينزعون بطبيعة الحال إلى الإشادة بمجد اليمن ومن ثم يمكن اعتبار هذه الروايات التى تزعم أن الخط العربى مستمد من المسند من قبيل قصص الإخباريين الذين بالغوا فى الإشادة بما كانت عليه اليمن من عز ومجد قبل الإسلام .

والحق أن مقارنة الحروف العربية بحروف المسند توضح اختلافاً أساسياً بين الخطين ينفى أى تأثير متبادل بينهما على أنه من الممكن أن نعتبر هذه الروايات التى تقول بتأثر الكتابة العربية بالخط المسند منصبة بصفة عامة على فكرة نشأة الحروف بعامة أى فكرة اتخاذ أشكال معينة وصور كتابية خاصة للتعبير عن الأصوات المحددة .

ويؤيد هذا الظن أن هذه الروايات تتكلم عن نشأة الكتابة أو الخط بصفة عامة ، كما أنها لا تقول بالانتقال المباشر من المسند إلى العربية وإنما تشير إلى

---

(١) دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عصر سبأ إلى صدر الإسلام . المجلة . العدد ٤ .

مراحل انتقال إذ تجعل الكتابة العربية منقولة عن كتابات أخرى كانت قد نقلت بدورها بالتعاقب من المسند .

والحق أن الكتابة فى بلاد اليمن يجب أن يكون لها اعتبارها عندالكلام عن نشأة الكتابة بوجه عام : إذ أنه قد عثر فى بعض الأقطار على كتابات أرجعها بعض العلماء إلى حوالى ١٠٠٠ سنة ق .م . وهى مكتوبة بخط جميل متسق ومن ثم يمكن اعتبارها من أقدم ما عرف من الكتابة بحروف منمقة.

القسم الثالث : روايات ترجع أصل الكتابة العربية إلى شمال بلاد العرب أو العراق ، وهى تختلف فيما بينها فى بعض التفاصيل بحيث يمكن أن نقسمها هى الأخرى إلى أقسام فرعية كما يلى :

أولا : روايات ترجع أصل الخط العربى إلى مدين فى شمال الحجاز ، وهذه تروى أن أول من وضع الخط العربى هم أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وهم قوم من الجبلة الآخرة حسب بعض الآراء ،أو بنو المحصن بن جندل بن يصعب بن مدين حسب البعض الآخر ، وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز،وكان الآخرون ملوكا لمدين أو لمصر فوضعوا الحروف حسب أسمائهم ثم زادوا عليها باقى الحروف ، وهى ث ، خ ، ذ ، ض، ظ ، غ (ثخذ ضظغ) وأطلقوا عليها اسم الروادف .

ثانياً : رواية تذكر أن أهل مكة تعلموا الكتابة من أياد من أهل العراق، ويروى بهذا الصدد شعر على لسان أمية بن أبى الصلت جاء فيه :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم (١)

ثالثاً : روايات تقول بأن الخط العربى وضع على مثال الخط السريانى

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٦٩ عن الدكتور جواد على : المرجع السابق ص ٥٨ .

وقد قام بذلك حسب هذا الرأى ثلاثة نفر ، هم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وكان هؤلاء الثلاثة من طيء اجتمعوا ببقه (أو بغيرها) فوضعوا الخط على مثال الخط السريانى فتعلمه منهم جماعة من الأنبار ثم تعلمه أهل الحيرة . ومن الحيرة أخذه بشر وكان نصرانياً ثم نقله إلى مكة حيث تعلمه منه سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب .

رابعاً : رواية تقول إن أهل مكة تعلموا الكتابة من أحد اليهود (١) ... وتتلخص آراء القسم الثالث فى أن الكتابة العربية متأثرة بالكتابة السريانية وأن عملية النقل كانت فى الحيرة أو الأنبار أو مدين وأن هذا النقل اشترك فيه يهود ونصارى وأنه تم فى عهد قريب من الإسلام .

غير أن المحاولات الحديثة للتوصل إلى نشأة الكتابة العربية عنيت بصفة خاصة بدراسة طبيعة الخطوط القديمة ومقارنتها بالكتابة العربية الإسلامية وذلك فى سبيل التعرف على أقرب الكتابات القديمة شبهاً بالكتابة العربية الإسلامية ، وتتبع مراحل التطور من الكتابات القديمة المذكورة إلى الكتابة العربية الإسلامية فى ضوء النقوش الأثرية التى عثر عليها فى شبه الجزيرة العربية أو بالقرب منها مع الإفادة فى الوقت نفسه بالروايات التاريخية ونصوص الإخباريين .

ومن المعروف أن الكتابات التى عرفت فى بلاد العرب أو بالقرب منها قبل الاسلام تنقسم قسمين :

١ — قسم أقدم ، وهو عبارة عن الخط المسند ، وهو الخط الذى دونت به اللغات فى جنوب بلاد العرب مثل المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٨ .

والأوسانية كما دونت به لغات انتشرت فى أنحاء أخرى من شبه جزيرة العرب ولكنها متأثرة بلغات الجنوب وهى الثمودية والصفوية واللحيانية .

٢ — القسم الأحدث ، ويتألف من المجموعة السامية الشمالية للخطوط ، ومن هذه المجموعة : الخط الآرامى ، وكذلك الخط النبطى الذى اشتق من الخط الآرامى المتأخر ، وقد تطور الخط النبطى شأنه شأن غيره من الخطوط فصار له أسلوب قديم وأسلوب متأخر ، وامتاز الأسلوب المتأخر بميله إلى ربط الحروف بعضها ببعض (١) .

وإذا تأملنا أقدم الكتابات العربية الإسلامية سواء أكانت كتابات أثرية أم كتابات على العملة أو الصنج أم فى البرديات أم الرق ودرسنا أشكال حروفها نجد أنها أقرب شبهاً بالخط النبطى منها بالخطوط الأخرى التى سبقت الإشارة إليها مما يرجح أن الخط العربى قد تطور عن الخط النبطى ، غير أنه لتأكيد هذا الرأى لابد من التعرف على مراحل التطور من الخط النبطى إلى الخط العربى ، هذا وقد عثر على خمسة نقوش يمكن أن تساعد فى التعرف على هذه المراحل وهى ترجع إلى ما قبل الإسلام ، ويرى البعض أن الموازنة بين أحدث الكتابات النبطية وبين هذه النقوش الخمسة المذكورة وبين أقدم الكتابات العربية الاسلامية ترجح أن الخط العربى تطور من الخط النبطى ولو أنه ما زال كثير من حلقات التطور مفقودة .

أما النقوش الخمسة المشار إليها فلم يعثر عليها فى بلاد العرب وإنما جاءت كلها من إقليم الشام ، وربما كان من الخطأ أن نسمى هذه النقوش جميعها نقوشاً عربية صرفة إذ أنها مكتوبة بلغة غير عربية وبخط غير عربى ولكنها مع ذلك أقرب الكتابات التى ترجع إلى ماقبل الاسلام شبهاً وصلة بالخط العربى فمن جهة نجد أن حروفها من حيث الشكل قريبة من الحروف العربية ومن جهة أخرى نجد أن أصحاب هذه النقوش عرب كما يدل على ذلك أسماؤهم وتاريخهم وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض هذه النقوش مكتوب بلغة عربية صرفة

---

(١) الدكتور جواد على : المرجع السابق ص ٢٧١ .

فى حين أن الباقى تبدو عليه ملامح عربية إما فى التركيب أو فى بعض الألفاظ. وأقدم هذه النقوش نقش يطلق عليه اسم ((نقش أم الجمال الأول)) وقد عثر عليه فى أم الجمال جنوب حوران بالأردن ، وقد عثر فى هذا الموضع نفسه على نقش آخر يرجع إلى تاريخ أحدث ولذلك اصطلح على تسمية النقش الأقدم بنقش أم الجمال الأول ، والنقش الأحدث بنقش أم الجمال الثانى (١)

ويرجع نقش أم الجمال الأول إلى سنة ٢٥٠ م وهو من النوع الجنائزى ووجد على قبر مصحوباً بترجمة باللغة اليونانية ، وهو مكتوب بلغة غير عربية هى اللغة النبطية وليس به من العربية إلا اسم صاحب الكتابة وتمتاز الكتابة بظهور روابط عديدة بين الحروف ولكن الربط بين الحروف يختلف عن الربط المعروف فى الكتابة العربية الإسلامية .

نقش النمارة :

وهو من حيث التاريخ يأتى بعد الكتابة السابقة وقد عثر عليه على بعد كيلو متر من النمارة شرقى جبل الدروز ، ووجد على قبر امرىء القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى فى ٧ بكسلول سنة ٢٢٣ هـ (سنة ٣٢٨ م).

وهو أيضاً من النوع الجنائزى وهو أيضا مكتوب باللغة النبطية وان كانت لهجته عربية ، ويشمل بعض الألفاظ والتراكيب العربية وهو قريب الشبه من الكتابة العربية فى صدر الإسلام لاسيما من حيث الوصل بين الحروف كما أن حروفه لا تختلف كثيراً عن الحروف الإسلامية الأولى .

نقش زبد :

وقد عثر عليه فى خرائب زبد بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقى حلب ، وتاريخه يرجع إلى سنة ٥١١ — ٥١٢ م ووجد مصحوبا بنقشين

(١) Littmann, in zeitschrift fur Semitistik und Vewandte Gebiete, VII, p. 197 ff.

أحدهما يونانى والآخر سريانى مؤرخين ، ولا يحتمل هذا النقش إلا على أسماء وصياغته نبطية ولكن خطه قطع مرحلة نحو الكتابة الإسلامية أوسع من نقش النمارة .

نقش حران :

وعثر عليه فى حران فى المنطقة الشمالية فى جبل الدروز ويرجع إلى سنة ٥٦٨ م وهو مصحوب بنقش يونانى ومكتوب بلغة عربية لا تختلف كثيراً عن لغة القرآن ، كما أن صورة الكتابة لا تختلف عن الصورة العربية الإسلامية .

نقش أم الجمال الثانى :

عثر عليه فى أم الجمال ويرجع إلى القرن ٦ م ولغته قريبة جداً من لغة القرآن ومتحررة تحرراً كبيراً من اللغة النبطية .

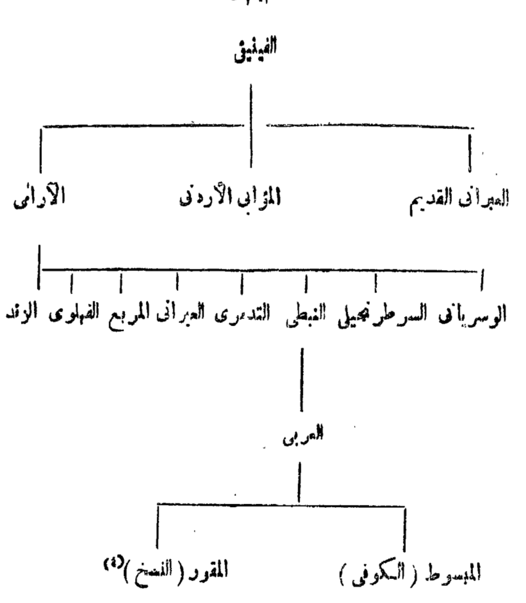
وبعد فهذه النقوش السابقة هى الكتابات التى عثر عليها وترجع إلى ما قبل الإسلام وتشبه من حيث الشكل أو اللغة أو الكتابة العربية الإسلامية[1] ومن ثم اعتبرت من الكتابات العربية الجاهلية وإن غلب على بعضها الطابع النبطى .

وقد لاحظ بعض العلماء من تتبع هذه الكتابات من نقش أم الجمال الاول إلى نقش أم الجمال الثانى ، أن هذه النقوش يمكن أن تمثل مرحلة انتقال من الخط النبطى إلى الخط العربى فى صدر الإسلام مما يرجح تطور الخط العربى عن الخط النبطى :

غير أنه من الواضح أنه يلزم الحصول على عدد أكبر من الكتابات حتى يمكن تأكيد هذا الرأى وحتى يمكن التعرف على جميع حلقات التطور ، وإذا ثبت هذا الرأى فإن الخط العربى يكون متطوراً من النبطى الذى تطور عن الآرامى ، وهذا تطور بدوره عن الفينيقى .

---

(١) الدكتور جواد على : المرجع السابق ص ٦٢ .



(١) انظر Encyclopaedia of Islam،

هذه النتيجة التى وصل إليها العلماء عن طريق الدراسة المقارنة للخطوط يؤيدها شواهد أو قرائن أخرى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — تكاد روايات الإخباريين العرب تجمع على انتقال الكتابة العربية من الشمال إلى الجنوب حتى تلك الروايات التى تقول بأن الكتابة العربية مستمدة من المسند إذ أنها تؤكد الانتقال عن طريق الشمال(١) .

٢ — تذكر بعض الروايات أن ملوك مدين الذين قاموا بوضع الحروف العربية كانوا يسمون « أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت » ، وأن الحروف العربية وضعت على أساس ترتيب هذه الأسماء ثم أضيف إليها الروادف الناقصة « ثخذ ضظغ »(٢) .

والواقع أن هذا الترتيب متفق مع ترتيب حروف الأبجدية النبطية . مما يوحى بتأثر الكتابة العربية بالكتابة النبطية ، وكان هذا الترتيب هو المستعمل للأبجدية العربية فى القرون الأولى من الإسلام ولا يزال مستعملا إلى اليوم فى بعض الجهات .

٣ — يلاحظ أن الترتيب العددى للحروف الذى اصطلح عليه العرب حتى اليوم يتفق مع ترتيب « أبجد هوز . . الخ » وفى الوقت نفسه يتفق مع الترتيب النبطى المقارن للأعداد والحروف ثم يلى ذلك الحروف العربية الجديدة التى لم تكن معروفة فى النبطية والتى سميت بالروادف وهذه الروادف ليس فيها جديد من حيث الشكل وهى ث ـ خ ـ ذ ـ ض ـ ظ ـ غ . وهذا يدل على أن هذا الترتيب هو الذى كان معروفاً فى القرون الأولى للإسلام وأنه مستمد بدوره من الترتيب النبطى للحروف .

---

(١) انظر مثلا ابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٩ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٦ .

(أ ١ ، ب ٢ ، جـ ٣ ، د ٤ ، هـ ٥ ، و ٦ ، ز ٧ ، ح ٨ ، ط ٩ ، ى ١٠ ، ك ٢٠ ، ل ٣٠ ، م ٤٠ ، ن ٥٠ ، س ٦٠ ، ع ٧٠ ، ف ٨٠ ، ص ٩٠ ، ق ١٠٠ ، ر ٢٠٠ ، ش ٣٠٠ ، ت ٤٠٠ ، ث ٥٠٠ ، خ ٦٠٠ ، ذ ٧٠٠ ، ض ٨٠٠ ، ظ ٩٠٠ ، غ ١٠٠٠).

أما عن كيفية انتقال الكتابة من الشمال إلى الجنوب فليس لدينا من الكتابات أو الأدلة ما يوضحها على وجه التحقيق ، وإن كان من المعتقد حسب الأخبار القليلة التى وصلتنا أن هذا الخط المتأثر بالخط النبطى أخذ ينتشر فى مكة والمدينة على يد التجار العرب الذين كانوا كثيرى الاحتكاك بالنبط أو بالحيرة حتى استطاع أن يتغلب على كتابة المسند ، وقد قضى فى عصر مبكر على هذه الكتابة من شمال بلاد العرب وهى الكتابات الثمودية والصفوية واللحيانية ، غير أن المسند بقى فى اليمن إذ عثر على نصوص به ترجع إلى ما قبل الإسلام مباشرة[1] وربما ساعده على البقاء فى اليمن أنه كان قريب الشبه بخط الحبشة التى كانت مسيطرة على اليمن فى ذلك الوقت ، هذا بالإضافة لأصالة المسند وعمق جذوره ، وبلوغه درجة كبيرة من الجمال والتأنق ، على أنه بظهور الإسلام تم القضاء نهائياً على خط المسند ، وتم انتصار الكتابة العربية الشمالية .

تطور الكتابة العربية بعد ظهور الإسلام

بالرغم مما أورده المؤلفون من أخبار وآراء بخصوص نشأة الكتابة العربية وتطورها فإن تاريخ هذه الكتابة لا يزال مشكلة تحتاج إلى كثير من الدراسة ولا سيما فيما يتعلق بتطور الخط العربى فيما قبل الإسلام ، إذ أنه لم يصلنا من الكتابات العربية التى تعود إلى عصر ما قبل الإسلام غير بضع

(١) من أمثلة ذلك نص أبرهة .

كتابات أثرية بعضها مكتوب بلغة غير عربية أو بخط غير عربي ، وبظهور الإسلام أخذ شأن الكتابة العربية فى الازدهار إذ لم يلبث أن انتشر العرب فى كثير من أجزاء العالم المتحضر فى ذلك الوقت وامتد نفوذ العرب المسلمين فى نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والأدبية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين للكتابة العربية التى لم يقتصر نفوذها على اللغة العربية بل امتد خارج نطاقها فصارت تكتب بها فيما بعد لغات أخرى غير عربية(١) .

وكان من الأسباب الرئيسية فى انتشار الكتابة العربية تعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى (عبد الملك بن مروان) ، كما كان الخط العربى الوسيلة الأساسية التى حفظ بها القرآن الكريم إذ اتخذ النبى صلى الله عليه وسلم كتابا يدونون الآيات الكريمة عند نزولها بخط عربى ، وفى عهد أبى بكر تم جمع القرآن الكريم بعد أن استشهد كثير من حفظته فى ميادين الجهاد ، وفى عهد عثمان دونت المصاحف على رسم واحد وأرسلت إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وهكذا كان للخط العربى دوره فى حفظ القرآن وفى تداوله وانتشاره والتعبد بتلاوته وذلك بفضل الله تعالى .

وكان لكتابة القرآن ولقراءته فى المصاحف أثر كبير فى إعلاء شأن الخط العربى وفى الرغبة فى تحسينه وتزيينه وفى النظر إليه بإكبار وبتأمله بمتعة روحية مما أدى إلى زيادة العناية به والمبالغة فى تزويقه وتجميله والتطور به تطوراً زخرفياً فنيا .

ويتضح جانب من جوانب العناية بالكتابة العربية فيما أدخله علماء اللغة

---

(١) مثل اللغة الفارسية والاوردية والتركية وغيرها .

من علامات الإعراب والإعجام وكان الهدف الأساسى من ذلك هو الرغبة فى تفادى الخطأ لاسيما فى تلاوة القرآن الكريم .

وساعد على العناية بالخط العربى أيضاً ما تشتمل عليه تعاليم الإسلام من تقدير للكتابة إذ أقسم بها الله سبحانه وتعالى فقال جل شأنه « ن ، والقلم وما يسطرون » ، وامتدح سبحانه ملائكته فقال « كراما كاتبين » كما أشير إليها فى أول الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » كما أن العناية بالكتابة مظهر من مظاهر العلم والتحضر والمدنية التى عمل الإسلام على تنميتها ونشرها ، والكتابة فى الوقت نفسه من أهم وسائلها ، ومن الملاحظ أنه قرن بين العلم والكتابة فى الآيات الكريمة السابقة (١) .

ومن جهة أخرى يلاحظ أن طبيعة الخط العربى وأشكال حروفه وما تمتاز به من الموافقه والطواعية والمرونة هيأت الفرص المناسبة للتحسين والإجادة وابتكار الأشكال الجميلة وكانت هذه الظروف كلها مما هيأ المجال لأن يحتل الخط العربى ومزاولوه من الخطاطين أعلى درجة من التقدير والإعزاز بالنسبة للفنون الإسلامية الأخرى كما حظى الخطاطون بعناية الفنانين القدامى والمحدثين فصنفت عنهم المقالات والكتب التى تناولت الكلام عن حياتهم وأخبـــارهم وأشادت ببراعتهم وبما وهبهم الله من فن جميل .

أما الخط العربى نفسه فقد احتل مكان الصدارة بين الفنون الأخرى ولم يقف دوره عند حد استخدامه كوسيلة للتعليم أو للمكاتبات العادية أو

---

(١) دكتور حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل . حلقة بحث الخط العربى ص ٢٥ .

الرسمية أو تدوين المصاحف بل استخدم أيضاً كعنصر زخرفي أثري وفي الكتابات التذكارية ، وزينت به العمائر وزوقت به منتجات الفنون التطبيقية وأقبل المسلمون على اقتناء نماذجه الجميلة . والحق أن الخط العربي لعب في عالم الفن والزخرفة دوراً مشهوداً فاق كثيراً من الكتابات الأخرى .

وربما كان من أهم مظاهر العناية بالخط العربي تفريعه إلى عدد من الخطوط يتميز كل منها بخصائص معينة وأهم هذه الخطوط نوعان رئيسيان هما الخط الكوفي المزوى الجاف والخط النسخ المقور .

وكانت نشأة هذين الخطين وتطورهما مثار آراء مختلفة ، وكان الرأي الشائع أن الخط الكوفي كان أسبق من حيث الظهور وأن الخط النسخ قد تطور منه ، غير أن الحقيقة هي أن الخط العربي يحمل منذ البداية بذور الطابعين المبسوط والمقور أي أن الخطين الكوفي والنسخ قد ظهرا منذ البداية ولم يتطور أحدهما من الآخر .

غير أنه في القرون الخمسة الأولى غلب استعمال الخط المبسوط في المصاحف وفي الكتابات التذكارية الأثرية وفي زخرفة الفنون التطبيقية في حين غلب استعمال الخط المقور في المكاتبات اليومية وفي نسخ الكتب ، وأقدم ما وصلنا من أمثلة لاستخدامه في النقوش سد العيار بالطائف الذي يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان ، وكتابات قبة الصخرة ، وكتابات الأميال من عهد عبد الملك بن مروان (١) ، وأدت سهولة تنسيق هذا الخط وتزويقه وزخرفته إلى أن أصبح أشبه بخط رسمي طوال القرون الخمسة الأولى حتى كاد أن ينفرد وحده بتدوين المصاحف وفي الكتابات التذكارية وفي النقوش الزخرفية وعلى المسكوكات الإسلامية .

---

(١) Van Berchem, CIA, Jrusalem, I, No I, III, pl. I, II.

أنواعه :

وقد تفرع هذا الخط الكوفى إلى عدد كبير جداً من الخطوط (1) يتميز كل منها بميزات معينة وأهم هذه الخطوط الكوفية مايلى : —

١ — كوفى بدائى ، ويمثله شاهد الحجرى المؤرخ فى سنة ٣١ هـ

٢ — كوفى بسيط وأمثلته كتابات قبة الصخرة من عهد عبد الملك ابن مروان سنة ٧٢ هـ . ولم يعرف فى القرن الأول الهجرى من الخط الكوفى غير هذين النوعين .

٣ — كوفى ذو طرف متقن .

٤ — كوفى مزخرف الطرف بزخارف هندسية بسيطة .

٥ — كوفى مورق .

٦ — كوفى مزهر ، وقد عرف من هذا النوع خط يسمى الخط القرمطى وشاع استخدامه فى الدولة الفاطمية .

٧ — كوفى مجدول أو مضفر .

٨ — كوفى محدد بشريط زخرفى وفيه يضاف فى أعلى شريط الكتابة شريط زخرفى مؤلف من وحدات زخرفيه متكررة .

٩ — كوفى ذو أرضية نباتية .

١٠ — كوفى معمارى .

١١ — كوفى مربع .

الخط النسخ :

وإذا كان النوع المبسوط من الخط أسهل من حيث التنسيق والزخرفة بحيث

---

(١) Flury, Ornamental Kufic Inscriptions on pottery. Survey of Persian Art.

صار فى الإمكان تطويره وتجميله فى وقت قصير نسبياً فإن الخط المقور أو النسخ كان من جهة أخرى أسهل تناولا بصفة عامة وذلك لما يمتاز به من ليونة ، ويتمثل أقدم ما وصلنا من نماذج الخط المقور فى وثيقة من البردى عبارة عن مكاتبة صادرة من أحد عمال عمرو بن العاص على أهناسيا فى مصر مؤرخة فى سنة ٢٢ هـ ومكتوبة باللغة العربية واليونانية وهى كتابة خالية من العناية والتنسيق .

غير أن الخطاطين المسلمين أخذوا يبذلون جهدهم فى سبيل العناية بهذا النوع من الخط منذ أواخر العصر الأموى ولاسيما بعد استخدام الورق فى العالم الإسلامى ، ويرجع الفضل فى تحسين هذا النوع من الخط وتجميله إلى سلسلة من الخطاطين الأفذاذ نذكر منهم ثلاثة هم : ابن مقلة ، وابن البواب (١)، وياقوت المستعصمى . وكان هؤلاء الخطاطون الكبار يتوارثون الخط المقور ، ويضيف كل منهم من فنه إلى تراث سلفه حتى استطاعوا أن يطوروا خطاً جميلا قليل الزوايا كثير الاستدارة : هو الخط المنسوب الذى صارت أجزاؤه تخضع لمقاييس ونسب معينة تضفى عليه جمالا ورونقا وبهاء (٢) .

وما أن وصل الخط المقور أو المنسوب إلى درجة مناسبة من التجريد والتنسيق والجمال حتى أخذ ينافس الخط المبسوط أو الكوفى كخط رسمى وزخرفى إلى جانب استخدامه فى الكتابة العادية وفى المؤلفات والكتب .

وحقق الخط النسخ انتصاره التام منذ عصر السلاجقة والأيوبيين :

---

(١) الدكتور سهيل أنور : الخطاط البغدادى على بن هلال المشهور بابن البواب - ترجمة محمد بهجة الأثرى وعزيز سامى ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) القلقشندى : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣ .

إذ صارت تدون به المصاحف الفخمة ، واحتل الصدارة فى الكتابات الأثرية والزخرفية على المبانى والتحف الفنية . ومع ذلك لم يفقد الخط الكوفى قيمته الزخرفية : ذلك أنه ظل يستخدم على نطاق ضيق إلى جانب النسخ فى الكتابات الأثرية والزخرفية .

ولا يزال الخطان محتفظين بهذه المكانة حتى عصرنا الحاضر .

وقد تفرع من الخط المقور عدة خطوط اندثر بعضها وبقى البعض الآخر ومن أهم أفرع الخط المقور الخطوط الآتية :

١ — الخط النسخ .	٢ — الخط الثلث .
٣ — خط التوقيع (الإجازة)	٤ — النستعليق .
٥ — الخط الفارسى .	٦ — الخط الديوانى .
٧ — الخط الهمايونى .	٨ — الطغراء .
٩ — السياقت .	١٠ — الرقعة .

العمارة :

وبالإضافة إلى الخط مارس المسلمين كثيراً من المجالات الفنية ومن أهم هذه المجالات « فن العمارة » .

وقد زاول المعماريون المسلمون بناء جميع أنواع العمائر تقريباً فخلفوا لنا كثيراً من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وقلاع وقصور وأبواب مدن ومداخل أسواق وأسوار مدن وحمامات ووكالات وخانقاوات وأربطة ومطابخ ، وبيمارستانات ومساكن وغير ذلك من المؤسسات الدينية والمدنية والعسكرية ، كما خططوا المدن وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر ، ووصلتنا أمثلة كثيرة من العمائر الإسلامية فى مختلف الأقطار

الإسلامية ، وتتميز العمارة الإسلامية بوحدات وعناصر معمارية خاصة بها ، كالمآذن والقباب والمداخل والعقود والأعمدة والتيجان والمحاريب[١] .

ومن أهم العناصر المعمارية الاسلامية (المقرنصات) وهى عبارة عن أشكال زخرفية على هيئة صفوف من الحنيات أو المحاريب الصغيرة بعضها فوق بعض ، تكسو خطوط التقابل بين الأسطح الافقية والرأسية وفى الزوايا وقد تتدلى منها فى بعض الأحيان دلايات ، وقد تصنع هذه المقرنصات من الحجر أو الجص أو الطوب أو الخشب أو الخزف أو الزجاج أو المرايا ، وقد اتخذت المقرنصات فى الزخرفة فى فنون تطبيقية مثل الخشب والخزف والمعادن وغيرها .

وتعتبر المقرنصات من العناصر الإسلامية المميزة الأصيلة التى أنفرد بها الفن الإسلامى ، ووجودها فى أى إنتاج فنى غير إسلامى يدل على تأثره بالفن الإسلامى[٢] .

الفنون التطبيقية :

أحتلت الفنون التطبيقية مركزاً أساسياً بين الفنون الإسلامية المختلفة إذ تفوق المسلمون فيها على غيرهم من الشعوب ونذكر هنا على سبيل المثال فن النسيج والخزف وصناعة الورق[٣] .

النسيج :

ومن الصناعات والفنون التى حظيت بعناية خاصة فى ذلك العصر فن

---

(١) دكتور فريد شافعى : العمارة العربية ص ٥٨١ — ٦٢٢ .

(٢) Dr. Hassan El-Basha, The Muqarnas, Minbar Al-Islam, V, No. I; VI, No. I.

(٣) دكتور زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٧ وما بعدها .

النسيج وذلك لأنه من أهم مظاهر التحضر والتمدين من جهة كما أن الخلع المنسوجة كانت من أبرز مراسم التشريف والتكريم التي وصلت درجة كبيرة من التنظيم والإتقان في الدولة الاسلامية .

وبدأت العناية بالنسيج في العصر الأموي، ثم ارتقت وتقدمت تقدماً سريعاً في العصر العباسي واتجهت صناعة النسيج اتجاهين : اتجاهاً شخصياً واتجاهاً رسمياً ، فمن جهة وجدت أنوال النسيج أو أدوات النسيج كانت تشرف عليها الدولة وكان يطلق عليها اسم الطراز .

الطراز(1) :

والطراز كلمة معربة عن لفظة «ترازيدن» الفارسية بمعنى يطرز أو يوشي وقد استخدمت لفظة الطراز لتدل على العبارة الرسمية التي كانت تنقش على النسيج أو العملة أو غير ذلك من الأشياء ذات الطابع الرسمي : لذجرت العادة أن تتخذ كل دولة لنفسها طرازا أو عبارة متميزة كشعار خاص بها وكان الطراز المستعمل في مصر والشام عند فتح العرب لهما هو طراز الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية ، واستمر هذا الطراز مستعملا إلى أن نقله عبد الملك ابن مروان إلى العربية ، وجعله « لا إله إلا الله » واستخدم الطراز العربي في سائر أقطار الدولة الاسلامية وظل كذلك في جوهره ؛ وكان يتضمن عادة اسم الخليفة أو السلطان أو ذوى النفوذ من الوزراء والأمراء .

ونظرا إلى أن أكثر المواد التي كان يرد عليها الطراز هو النسيج كما كان يعمل منه الثياب التي كان يخلعها الخلفاء على رجال الدولة ويهدونها لهم من باب التشريف وعلامة على رضاهم عنهم وإقرارهم في مناصبهم صارت

---

(1) Encyclopaedia of Islam, Tiraz .

دور النسيج أو مصانع النسيج تسمى بالطراز ، وصار المشرف على هذه الدور يسمى صاحب الطراز (١) .

وبدأت الدولة تنشيء مصانع النسيج أو الطراز منذ أواخر العصر الأموي (٢) ، ثم تطورت هذه المصانع وازداد تنظيمها في العصر الفاطمي والعباسي ، وعرف العالم الاسلامي نوعين من الطراز أو من مصانع النسيج : هما طراز الخاصة : أي الدور التي تقوم بإعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة ، وطراز العامة : أي الدور التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب .

مراكز صناعة النسيج :

واشتهرت كثير من المدن في العالم الاسلامي بصناعة النسيج ولاسيما في مصر وإيران والعراق . ومن أهم مراكز صناعة النسيج في مصر : دمياط والإسكندرية وتنيس والفيوم والبهنسا . وكان القطن والكتان ينسجان في مراكز الصناعة المصرية المختلفة . ومن المعروف أن الولاة المصريين كانوا يرسلون إلى الخلافة العباسية كثيرا من المنسوجات النفيسة ضمن الأموال المقررة أو الهدايا التي كانوا يبعثون بها إلى الخلفاء ، وفي متحف برلين قطعة من النسيج المصري باسم الخليفة المعتمد مؤرخة سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتفي والأمير هارون بن خمارويه مؤرخة سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) أي قبل سقوط الدولة الطولونية بسنة واحدة .

ووصلتنا مجموعة من قطع النسيج من الصوف ومن الصوف والكتان ترجع إلى كورة الفيوم أي إقليم الفيوم وتنسب إلى حوالى القرن الرابع الهجري .

(١) دكتور حسن ابراهيم حسن : النظم ص ٢١٩ .

(٢) Lewis, The Arabs in History, p. 86 — 7.

ويزخرف كثيرا من هذه القطع رسوم تتألف عادة من أشرطة تشتمل على زخارف وصور حيوانات وطيور وآدميين بالإضافة إلى أشرطة من الكتابة العربية الزخرفية المحورة التى قد تكون عبارة كاملة ذات معنى أو تكرارا لكلمة واحدة ، أو مجرد زخارف من حروف تؤلف كلمات لا معنى لها . وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعة منسوجة من الصوف والكتان بها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفى يقرأ « ... ونعمة كاملة لصاحبه مما عمل فى طراز الخاصة بمطمور من قرى كورة الفيوم » ، وفى أعلى هذه الكتابة شريط أحمر اللون به صف من الجمال البيضاء والخضراء مرسومة بأسلوب هندسى محور جدا(١) .

وبالرغم من أنه لم يصلنا من العراق نماذج كثيرة من النسيج فإن ما وصلنا منها ليشهد بالمستوى الرفيـــع الذى وصلته صناعة النسيج فى العراق .

ومن هذه النماذج قطعة محفوظة فى إحدى كنائس مدينة ليون فى أسبانيا تنسب إلى القرن الرابع والخامس الهجرى تشتمل على زخارف على هيئة دوائر كبيرة بداخلها رسم اصطلح على تسميته بشجرة الحياة وقوامه رسم فيلين متماثلين ومتواجهين وبينهما شجرة متماثلة الجانبين مرسومة بأسلوب هندسى تجريدى ، وذلك بالإضافة إلى صور طيور وسباع وطراز من الكتابة الكوفية يقرأ فيه « البركة من الله » و « مما عمل فى بغداد » و « أبو النصر » .

أما إيران فقد ازدهر فيها كثير من مراكز النسيج ، ويتضح مما ورد فى

---

(١) الرقم فى السجل ٩٠٦١ .

المؤلفات التاريخية والجغرافية القديمة حيث ذكر بعض هذه المراكز مثل مرو وأصبهان وشيراز ونيسابور . وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة عدة قطع من نسيج مرو ونيسابور نجد على واحدة منها اسم الخليفة العباسى المعتمد على الله وعلى أخرى اسم المقتدر بالله . وفى متحف اللوفر قطعة منسوجة من الحرير والقطن قوام زخرفتها فيلان متماثلان متواجهان تحتهما شريط من الكتابة بالخط الكوفى نصه : « عز وإقبال للقائد أبى منصور بختكين أطال الله بقاه ... » ويرجح أن هذه القطعة من صناعة خراسان فى القرن الرابع الهجرى . وربما كان القائد بختكين المذكور فى هذا النص هو قائد عاش فى بلاط عبدالملك بن نوح أمير خراسان وما وراء النهر وقتل على يد هذا الأمير فى سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م)(١) .

هذا وقد بدأت فى عصر السلاجقة نهضة كبرى فى صناعة النسيج سواء من حيث تقدم أساليب الصناعة والزخرفة أو من حيث ازدياد مراكز النسيج وانتشارها فى سائر الأقاليم التى خضعت لحكم السلاجقة (٢) . وكان بعض قطع النسيج السلجوقى يشتمل على حكم وأشعار من ذلك قطعة تنسب إلى إقليم فارس عليها كتابة نصها : « لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس — ولو تمنعت بالحجاب والحرس » وقطعة أخرى عليها عبارة نصها : « كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول »

ومما تجدر الإشارة إليه أن العالم الاسلامى كان يستورد القطن من آسيا والحرير من الصين . وقد استقرت صناعة الحرير بصفة خاصة فى إيران

---

(١) دكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٦ .

وجرجان وسجستان . كما ازدهرت صناعة السجاد فى طبرستان وأرمينيا وكانت تعتبر من الصناعات المنزلية إلى حد ما .

الفخار والخزف

فن الخزف من أهم الفنون التطبيقية الإسلامية . والخزف بصفة خاصة من المواد الأثرية القيمة ، وترجع قيمته الأثرية إلى عوامل كثيرة ، أهمها ما يلى :—

أولا — الكثرة : ذلك أن مخلفاته تفوق غيره من أى مادة أثرية أخرى والحق أن أكثر ما يستخرج من الحفائر الأثرية هو الفخار ، وترجع كثرته إلى أمور منها ما يلى :

١ — كثرة ما كان يصنع منه لشدة الحاجة إليه ، فهو يستخدم فى الأكل والشرب ولتخزين الحبوب والسوائل ، أى أنه كثير الاستعمال فى الحياة اليومية والمعيشية ، بالاضافة إلى استخدامه فى الزينة .

٢ — رخصه .   ٣ — سهولة استعماله .

٤ — سرعة تلفه عن طريق الكسر .

٥ — استحالة إعادة تشكيله ، بخلاف المواد الأخرى مثل المعادن والزجاج .

٦ — الاستغناء عنه بمجرد كسره أو تلفه ، على عكس المواد الأخرى ، مثل النسيج والسجاد الذى يمكن استعماله حتى يبلى تماما .

٧ — كثرة استخدامه فى الطقوس الدينية القديمة لتقديم القرابين من الطعام أو الشراب ووضعه فى القبور .

ثانيا : قيمته الأثرية : عن طريقه يمكن تتبع مراحل التطور الحضارى والفنى .

ويرجع ذلك من جهة إلى كثرة ما يكتشف منه ومن جهة أخرى إلى سرعة تطوره الفنى ، فأساليبه دائمة التطور ، ومن ثم استخدمه علماء الآثار والفنون والحضارة فى تتبع المراحل الحضارية (١) ، وقد أمكنهم فى كثير من الأحيان أن يرتبوا أساليبه ترتيبا زمنيا ومن ثم استغل فى تأريخ طبقات الحفر ، وترتيب الطرز الفنية الأخرى .

ثالثا : ربما كان أقرب الفنون الزخرفية والتطبيقية إلى روح الإنسان وأكثر صلة به من غيره وإن من يشاهد صانع الفخار ، ولا سيما عاجن الطين ومشكله يشعر بقوة الامتزاج بين الإنسان والطين (٢) .

ولقد تقدمت الصناعات والفنون الخزفية فى العصور الإسلامية تقدما كبيرا ، إذ أخضع المسلمون أقطارا كان لها ماض عريق فى هذه الفنون مثل إيران والعراق والشام ومصر وبفضل الحكم الواحد تبادلت هذه الأقطار الخبرات المتعلقة بهذه الصناعات مما أدى إلى حدوث نهضة فى هذا المجال ، بعد أن كان فن الخزف قد أخذ فى التدهور قبيل الفتح الإسلامى ، وذلك نتيجة للخلل العام الذى أصاب هذه الأقطار فى تلك الفترة ، ومن هنا أخذت صناعة الخزف فى الازدهار تحت الحكم الإسلامى ، ويبدو أن هذا الانتعاش قد بدأ بصفة خاصة فى إيران والعراق حيث وجدت التقاليد العريقة فى هذه الصناعة . ولم يكتف الصناع الإسلاميون بالمحافظة على التقاليد القديمة فى فن الخزف ، بل أخذوا فى تطويرها وابتكار أساليب جديدة لم تكن معروفة من قبل سواء فى مجال الصناعة أو الزخرفة ، واستفادوا فى تطوير فنهم من الخزف الصينى الذى كان يستورد بكثرة إلى العالم الاسلامى ، وعثر على

(١) ليونارد دولى : مدخل إلى علم الآثار ص ٩٣ .

(٢) صدق الله تعالى حيث قال : « وبدأ خلق الإنسان من طين »

كميات كثيرة منه فى الحفائر الاسلامية مثل حفائر (سامرا والفسطاط)[1].

وعرف المسلمون أنواعا كثيرة من الخزف أهمها ما يلى :

١ — الفخار ٢ — الفخار المطلى بالميناء ٣ — الخزف ٤ — القاشانى

٥ — الفسيفساء الخزفية ٦ — السلادون ٧ — تقليد البورسلين

وتختلف هذه الأنواع بعضها عن بعض من حيث نوع الطينة أو العجينة المستعملة ومن حيث التشكيل ورقة الجدران والطلاء والزخرفة والأدوات المنتجة واستعمالها .

ويصنع الفخار من الطين المحروق دون طلاء ، وطينته أقل نقاءا من طينة الخزف وجدرانه أكثر سمكا وهو هش وأكثر مسامية ومن حيث القدم هو أقدم من حيث استخدام البشر له ، ويستخدم الفخار فى صنع القلل والازيار حيث يستفاد من مساميته فى تبريد الماء وفى بعض العصور طلى الفخار بالميناء وانتشر هذا الأسلوب فى عهد المماليك .

ويستخدم فى زخرفة الفخار طرق مختلفة منها النقش والحفر والزخارف المجسمة المنفذة بطريقة الباربوتين « القرطاس » ، أو الطبع بالأختام أو عن طريق القوالب وفى هذه الحالة يصنع جسم الإناء المستدير عادة من جزئين منفصلين ثم يجمعان معا ويضاف اليهما رقبة الإناء والمقابض والقاعدة ، ومن الآثار الفنية الفخارية التى تسترعى الانتباه (شبابيك القلل) .

أما الخزف فهو النوع المطلى أو المزجج[2] ، والطلاء يكون عادة بمادة

---

(١) دكتور زكى محمد حسن : فنون الإسلام (باب الخزف) .

(٢) الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى ، تاريخه وخصائصه ص ١٢٦ .

زجاجية ،وطينة الخزف تكون أكثر نقاء وصلابة من الفخار أما السلادون والبورسلين فيصنعان من عجائن مختلفة عن عجينة الخزف وهذه العجائن أكثر تماسكا من الخزف ، وهذه الأنواع كلها أكثر ما تستخدم فى صناعة الأوانى وصنعت فى العصر الإسلامى أدوات كثيرة أخرى من الخزف ، مثل الأحواض ، وكراسى العشاء ومساند الأرجل والنوافذ والشمعدانات والتماثيل والمسارج ، كما صنعت منه بلاطات القاشانى التى تستخدم فى الكسوة والتبليط كما صنعت منه الفسيفساء الخزفية ، وهى عبارة عن فصوص مختلفة الشكل والحجم مقطوعة من لوحات كثيرة من الخزف المطلى بالألوان ، يجمع بعضها إلى بعض يصب عليها من الخلف ، فيملأ جميع التجاويف وتماسك الفصوص .

وتمر صناعة الخزف بصورة عامة بعدة مراحل وهى :

الحصول على الطينة المناسبة ، وتختلف الطينة من قطر إلى آخر أو من جهة إلى أخرى ، ولذلك فهى تتفاوت من حيث المادة والخامة ، ومن حيث الجودة واللون ، ومن ثم يفيد نوع الطينة أحيانا فى تحديد مكان الصناعة ، وبالتالى فى تحديد العصر أو الطراز ، ثم تعجن الطينة إلى درجة معينة ثم تشكل ، وكان التشكيل فى أول الأمر يتم باليد ، ثم صار يستعان بالدولاب أو العجلة لتدوير الطين ، ثم يستخدم الصانع يده وأصابعه فى التشكيل وإذا لزم الأمر استعمل أداة ، وبعد التشكيل تجفف الأوانى ثم تطلى بالبطانة ثم تحرق فى أفران فى درجة معينة حسب الطينة أو الظروف ، ثم تطلى بالطلاء الزجاجى وقد يستخدم التذهيب وأنواع أخرى من الأطلية ، ثم يعاد حرقها لتثبيت الطلاء ، وربما تكرر حرقها أثناء الطلاء ، وذلك حين استخدام طلاءات مختلفة يلزم حرقها .

ومن الملاحظ أن الخزف يشترك فى عمله عدد من الأفراد لكل منهم

مهمة خاصة ، كالعجان ، والخزاف الذى يقوم بالتشكيل ، والعامل الذى يتولى الحرق والمزخرف أو الرسام أو الدهان الذى يقوم بالطلاء أو عمل الزخارف وقد يشترك فى الطلاء عدد من المزخرفين يصنع كل منهم نوعا معينا أو طلاء محددا أو رسما خاصا ، ثم ينقله لمن يليه ويضيف اليه بدوره وهكذا ...

مراكز صناعة الخزف

اشتهرت بصناعة الخزف أماكن معينة فى العالم الإسلامى [١] ، ويرجع ذلك إلى وجود الطينة المناسبة للصناعة ، وظروف أخرى ، ومن أشهر مناطق صناعة الخزف :

١ — بغداد ، وسامراء ، والموصل فى العراق .

٢ — الرى وقاشان والسوس فى إيران .

٣ — الفسطاط والقاهرة والفيوم فى مصر .

٤ — دمشق والرقة فى الشام .

٥ — مالقة وغرناطة ومنيشة فى الأندلس .

٦ — أزنيق وكوتاهيه فى آسيا الصغرى وكان فى أزنيق فى عهد السلطان أحمد (سنة ١٦٠٣ م — ١٦١٧ م) ٣٠٠ مصنع للخزف .

ويتميز الخزف الإسلامى أنه يحمل توقيعات صناعه مثل مسلم وسعد وغيبى .

كما وصلتنا رسالة عن صناعة الخزف كتبها عبدالله بن على بن محمد بن أبى طاهر فى قاشان فى ٧٠٠ هـ — ١٢٠٠ م فيها وصف بعض العمليات فى صناعة الخزف ، وعين مصادر بعض المواد المستعملة فيه ، وقد عثر على هذا الكتاب فى استنبول .

(١) دكتور زكى محمد حسن : المرجع السابق .

طرز الخزف الإسلامى :

وينقسم الخزف الإسلامى إلى عدة طرز ، بعضها اتخذ طابع الدولية أى أنه انتشر فى أقطار كثيرة من العالم الإسلامى وبعضها اقتصر على الطابع المحلى أى أنه انفرد به قطر إسلامى ، أو إقليم معين دون سائر الأقاليم أو الأقطار (١)

ومن الملاحظ أن الطراز المعين قد ينقسم بدوره إلى عدة طرز ثانوية أو فرعية حسب اختلاف الأقطار والأقاليم والأزمنة بل والفنانين أنفسهم ، وهذا ينطبق من حيث الصناعة ومن حيث الزخرفة أو كليهما معاً . ومن أهم طرز الخزف الإسلامى نوع من الخزف اصطلح على تسميته باسم الخزف ذى البريق المعدنى Lustre ware ويتميز هذا النوع من الخزف بأنه يدهن أولا بدهان أبيض . أو أبيض مائل إلى الزرقة أو الاخضرار ثم يجفف بالحرق ، ثم يرسم هذا الدهان بالرسوم والزخارف المطلية بطلاء مكون من أكسيدات معدنية . ثم يجفف مرة ثانية ببطء فتتبخر الأكسيد ويبقى الطلاء المعدنى الذى يتخذ بريقاً يشبه بريق المعادن ، وهو فى الأغلب ذهبى اللون أو أصفر مائل إلى الحمرة ، واتخذ هذا النوع من الخزف طابعاً دولياً إذ انتشر فى أقطار اسلامية كثيرة مثل العراق وإيران ومصر والشام وشمال أفريقيا والأندلس ، كما عثر على مخلفات منه فى جزيرة العرب .

ولم يقتصر هذا الطراز على فترة معينة بل وجد فى عصور مختلفة ، وهذا الخزف ابتكار إسلامى صرف ، ويمتاز بأن طلاءه ذو بريق يشبه بريق الذهب أو المعادن .

وزعم البعض أن ابتكاره يرجع إلى الرغبة فى إشباع روح الترف عند المسلمين . مع مراعاة تعاليم الدين الذى نهى عن الأكل أو الشرب فى أوانى

---

(١) Dimand : A Handbook of Muhammadan Art, pp. 158 ff.

الذهب والفضة ، ومن ثم ابتكر الفنانون الإسلاميون خزفاً فاخراً له بريق الذهب يشبع حب الترف دون مخالفة الدين .

ومن أشهر أنواع هذا الخزف (خزف سامراء) ويرجع إلى القرن الثالث الهجرى وقد عثر عليه فى أطلال مدينة سامراء(١) .

وانتشر أسلوب سامراء فى أقطار كثيرة مثل العراق وإيران ومصر ، وعثر على نماذج منه فى جزيرة العرب ، ورغم وحدة الأسلوب بين النماذج التى وجدت فى هذه الأقطار ، فإن هناك بعض الاختلافات فيما بينها ، فمثلا يتميز خزف سامراء بخلو زخارفه من الكائنات الحية . أما الخزف الإيرانى فبعضه يشتمل على رسوم كائنات حية ، أما الخزف المصرى الذى يشبه أسلوب سامراء والذى يرجع بصفة عامة إلى العصر الطولونى ، فبعضه يشتمل على رسوم كائنات حية ولاسيما رسوم آدمية ذات وجوه متميزة مرسومة بأسلوب تخطيطى ولها عيون مستديرة وأنوف محورة مرسومة أحياناً بخطين رأسيين متوازيين ، هذا وقد عثر فى سامراً على بلاطات من الخزف ذى البريق المعدنى كانت تزخرف جدران بعض قصور سامراء ، وهى مرسومة ببريق معدنى ياقوتى اللون ، يوجد فى أغلب الأحيان مع اللون الأصفر والأخضر والذهبى والأرجوانى ويزين بعض هذه البلاطات رسم ديك داخل إكليل مضفر ، على أرضية صفراء مرمرية ، كما أن محراب سيدى عقبة بالقيروان بتونس يحفه بلاطات ذات بريق معدنى من طراز سامراء ، عددها ١٣٩ بلاطة ، وضعت على شكل إطار المحراب ، ويعتقد البعض أنها مستوردة من بغداد مع المنبر الخشبى لجامع القيروان ، ويرى البعض الآخر أنها

---

(١) دكتور فريد شافعى : زخارف وطرز سامرا . مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١ ص ٢١ — ٢٣ .

صناعة محلية وربما ترجع إلى عهد زيادة الله بن الأغلب من ٨١٧—٨٣٨ م ومن ثم فهى تسبق فى تاريخها مدينة سامراء (٢) .

هذا وقد ازدهرت صناعة أنواع أخرى من الخزف ذى البريق المعدنى تختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب سامراء ، نذكر منها ، الخزف ذا البريق المعدنى فى مصر من العصر الفاطمى ، وفى إيران من العصر السلجوقى ، وفى الرقة والشام من العصر السلجوقى وعصر الأتابكة وفى بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى والقرن الرابع عشر والخامس عشر ، ولكل نوع من هذه الأنواع أسلوبه المتميز .

وبالإضافة إلى الخزف ذى البريق المعدنى عرف العالم الإسلامى أنواعاً أخرى من الخزف نذكر منها :

أولا — (ا) فى إيران(١) : من القرن ٨ و ٩ م .

١ — الخزف المرقش أو تقليد خزف (طنك) الصينى ويرجع إلى القرن ٨ ، ٩ الميلادى .

(ب) من القرن ١١ م :

٢ — خزف أبيض : وهو محفور حفراً غائراً ، أو محزوز أو مخرم يترسب فى خرومه الطلاء الأبيض فيسدها ويرجع هذا النوع من الخزف إلى القرن ١١ م ، ويشبهه نوع آخر ذو طلاء فيروزى أو أخضر .

٣ — خزف كبرى : وهو خزف ذو رسوم محفورة أو مكشوطة يطلى بطلاء سمنى أو أخضر يترسب فى الأجزاء المحفورة أو المكشوطة ، فيصبح لونه أكثر دكنة وتشتمل زخارفه عادة على رسم حيوان أو طائر يملأ باطن الإناء ، ومرسوم بأسلوب محور .

---

(١) أسست سامرا سنة ٨٣٦ م .

(٢) Dimand, op . cit ., p . 158 .

فيه حيوية ، ويعتقد أنه سمى بهذا الاسم نسبة إلى جماعة وثنية تسمى بهذا الاسم .

٤ — خزف لقبي : وهو خزف أبيض ذو زخارف محفورة ومرسومة بطلاء ذى ألوان مختلفة مثـــل الأزرق والذهبي والفيروزى والأخضر والأرجوانى .

٥ — أوان وبلاطات مرسومة بالبريق المعدنى :

وهى مزخرفة بألوان ذهبية باهتة مخضرة أو بنية داكنة محمرة ، وذلك فوق دهان أبيض أو أزرق ذهبي أو فيروزى .

(ج) من القرن ١٢ و ١٣ م :

٦ — خزف ميناْئى (١) :

زخارفه مرسومة فوق الدهان الأبيض أو الأزرق الزهرى أو الفيروزى بعدة ألوان ، يوجد من بينها أحياناً التذهيب ، كما يوجد أيضاً زخارف بارزة مذهبة ، وبصفة عامة يرجع الخزف من هذا النوع ذو الرسوم الكبيرة إلى قاشان ، وذو الرسوم الصغيرة إلى الرى ، وتشبه رسوم هذا الخزف بصفة عامة رسوم المخطوطات .

٧ — خزف ذو بريق معدنى :

ويشتمل هذا النوع من الخزف على رسوم تشبه رسوم خزف ميناْئى ، وكثير منها يشتمل على موضوعات قصصية مثل قصة بهرام كور ، وأزده .

---

(١) Ibid ., p . 186

٨ — خزف ذو زخارف سوداء تحت طلاء شفاف أو أزرق شفاف:

أحياناً تكون زخارفه بارزة ويمكن اعتباره مقدمة لنوع من الخزف مشهور يسمى خزف (سلطانباد) .

٩ — خزف ذو طلاء أزرق زهرى أو أخضر وذو زخارف مجسمة .

(د) العصر المغولى من القرن ١٣ — ١٤ م :

١٠ — فسيفساء خزفية : شاع استعمالها فى العصر المغولى فى إيران ومن المرجح أنها عرفت أولا فى عصر سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ثم تطورت فى القرن ١٤ م وبلغت آخر مراحل تطورها فى أصفهان .

١١ — خزف سلطانباد (١) :

وهو خزف مرسوم تحت طلاء سمنى أو أزرق أو فيروزى باللونين الأسود والأزرق .

(ه) العصر التيمورى من القرن ١٥ م :

١٢ — خزف تقليد البورسلين :

(و) العصر الصفوى : القرنين ١٦ — ١٧ م :

١٣ — خزف كوبجى : وهو خزف متعدد الألوان مرسوم تحت الطلاء .

١٤ — خزف تقليد البورسلين : وزخارفه صينية الأسلوب ، وطينته ضعيفة الاحتمال بنية اللون ، ويتميز أحيانا بوجود أحرف صينية زائفة .

---

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ٢٠٣ .

(ز) القرن ١٨ — ١٩م :

خزف كبرون(٢) : وهو ثغر إيرانى على الخليج العربى ينسب إليه مجموعة من الخزف الأبيض تقليد البورسلين ومن المرجح أن هذا الثغر لم يكن موطناً لصناعة هذه المجموعة .

ثانياً : فى الرقة :

١ — خزف ذو بريق معدنى ، وينسب إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر .

٢ — خزف ذو زخارف سوداء تحت طلاء أزرق من القرن ١٣ م .

ثالثاً : فى مصر :

١ — خزف فاطمى ذو بريق معدنى(١) ، يتميز بوجود توقيعات كثيرة مثل « مسلم وسعد » .

٢ — خزف متعدد الألوان ، من العصر الأيوبى ، وزخارفه متعددة الألوان مرسومة تحت الدهان ورسومه باللون الأزرق الداكن والأخضر والأسود على أرضية بيضاء .

٣ — خزف مرسوم تحت الطلاء ، وهو ذو صلة وثيقة بخزف سلطانباد وتظهر عليه كثير من التوقيعات وتقل فيه الرسوم الآدمية ويرجع إلى عصر المماليك . ومن التوقيعات التى تظهر عليه اسم (غيبى) .

٤ — نخار مطلى بالميناء ، ويرجع إلى عصر المماليك وتشتمل زخارفه أحيانا على كتابات نسخية ورنوك .

رابعاً : فى تركيا العثمانية :

١ — خزف أزنيق : وكانت أزنيق أهم مركز فى آسيا الصغرى فى القرنين ١٦ — ١٧م واشتهرت بنوع من الخزف ذى زخارف مرسومة تحت الطلاء وألوان زخارفه الأزرق الذهبى والأزرق الفيروزى . والأخضر والأصفر ،

(١) Aly Bahgat et Félix, Massoul, La Céramique Musulmane de l'Egypte, pls. VIII — XXXIII.

والأحمر الطماطمى ، وهذا اللون لون مميز للخزف التركى ، وكان يصنع من الطمى الأرمنى المحمر ، وكانت توضع منه طبقة سميكة وتشتمل زخارفه على مراوح نخيلية ، وزهرة القرنفل وغيرها من الأزهار والورود ، ومنذ القرن السابع عشر أخذت رسومه تحاكى الطبيعة ، وبدأ تدهور هذا النوع من الخزف فى القرن الثامن عشر ، وحل اللون البنى المحمر على اللون الأحمر الزاهى الطماطمى ، وأصبحت ألوانه باهتة .

٣ — الخزف السورى : ويرجع إلى القرنين ١٧ — ١٨ م وفيه حل اللون الأرجوانى محل اللون الأحمر الطماطمى ، وتمتاز رسومه بالرشاقة والتأنق وينسبه البعض إلى دمشق والبعض الآخر ينسبه إلى الأناضول .

٤ — خزف آسيا الصغرى : من القرن ١٤ — ١٧ م .

وهو خزف ذو رسوم تحت الطلاء مرسومة باللون الأزرق والأبيض تقليدا للبورسلين الصينى ، من أسرة منج .

ويلاحظ أنه شاع استخدام بلاطات الخزف من شتى الأنواع فى العصر التركى (١).

خامساً : فى أسبانيا :

١ — وقد عثر على أقدم أنواع الخزف الأسبانى الإسلامى فى مدينة الزهراء قرب قرطبة وهو ذو بريق معدنى ، ويرجع إلى القــــرن العاشر الميلادى ، ويعتبر أقدم أنواع الخزف الإسلامى التى عثر عليها فى أسبانيا ، ويشبه خزف سامراء وإيران ذا البريق المعدنى .

٣ — خزف ذو بريق معدنى : من القرن ١٤ — ١٥ م ، عثر عليه فى

(١) انظر بلاطة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة (سجل رقم ٣٢٥١) .

مدينة مالقة وغرناطة ، ومن أشهر أنواعه قدور الحمراء ، وترجع إلى القرن ١٤م، ويتميز خزف مالقه بالبريق المعدنى الذهبى ، وخزف غرناطة بالبريق المعدنى الذهبى والأزرق .

٣ — خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بعد الميلاد ظهر نوع من الخزف فى بلنسية ويشتمل على عناصر زخرفية مستمدة من الفن القوطى وهو ذو لون أزرق عليه صور حيوانات تتميز بالرشاقة وكتابات قوطية بالإضافة إلى تفريعات عنب وشعارات أسر أوربية .

٤ — فى القرن السادس عشر انتقلت صناعة الخزف فى منيشه من أيدى المسلمين إلى أيدى النصارى(١).

الورق :

ومن الصناعات التى ازدهرت ازدهارا كبيرا فى العالم الإسلامى وكان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة سواء فى الشرق أو فى الغرب صناعة الورق .

ويعزى اختراع الورق إلى الصين التى يقال إنها ظلت محافظة على سر صناعته شأنه فى ذلك شأن الحرير . غير أنه حدث فى سنة ١٣٥هـ (٧٥١م) أن وقعت معركة عند سمرقند بين القوات الصينية وبين القوات العربية بقيادة زياد بن صالح ، وأسفرت المعركة عن انتصار العرب وهزيمة الصينيين وكان ضمن أسرى الصينيين بعض صناع الورق ، ومنهم ألم العرب بأسرار هذه الصناعة(١).

---

(١) Dimand, op. cit., pp. 226 — 229

(١) يذكر الأستاذ كريسويل أن المسلمين عرفوا صناعة الورق على يد صناع ، =

وأياً ما تكون الصحة فى هذه القصة فإن الورق لم تصبح له أهمية حضارية كبيرة إلا بعد أن صنعه العرب .

ويقال إن إنشاء مصانع الورق بدأ فى سمرقند وفى شمال شرق العالم الإسلامى ثم أخذت مصانع الورق تنتشر غربا : فأنشئت فى بغداد ، ثم فى سائر أقطار العالم الإسلامى ، وعن طريق العرب انتقلت صناعة الورق إلى أوروبا حيث كان لها أثر كبير فى النهضة الأوربية ثم فى اختراع الطباعة .

= الورق الصينيين الذين أسرهم أبو مسلم فى وسط آسيا فى سنة ٧١٢ م . انظر :
Creswell (K. A. C.), A Bibliography of the Architecture, Arts and Crafts of Islam, no. 1095.

الفصل الرابع

المدن الإسلامية

عنى العرب المسلمون بنشر العمران فى الأقطار التى دخلوها . وكان من أهم وسائلهم إلى ذلك إنشاء المدن الجديدة[1] . ولقد بلغ عدد المدن الجديدة التى أسسها العرب حتى نهاية العصر الأموى نحو خمس وعشرين مدينة ، ومن هذه المدن البصرة والكوفة وواسط فى العراق ، والفسطاط فى مصر ، والقيروان فى شمال أفريقية .

وسار العباسيون على الخطة نفسها : إذ أنشىء فى عهدهم كثير من المدن الجديدة كما عمرت مدن أخرى قديمة . ومن المدن التى أنشئت فى العصر العباسى الهاشمية فى العراق ، والعسكر وتنيس والقطائع فى مصر ، ورقادة وسوسة ووهران وفاس فى بلاد المغرب . أما المدن القديمة التى حظيت بازدياد العمران فأكثر من أن تحصى ، ونذكر منها على سبيل المثال مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وحلب .

وبالإضافة إلى المدن شيد المسلمون القصور الضخمة بملحقاتها ومرافقها اللازمة ، وانتشر هـــذا النوع من القصور فى العصرين الأموى والعباسى وغيرها : ومن أشهرها قصر الحير الشرقى وقصر الطوبة فى العصر الأموى وقصر البلكوارة فى العصر العباسى[2] .

ولم تكن هذه المدن والقصور تنشأ اعتباطا بل كان يجرى تأسيسها حسب تخطيط مسبق سواء من حيث اختيار الموقع أو التنظيم أو البناء أو التحصين .

---

(١) دكتور فريد شافعى : العمارة والبيئة العربية الإسلامية ـ الدارة ، العدد ٢ ص ٣٢ .

(٢) Creswell (K. A. C.), Early Muslim Architecture, I, II

هذا وقد اشتهر فى العالم الاسلامى عدد من المدن فاق عمرانها عواصم الدول الأخرى المعاصرة غير الإسلامية .

ومن أهم المدن التى أنشئت فى العالم الإسلامى سواء من حيث العمارة أو الحضارة كانت مدينة الفسطاط وبغداد وسامرا .

الفسطاط

لم يلبث عمرو بعد أن استقرت الأمور فى الاسكندرية أن رجع إلى بابليون حيث أسس فى سنة ٢١هـ(٦٤٢م) مدينة لتكون عاصمة لمصر : هى الفسطاط التى تعتبر بحق أصل القاهرة الحالية .

ويقال إن عمراً كان قدأراد أن يتخذ الاسكندرية مركزاً لحكمه وقال حين استولى عليها « مساكن قد كفيناها » غير أن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من ذلك حتى لا يفصل ماء بينه وبين المسلمين مما اضطر عمرا أن يؤسس مدينة جديدة عند بابليون هى الفسطاط .

كما يقال أيضا إن تأسيس مدينة الفسطاط كعاصمة كان أفضل من اتخاذ الاسكندرية وذلك إرضاء للمصريين الذين بغضوه فيها باعتبارها ترمز إلى ظلم الرومان واضطهادهم لهم .

غير أنه من الواضح أن موقع الفسطاط كعاصمة أنسب كثيراً من الاسكندرية من أنواع أخرى كثيرة لا تخفى على فطنة قائد محنك مثل عمر الذى كان قد سبق له أن زار مصر من قبل للتجارة وألم بظروفها السياسية والاجتماعية والجغرافية .

إذ أنه بدخول العرب مصر واستقلالها عن الامبراطورية البيزنطية فقدت الاسكندرية أهميتها كمركز يتصل بحراً بطريق مباشر بالقسطنطينية عاصمة الامبراطورية بل صارت على العكس موضع تهديد ومركز خطر لأعداء هذه الامبراطورية فى مصر .

ولذا كان من الأسلم للعرب أن يبتعدوا عن الاسكندرية التي كانت في ذلك الوقت موطن العناصر الأجنبية الحاكمة ومركز الثقافة اليونانية الرومانية وأن يقيموا عند بابليون في قلب مصر حيث العناصر الوطنية المسالمة التي كانت تنظر الى العرب كمنقذين لهم من ظلم الرومان واضطهادهم المذهبي (١).

وبالإضافة إلى ذلك كان موقع الفسطاط يجمع بين مزايا عديدة فمن جهة يمكن الاتصال منه مباشرة بالمدينة مركز الخلافة الإسلامية في الحجاز عن طريق الصحراء التي اعتاد العرب سلوكها.

وفي موقع بابليون كان في استطاعة العرب أن يؤسسوا مدينة جديدة حسب تقاليدهم الإسلامية وعلى نمط ماسارت عليه جيوشهم قبل ذلك في العراق حين أسسوا مدينة البصرة سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) ومدينة الكوفة سنة ١٦ — ١٧ هـ (٦٣٧ — ٦٣٨ م).

ومن جهة أخرى كان الموقع الجديد يمتاز بحصانة طبيعية إذ تحميه التلال من الشرق والشمال وتحميه من الغرب خندق مائي طبيعي هو: نهر النيل الذي كان في الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب.

ومن المحتمل أن عمرو بن العاص حين سمح لبني وهدان ومن والاهم أن يقيموا على الضفة الغربية من النيل حيث بني لهم حصنا في الجيزة يعتصمون به عند الخطر كان يهدف من وراء ذلك إلى زيادة تأمين هذا الجانب الغربي لمدينة الفسطاط.

ولذا لم يبق للفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب شمالي. ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب وربما كان السبب في ذلك أن عمراً لم يخش

(١) دكتور حسن الباشا: قبل أن تكون القاهرة — القاهرة: تاريخها، فنونها، آثارها. ص ١٠.

تعرضه للأخطار من هذا الجانب نظراً إلى أن الطريق إليه يمر بأقطار يحكمها العرب أى أنها كانت على العكس مصـــدر الأمان للفسطاط وطريق الإمدادات إليها كما أن هذا الجانب كان المجال الطبيعى لامتداد المدينة ونموها فيما بعد(١) .

وأياً ما كانت الظروف التى حدت بعمرو بن العاص إلى أن يؤسس عند بابليون عاصمة مصر العربية فإن هـذا الموقع الذى اختاره عمرو أثبت ببقائه موقع العاصمة المصرية حتى اليوم توفيق عمرو فى اختياره .

هذا وقد صار يطلق على هذه المدينة الجديدة اسم الفسطاط ويقول القلقشندى إنهـا بضم الفاء ويقال فيها فستاط وفساط بتشديد السين ويقول الجوهرى إنه يجوز كسر الفاء فيها جميعاً .

ولقد ثار بين الباحثين خلاف بشأن تسمية المدينة بالفسطاط . ويتفق جمهور الرواة الأقدمين أنه أطلق عليها اسم فسطاط عمرو أى خيمته. وذلك أن عمراً لما فتح الحصن المعروف بقصر الشمع فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة واستولى عليه ضرب فسطاطه للرحيل فإذا بحمام قد أفرخ فيه فقال : « لقد تحرم منا بحرم » ، وأمر بإقرار الفسطاط مكانه ، وأوصى على الحمام وسار إلى الاسكندرية ففتحها ثم عاد إلى فسطاطه ، ونزل به ونزل الناس حوله ، وبنى داره بجوار الجامع العتيق مكان فسطاطه ، وبنى الناس حوله . ومن هنا سميت المدينة التى أنشئت بالفسطاط (٢) .

غير أن بعض العلماء المحدثين يعتبرون هـذه القصة أسطورة من نسيج الخيال ومن نمط الأساطير التى تحاك عادة حول تأسيس بعض المدن أو تشييد بعض المؤسسات .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٦ .

ويعتقد بعض المستشرقين أن كلمة فسطاط قد اشتقت من أصل يونانى هو (فسطاطوم) اسم المدينة أو الحصن أو الخندق الذى كان عند بابليون حرفه العرب إلى فساط ثم فسطاط غير أن هذا الزعم لا يسنده أى دليل من التاريخ ولا يتفق مع منطق الأحداث .

وهناك رأى آخر يقول إن الفسطاط ومعناها الخيم قد أخذت من الخيم الذى كان قد نصبه جيش عمرو عند محاصرته حصن بابليون وقد صار يطلق على المدينة التى شيدت مكانه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن (فسطاط) لفظة عربية كانت تطلق أيضاً على المدينة ومجتمعها . وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط » أى مع المدينة التى بها مجتمع الناس . ومما له دلالته أيضاً أن البصرة أيضاً كان يقال لها الفسطاط[1] ولذا فمن المرجح أن العرب قد أطلقوا على المدينة التى أسسوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة كما أطلق على البصرة أيضاً الاسم نفسه وكما أطلق من قبل على يثرب اسم المدينة . وقد ذكرت فى القرآن الكريم بضع مرات مثل « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله »[2] .

وفى ضوء روايات المؤلفين العرب الأقدمين وبحوث العلماء المحدثين صار من المتيسر تحديد موقع الفسطاط كما صار من الممكن إلى حد ما تصور تخطيطها ومدى عمارها .

ومن أشهر المؤلفين العرب الذين كتبوا عن الفسطاط ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) وابن دقماق (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) وابن سعيد الأندلسى (المغرب) والقلقشندى (صبح الأعشى) والمقريزى (الخطط)

---

(١) ابن منظور : لسان العرب (المادة) .

(٢) سورة التوبة آية ١١٩ .

أما العلماء المحدثون فأهمهم على بهجت وجبريل (كتاب حفريات الفسطاط) وكازانوفا (طبوغرافية الفسطاط) وفريد شافعى (عمارة مصر العربية) وجمال الدين الشيال (تاريخ مصر الاسلامية).

وكما فعل العرب عند تأسيس البصرة والكوفة بدأ عمرو ببناء مسجد وشيد إلى جواره دارا له ، وأسند عملية توزيع الخطط بين جماعات القبائل إلى أربعة نفر من العرب ، هم لمعاوية بن حديج التجيبى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى ، وشريك ابن سمى الغطيفى . وعمرو بن قحزم الخولانى ، فوزعوا الأراضى حول الجامع على جماعات القبائل : فاختط هؤلاء الخطط وبنوا الدور والمساجد وسميت هذه الخطط بأسماء القبائل أو الجماعات التى اختطتها: مثل خطة تجيب وخطة مهرة وخطة لخم وغيرها .

ويتضح من أسماء بعض الخطط اشتراك جند من غير العرب فى فتح مصر من ذلك مثلا خطة الفارسيين ، وكانوا من بقايا جند باذان : عامل كسرى ملك الفرس على اليمن ، وخطط الحمراوات وقد سميت بذلك لاشتراك بعض الروم فيها وكانوا حمر الألوان . وكان منهم بنو نبه وبنو الأزرق وقد حضر الفتح من بنى الأزرق أربعمائة رجل وكان ينزل معهم بنو يشكر ، وقد نسب إليهم جبل يشكر (١) الذى شيد عليه جامع ابن طولون فيما بعد .

وكانت من أعظم الخطط وأوسعها خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وقبائل أخرى لم يكن لكل من العدد لأن ينفرد بخطة ، فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها لأحد فعرفوا بأهل الراية .

وأخذ أهل الخطط يشيدون المنازل والمساجد وامتدت حول الجامع نحو الشرق والشمال والجنوب .

---

(١) ابن دقماق الانتصار ج ٤ ص ٤ — ٥ .

وكان بين هذه الخطط دور جماعة من الصحابة اشتركوا فى فتح مصر مثل دار عمرو بن العاص ودار الزبير بن العوام ودار يعقوب القبطى ودار جبر القبطى وكانا قد صحبا السيدة مارية القبطية إلى المدينة حين أهداها المقوقس للنبى صلى الله عليه وسلم .

كانت خطط الفسطاط يحدها من الغرب مجرى نهر النيل (١) الذى كان يسير فى ذلك الوقت بجوار الجانب الغربى لحصن بابليون إلى جامع عمرو حيث يمر فى غربيه مباشرة ثم يتجه إلى موقع مشهد السيدة زينب الحالى ، وكان يحدها من الشرق عين الصيرة ومن الجنوب الشرف المطل على بركة الحبش عند دير السلام حاليا ومن الشمال جبل يشكر الذى شيد عليه فيما بعد جامع ابن طولون : أى أن الفسطاط كانت تشغل مساحة طولها من الشمال إلى الجنوب حوالى خمسة آلاف متر وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ألف متر .

ونظراً إلى أن هذه المساحة كانت أوسع كثيراً من أن تقتصر على جند عمرو الذى كان عددهم حسب بعض الروايات اثنى عشر ألف جندى فقط فإن بعض العلماء يحاول أن يستنتج من ذلك أن دور هذه الخطط كانت على درجة كبيرة من الاتساع وأنها كانت منعزلة بعضها عن بعض ولا تتلاصق الا بالقرب من الجامع فقط ، وانها كانت يزيد انعزالها كلما بعدت عن الجامع غير أنه من المرجح أن الخطط قد شملت هذه المساحة الكبيرة حتى تتسع أيضا للسكان الأصليين من القبط الذين كان بعضهم من غير شك يعيشون من قبل فى ذلك المكان والذين قدم بعضهم الآخر ليقوم بأعمال الصناعة والتجارة مع المستوطنين الجدد . ولقد ذكر المؤرخون العرب أنه كان بموقع الفسطاط عدة كنائس وديارات للنصارى ومن المستبعد إقامة كنائس عدة فى مناطق خالية من السكان .

---

(١) Casanova (p.), Essai de reconstitution topographique de la Ville d'al Fustât ou Misr, plan III

(٢) ومع ذلك فإن المقريزى يذكر أنه لم يكن فى هذه المنطقة من المبانى سوى حصن بابليون . انظر خطط ج ١ ص ٢٨٦ .

وكان جامع عمرو حين أسس يقع على شاطىء النيل الشرقى فى منطقة بها أشجار وكروم، وكان يشغل مساحة طولها خمسة وعشرون متراً وعرضها خمسة عشر ويقال إنه اشترك فى تحرير قبلته ثمانون رجلا من الصحابة وقيل ثمانية فقط(١) ومع ذلك قيل إن هذه القبلة انحرفت نحو الشرق أكثر مما يجب وكان بمقدم قبلته عمد قائمة بصدر الجدار، وكان له بابان فى كل من جوانبه فيما عدا جدار القبلة، وكان منها بابان يقابلان دار عمرو فى شرقى الجامع وكان طولها يساوى طول المسجد من قبليه إلى بحريه وكان بين المسجد وبين دار عمرو طريق عرضه نحو ثلاثة أمتار ونصف. وقد استوحى عمرو فى تخطيط المسجد والدار والعلاقة بينهما مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وداره فى المدينة.

ويقال إنه لما فرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرا يخطب عليه فأمره عمر بكسره وكتب: «أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك».

ولقد توالت على جامع عمرو كثير من العمائر حتى أنه لم يبق من الجامع الأصلى، الذى بناه عمرو غير البقعة من الأرض التى شيد عليها، وتوجد هذه البقعة فى رواق القبلة فى النصف الشمالى من المسجد أى على يسار الواقف أمام المحراب الأوسط ومتجها نحو القبلة(٢)

وكانت بيوت الفسطاط فى أول الأمر تحيط بجامع عمرو من ثلاث جهات فقط نظرا إلى أن النيل كان يجرى فى غربيه مباشرة كما سبق أن ذكرنا أن المساحة الواقعة بينه وبين النيل كانت تتسع تدريجيا كلما انحرف مجرى النيل إلى الغرب ومن ثم أخذت هذه المساحة تتسع لبناء بيوت جديدة وهكذا صارت بيوت الفسطاط تحيط بالجامع من جميع نواحيه، وتبلغ المسافة بين

---

(١) محمود أحمد: جامع عمرو بن العاص ص ٥.

(٢) دكتور حسن الباشا: جامع عمرو. القاهرة ص ٤٠٤.

جامع عمرو والنيل حاليا نحو خمسمائة متر وهى المسافة التى انحرفها النيل منذ ذلك الوقت .

ومن المرجح أن دور الفسطاط كانت متسعة وكانت مشيدة بالطوب غير أن بعضها كان مبنيا بالحجارة ، وربما استخدم اللبن أو الطين أحيانا فى البناء ولا سيما فى الأطراف ولقد كشفت بعض الحفائر التى أجريت حديثاً بالقرب من مسجد أبى السعود الجارحى عن بعض جدران من الطين قد يرجع إلى عصور مبكرة .

وكان بالفسطاط ميادين وأسواق كما أسس بها مصانع مختلفة وكان بها عدد من المساجد والحمامات[1] كما كان لها ميناء على النيل زادت أهميته بعد أن حفر عمرو الخليج الذى صار يصل النيل بالبحر الأحمر عند القلزم أو السويس .

وفى سنة ٥٤هـ (٦٧٤م) أنشىء فى جزيرة الروضة مقابل الفسطاط صناعة العمائر والسفن ولذلك سميت جزيرة الصناعة ثم غلب عليها اسم الروضة وكان بينها وبين الفسطاط جسر ممتد من المراكب .

وفى سنة ٦٩هـ (٦٨٨م) أقيمت على الخليج قنطرة كانت تفتح عند وفاء النيل ، وكان مكانها بين قناطر السباع (موقع المشهد الزينبى) وبين قنطرة السد (موقع كنيسة مار مينا) .

وفى عصر الولاة الأمويين أخذ عمران الفسطاط فى الازدياد إلى أن تعرضت المدينة لبعض أعمال التدمير فى نهاية العصر الأموى أثناء مطاردة جيوش العباسيين لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٣٢ هـ

---

(١) ابن دقماق : المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠ و ١٠٥ — ١٠٧ .

(٧٥٠م) وكان التخريب الذي نال المدينة على يد الأمويين الهاربين أشد مما نالها على يد العباسيين القادمين : ذلك أن الأمويين عمدوا إلى التخريب كوسيلة من وسائل تعويق الجيوش العباسية عن المطاردة أو حقدا منهم أن يتركوا هذا العمار ينعم به العباسيون .

وكان من جراء هذه الأحداث أن خرب الجانب الشمالي من الفسطاط مما يلي جبل يشكر وخلا من العمار .

وتمت الغلبة للعباسيين في مصر على يد صالح بن على قائد جيوشهم الذي قام بمطاردة مروان بن محمد في مصر وتمكن من قتله ، واستقر صالح بن على كأول وال على مصر من قبل الخلافة العباسية الجديدة(١)

ولما خلفه الأمير أبو عون في ولاية مصر شرع في سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢م) في تأسيس مدينة جديدة في الجانب الشمالي من الفسطاط الذي كان قد أصبح فضاء قفرا . ونظرا إلى أن هذه المدينة أسست لإيواء العسكر العباسي فقد سميت بالعسكر .

وكان حد العسكر من الجنوب عند كوم الجارح ومن الشمال قناطر السباع ومن الغرب قنطرة السد ومن الشرق تلال المقطم .

وقد شيد في العسكر دار للإمارة ظل ينزلها الولاة العباسيون ، وبنى بها الفضل بن صالح في سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) مسجداً لم يكتب له البقاء ، وفي سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) أثناء ولاية السرى بن الحكم سمح للناس بالبناء حول العسكر فكثرت بها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط وشيدت الدور العظيمة .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان يطلق على هذه المدينة في ذلك الوقت

(١) الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة ص ٨٣ - ٨٥ .

أيضاً اسم مصر وذلك من باب إطلاق اسم القطر كله على العاصمة كما يطلق على دمشق اسم الشام .

ويؤكد هذه التسمية أنه قد عثر بحفائر الفسطاط على قطعة من الزجاج مؤرخة سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م)، نقش عليها أنها صنعت « بمصر »[1].

كما وصلنا دينار مؤرخ سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) نقش عليه أنه ضرب فى مصر، بل وصلنا مسكوكات نحاسية من الفلوس يرجع أقدمها إلى سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) نقش عليها اسم « مصر »[2] .

وظلت العسكر عاصمة مصر ومركز الإمارة والإدارة والشرطة حتى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م) حين أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة هى القطائع اتخذها عاصمة له ومقرا للجيش والإدارة .

وجاء ابن طولون إلى مصر فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وكيلا عن باكباك صاحب إقطاعها ، وكان زوج أم أحمد بن طولون ، وكان من عادة أصحاب إقطاعات الولايات أن يقيموا بسامرا مركز الخلافة ويرسلوا عنهم وكلاء إلى ولاياتهم . ولما قتل باكباك منح إقطاع مصر لياركوج وكان صهر أحمد ابن طولون فأبقاه وكيلا له فى حكم مصر بل أطلق يده فيها حتى قال له (تسلم من نفسك لنفسك) فأسندت إليه ولاية الاسكندرية وخضع له صاحب برقة وبسط سلطانه على سائر أقاليم القطر المصرى . ولم يلبث ابن طولون أن استقل بحكم مصر ثم ضم إليه بلاد الشام[3] .

---

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٦ — ١٢٧٢٩ .

(٢) مجموعات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

(٣) Hitti, History of Syria, p. 558

وقد أقام ابن طولون فى أول الأمر بالعسكر ونزل دار إمارتها وأسس فيها مستشفى اشتهر بدقة أنظمته ، ولكنه فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) شرع فى تأسيس مدينة القطائع لتكون مركزا لحكمه ومقراً لجنده وحاشيته الذين اقتسموها فسميت بذلك القطائع . وربما كان تأسيس ابن طولون للقطائع مرتبطاً بأطماعه فى الاستقلال بحكم مصر .

وكما فعل أبو عون حين أسس العسكر فى الجانب الشمالى من الفسطاط أسس ابن طولون القطائع فى الطرف الشمالى من العسكر أو على الأصح فى الطرف الشمالى الشرقى[١] .

وكانت القطائع تقع من جهة بين جبل يشكر وهو الحد الشمالى للفسطاط وبين سفح جبل المقطم عند مكان القلعة حالياً وكان يعرف فى ذلك الوقت باسم قبة الهواء ، ومن جهة أخرى بين الرميلة تحت القلعة إلى « مشهد الرأس » الذى عرف فيما بعد باسم « مشهد زين العابدين » .

وقد بدأ ابن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) بتشييد قصر له تحت موقع القلعة فيما بين قلعة الجبل حالياً والمشهد النفيسى ثم أتم بناء مسجده المعروف فوق جبل يشكر فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ — ٨٧٩ م) كما يتضح من لوحة التأسيس التى وصلتنا ، وترك بين المسجد والقصر ميدانا واسعاً ، واختطت حاشيته وجنده دورها فى موقع المدينة حتى اتصلت بالعسكر والفسطاط .

وكما أنه لم يبق من فسطاط عمرو غير جامع عمرو فإنه لم يبق من قطائع ابن طولون غير جامع ابن طولون الذى — على العكس من جامع عمرو — قد وصلنا تقريباً بحالته الأصلية وذلك فيما عدا المئذنة التى أعاد بناءها السلطان لاجين فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٢ وما بعدها .

ويتميز جامع ابن طولون بزخارف جصية من طراز جديد بدأ ظهوره في عهد ابن طولون ويعتبر صدى لطراز الزخرفة الجصية التي ازدهرت في مدينة سامرا عاصمة الخلافة العباسية في ذلك الوقت . ويعتمد علماء الآثار الذين يقومون بالحفر والتنقيب في مناطق الفسطاط على ظهور هذه الزخارف الجصية في تاريخ المباني التي يكشفون عنها .

وقد شيد ابن طولون في الجهة الشرقية من القطائع قناطر المياه لاتزال بعض عقودها قائمة أشار إليها أحد الشعراء بقوله :

بناء لو أن الجن جاءت بمثله — لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

وقد ازداد عمار القطائع في عهد خمارويه بن أحمد بن طولون الذي كان بطبيعته شغوفا بالترف والبذخ والفنون .

وأنشأ خمارويه حديقة للحيوان كان فيها السباع والنمور والفيلة والزرافات والطيور وغيرها وجهز بيوتها بما يكفل لها الصحة والنظافة (١) .

غير أن أسرة طولون لم يكتب لها البقاء طويلا ، ففي سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) أرسل المستكفي بالله قائده محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش فاقتحم القطائع وقتل بني طولون وخرب قصورهم . ويقال إن محمد بن سليمان هدم القصر وقلع أساسه وخرب موضعه حتى لم يبق له أثر .

وسكن محمد بن سليمان الفسطاط وتبعه في ذلك من جاء بعده من الولاة العباسيين والاخشيديين . ولما استولى الفاطميون على مصر في سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) أسسوا القاهرة في الشمال الشرقي من الفسطاط وحصنوها بالأسوار

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٣ ص ٥٣ — ٥٩ .

وقصروا الإقامة فيها على الخليفة وحاشيته وحرسه ورجال الحكومة وحرموا سكناها على سائر الشعب

ولذا لم يؤثر تأسيس القاهرة في عمران الفسطاط وازدهاره بل على العكس تزايدت عمارته وأسست به الدور الأنيقة والمساجد القائمة والحمامات الباهية والقياسر الزاهية والمتنزهات الرائقة ورحل الناس إليه من سائر الأقطار وقصدوه من جميع الجهات وغص بسكانه وضاق فضاؤه الرحيب عن قطانه(١) .

وقد عمرت مدينة الفسطاط بالمصانع المختلفة التي كانت تسد حاجات سكانها وغيرهم من أهل مصر كما كانت تصدر الفائض من منتجاتها إلى الخارج.

وقد كشفت الحفائر التي أجريت في مناطق الفسطاط عن مصبغة يتضح مما تبقى من آثارها أنها كانت تقوم بأعمال الصباغة على نطاق واسع . كما عثر أسفل بعض الطرق على مجار ذات أقبية مما يدل على العناية بتنظيم وسائل الصرف .

كما كشفت الحفائر أيضاً عن مجموعة من الدور والطرق ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ — ١١م) استشف منها فكرة واضحة عن تصميمها في تلك الفترة .

وكانت الدار تتألف من عدة وحدات أهمها وحدة الاستقبال وكانت تتكون من فناء مربع مسقوف يقام في أحد جوانبه أو في جانبين متقابلين أو في جوانبه الأربعة إيوانات تفتح عليه وقد يكون بعض هذه الإيوانات ضحلا أو عميقاً وكان أحد الجوانب يتميز عادة بتصميم خاص إذ كان

(١) القلقشندى : المرجع السابق ج ٣ ص ٣٢٣ .

يتألف من إيوان رئيسى أوسط على كل من جانبيه حجرة وكان يتقدم الجميع سقيفة تفتح على الصحن خلال ثلاث فتحات [١] .

وكانت الدور تشتمل على مقاعد وملاقف ونافورات وسلسبيلات أو شاذروانات وأحواض للنباتات، كما كانت مداخلها فى معظم الأحيان منكسرة بزاوية قائمة حتى يختفى داخل الدار عن السائرين فى الطريق ، ولو كان الباب مفتوحاً كما زودت بعض الدور بممرات داخلية تمكن أهل الدار من التنقل بين أجزاء الدار دون المرور بالفناء الأوسط ، كما عثر فى بعض الدور على خزانات مياه تحت الأرض وكان الماء يجرى فى البيوت خلال أنابيب داخل الجدران

وكانت جدران الدور تكسى عادة بالجص المزخرف بالرسوم المحفورة والبارزة كما كانت تزخرف أحياناً بالصور المرسومة بالألوان المائية على الجص .

ولقد ظلت الفسطاط بعد تأسيس مدينة القاهرة مدينة الشعب ومقر الصناعات والمهن والتجارة ومزاولة الأعمال .

ولقد ترك لنا بعض من زار الفسطاط فى تلك الفترة وصفاً لمدى العمران الذى كانت عليه هذه المدينة قد يكون بعضه من باب المبالغة فى التقريظ غير أنه فى الوقت نفسه يشير إلى انطباعاتهم عن هذه المدينة ومدى ازدهار العمران بها .

وقد نكبت الفسطاط فى عهد المستنصر حين استمر القحط من سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) إلى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢م) وبلغ أوجه فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وانتشر فى مصر الوباء واختل الأمن وثارت الفتن مما اضطر المستنصر إلى

---

(١) حفريات الفسطاط . اللوحات ٨ — ١٩ .

أن يستغيث بأمير الجيوش بدر الجمالى[1] فقدم من عكا وحكم مصر باسم الخليفة . وكان من سياسته العناية بالقاهرة وإهمال الفسطاط بل إنه أباح للجند ولغيرهم من القادرين على البناء أن يستغلوا مبانى الفسطاط الخالية من السكان فى تشييد مبان لهم فى القاهرة وقد أدى ذلك كله إلى تخريب العسكر والقطائع وجزء كبير من الفسطاط وصار ما بين القاهرة ومصر خاليا من السكان وخرابا ولم يبق هناك إلا بعض البساتين .

ثم كانت الطامة الكبرى على الفسطاط حين أمر شاور بإحراقها سنة ٥٦٥ ﻫ (١١٦٩م) حتى لا تقع فى يد عمورى ملك بيت المقدس حين طمع فى الاستيلاء على مصر مما كان من جرائه أن تحولت الفسطاط إلى أطلال وكيمان ... ويصف المقريزى (الخطط جـ١ ص ٣٣٨ — ٣٣٩) كيف تم حرق الفسطاط فيقول إن شاور نادى بأن لا يقيم فى مصر أحد (وأزعج الناس فى النقلة فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم . وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولا واستمرت النار من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً ... كل ذلك والنهابة ينقبون فى المنازل فى طلب الخبايا ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى تلك الأطلال المعروفة » .

وعندما ولى صلاح الدين حكم مصر شرع فى بناء سور يضم القاهرة والفسطاط[2] وصار يطلق عليهما معا اسم القاهرة .

---

(١) ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٣٣

بغـــداد

بويع لأبى العباس السفاح فى مدينة الكوفة بالعراق حيث اتخذها مقراً لحكمه بدلا من دمشق التى كانت عاصمة الأمويين وبها أنصارهم ثم تحول إلى الأنبار حيث أسس مدينة اتخذها مقر حكمه سميت بالهاشمية .

وأقام أبو جعفر المنصور فى الهاشمية فى أول الأمر . ثم قرر أن يؤسس مدينة جديدة يتخذها مركزاً لحكمه . وكانت الخطوة الأولى هى اختيار الموقع. وقد قام المنصور برحلات كثيرة فى سبيل الاهتداء إلى المكان المناسب . وكان من الطبيعى أن يكون الموقع بصفة عامة أقرب إلى الولايات الشرقية حيث قامت الدعوة العباسية ووجد مؤيدوها . وقد وقع الاختيار على موقع قرية ساسانية قديمة تسمى بغداد ومعناها عطاء الله . ويقع هذا المكان فى أرض السواد الخصيبة بين العراق وإيران ، وتتقابل عنده طرق التجارة الرئيسية سواء عبر البر أو من البحر أو على طول النهر . كما يمتاز بحسن الجو صيفا وشتاء (١).

ومما يسترعى الانتباه أن هذا الموقع بالقرب من مدينة المدائن القديمة (طيسفون Ctestiphon) عاصمة الساسانيين . وكان هذا الاختيار يحمل فى طياته منذ البداية ميل العباسيين للفرس وللتقاليد الفارسية .

وبعد اختيار الموقع بدأت مرحلة الإعداد والتخطيط : فطلب أبو جعفر من ولاته أن يوافوه بأفضل من عندهم من العمال والخبراء فى تأسيس المدن والبناء والتعمير وزعم اليعقوبى فى كتاب « البلدان » أن المنصور كتب إلى كل بلد فى حمل من فيه ممن يفهم شيئا من البناء فحضره مائة ألف من أصناف المهن والصناعات » .

---

(١) بشير فرنسيس : بغداد تاريخها وآثارها عن المقدسى .

وقبل الشروع فى البناء خططت المدينة . واتبع فى ذلك طريقة معينة ، إذ رسم التخطيط بالرماد ، فوضعت كرات من القطن مشبعة بالنفط ثم حرقت هذه الكرات فتركت آثاراً ثم بدأ حفر أساس المدينة مكان هذه الآثار .

ويقال إنه أشرف على تصميم المدينة خمس من المهندسين واشترك فى بنائها أربعة من المشرفين كان أحدهم أبو حنيفة النعمان الذى يقال إنه كان يحسب الطوب بعد المداميك بواسطة مسطرة مدرجة .

وفى سنة ١٤٥هـ بدأ البناء وكان فى وقت اختاره نوبخت أحد رجال الفلك والتنجيم ، وفى سنة ١٤٦هـ نقل إلى المدينة بيت المال والديوان ، وفى سنة ١٤٧هـ تم البناء(١) .

وعرفت المدينة بعدة أسماء : هى بغداد ، ومدينة أبى جعفر ، والمدينة المدورة . أما الاسم الرسمى فكان مدينة السلام وسميت بالمدينة المدورة نسبة إلى تخطيطها الذى كان على هيئة دائرة . ويقول اليعقوبى إنه « لا تعرف فى جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها » . غير أنه يبدو أن مثل هذا التخطيط الدائرى قد عرف قبل ذلك . إذ يذكر علماء الآثار مدنا ذات تخطيط مدور ترجع إلى عصر أقدم من عصر بغداد : مثل سنجرلى من القرن الثامن قبل الميلاد ، واكبتانة(٢) من القرن السابع قبل الميلاد ، وهاترا من القرن الأول بعد الميلاد وحران من العصر البيزنطى ، ودارا بجرد وكان بها ثمانى طرق محورية ، ومن ثم فإنه من المحتمل تأثر تصميم بغداد بها .

---

(١) Creswell, Early Muslim Architecfure, II, port 2 . Taha Bagir, Baghdad, p. 3,

(٢) همدان الحالية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التصميم على هيئة دائرة يؤدى إلى توفير فى بناء أسوارها : ذلك أن محيط المساحة المدورة يقل طوله عن محيط مساحة مربعة مساوية لها بحوالى ١١ فى المائة.

هذا ويقال إن محيط المدينة المدورة كان ستة عشر ألف ذراع ، وقطرها ٥٠٩٣ (الذراع = ٥١,٨ سم) . وكان أساسها من الحجر ومبانيها بالطوب اللبن الذى كانت تبلغ مساحة الواحدة منه ذراعاً مربعة ، ووزنها ٢٠٠ رطل أما الأقبية والقباب فكانت من الآجر (الطوب الأحمر) كما استخدم الجص فى لحام المداميك .

وكان للمدينة سوران خارجيان بينهما فصيل أو فضاء . وكان ارتفاع السور الداخلى ٣٥ ذراعاً ، وسمكه من أسفل ١٠ أذرع ، ومن أعلى ٨ ½ ذراع ، وكان بهذا السور أبراج عددها ١١٣ برجاً . أما السور الخارجى فكان يحيط به خندق عميق عرضه حوالى ١١ ذراعاً أجرى فيه الماء من من قناة تخرج من نهر كرخايا[١] .

وكان للمدينة أربعة أبواب رئيسية محورية هما باب الكوفة فى الجهة الجنوبية الغربية ، وباب البصرة فى الجهة الجنوبية الشرقية ، وباب خراسان فى الجهة الشمالية الشرقية، وباب الشام فى الجهة الشمالية الغربية . وكانت مداخلها من النوع المنحرف أى أن الداخل من الباب لا بد أن ينحرف أثناء دخوله على زاوية قائمة . وهذه المداخل هى الأولى فى الإسلام من حيث هذا التخطيط ، وقد استخدم بعد ذلك فى البيوت الإسلامية . وقد وجد هذا النوع من المداخل فى العمارة المصرية القديمة .

(١) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ٧٧ — ٧٩ .

وكان للمداخل بوابات حديدية جلبت جميعها من مبان أقدم فيما عدا بوابة دمشق التى صنعت خصيصا لباب دمشق .

وفى وسط المدينة المدورة شيد قصر الخليفة ، وكان يعرف باسم باب الذهب أو قصر الذهب . وكان يعلوه قبة خضراء ارتفاعها ٨٠ ذراعا ، وفى أعلاها تمثال فارس بيده حربة[1] يقال إنه كان يتجه نحو الجهة التى يخرج فيها ثائر . ولو صح ذلك لما خلا وقت من خروج ثائر . وقد سقطت هذه القبة سنة ٣٢٩هـ (٩٤١م) .

وشيد لصق الحائط الشمالى الشرقى للقصر المسجد الجامع . وأقيم حول القصر والجامع قصور الأمراء ومقار الدواوين ، أما المناطق السكنية فكانت تقع فى المساحات الأربعة المحصورة بين المداخل الأربعة الرئيسية ، وكان فى كل قسم شوارع رئيسية يتراوح عددها بين ثمانية واثنى عشر شارعاً ، وكانت تتجه نحو قلب المدينة ، وينتهى كل شارع بباب على محوره .

هذا وقد بنى المنصور أيضاً قصر الخلد خارج الأسوار كما بنى فى شماله الرصافة لولى العهد .

وكان لميزة موقع بغداد بالإضافة إلى مركزها السياسى والاجتماعى ما أدى إلى سرعة عمرانها : إذ لم تقتصر المبانى على المدينة المدورة بل شيدت حولها الأحياء والقصور وامتد العمران عدة أميال على جانبى نهر دجلة . كما أقيمت المطاعم وأماكن الترويح على الضفتين . وكان يصل بين الجانبين جسور ثلاثة أقيمت عبر النهر على عوامات مشدودة بعضها إلى بعض .

(١) المرجع نفسه .

كما وجد فى نهر دجلة السفن والمراكب الكثيرة . وعرف منها نوع للنزهة يسمى بالحراقات . وكانت هذه الحراقات مشكلة على هيئة حيوانات وطيور مثل الأسد والفيل والعقاب والفرس والحية .

ومن الملاحظ أنه منذ حرب الأمين والمأمون زالت أسوار المدينة المدورة[1] وصارت بغداد كلها مدينة واحدة متصلة المبانى .

هذا وقد صحب اتساع عمارة بغداد ازدياد فى ثرائها وتحضرها وازدهار لها ولمجتمعها .

ونظراً لأن موقع بغداد كان داخل النفوذ الحضارى الفارسى فضلا عن اعتماد العباسيين على الفرس فى قيام دولتهم واستخدامهم للعناصر الفارسية فى جيوشهم وإدارتهم انتشر فى المجتمع البغدادى التقاليد الفارسية من أعياد واحتفالات وأطعمة وملابس وأصبحت مركزا لتصدير هذه التقاليد إلى باقى المدن الإسلامية . ومع ذلك فقد ظلت بغداد متمسكة بلغتها العربية وعقائدها الإسلامية .

ويبدو أن مدينة بغداد بلغت أوج عظمتها فى عهد الرشيد[2] . وساعدت انتصاراته الحربية على البيزنطيين على تأكيد عظمة عاصمته التى تسنى لها فى عهده أن تنتصر على منافستها الوحيدة فى مجال الحضارة والرخاء ونعنى بذلك القسطنطينية فى الدولة البيزنطية ، كما رجحت حضارتها بشكل واضح حضارة أقوى دولة فى أوروبا فى ذلك الوقت وهى دولة شارلمان ولقد أذهلت هدايا الرشيد حاشية شارلمان وبخاصة تلك الساعة التى حسبوها من أعمال السحرة .

---

(١) أشار الخزرجى إلى ما أصاب بغداد من خراب فى هذه الحرب . الطبرى ج ١٠ ص ١٧٩ .

(٢) من سنة ١٧٠ هـ إلى سنة ١٩٤ .

ولقد كان للخليفة العباسى فى بغداد بلاط فخم سواء من حيث العمارة أو الحاشية أو الحرس أو الحريم . وكانت قصور الخليفة تشتمل على قاعات العرش واستقبال السفراء ودواوين الحكم والإدارة ومجالس العلم والسمر واللهو والمنادمة ودور الحريم ومساكن الحرس والجند ومنازل الموظفين والمطابخ والاصطبلات والمخازن فضلا عن الحدائق والميادين والملاعب وغيرها . وكانت هذه المبانى من السعة بحيث كانت تكون ثلث المدينة المدورة.

وقد أثثت قاعات العرش والاستقبال ودور الحريم ومساكن كبار الموظفين بأفخم الأثاث والرياش ، ففرشت أرضها بأثمن أنواع السجاد والوسائد ، وجهزت بالستائر ، وأضيئت بالثريات والشمعدانات ، وزخرفت جدرانها بالصور الجميلة التى ابتدعها يد الفنانين . ويقال إن قصر الخليفة فى عهد المقتدر كان مفروشا باثنين وعشرين ألف بساط على الأرض . وثمانية وثلاثين ألف بساط على الحوائط ، منها ١٥٠٠ من الحرير المطرز بالذهب . وكان بالقصر شجرة مصنوعة من الفضة والذهب وزنها خمسمائة ألف درهم عليها تماثيل طيور من الذهب والفضة تتحرك وتغرد .

كما صارت بغداد مركزا تجارياً ترد إليها السفن المحملة بالمتاجر والقوافل من مختلف أقطار العالم من الصين شرقاً ومن أوروبا غربا وكذلك تصدر منها المنتجات المختلفة إلى شتى بقاع العالم . كما كان يفرد بها لكثير من أنواع السلع أسواق خاصة[1] .

وكانت طبقة التجار فى بغداد من أكثر طبقات المجتمع ثراء ، كما نافسوا كبار رجال الدولة فى الأخذ بأسباب الرفاهية .

ولم تكن بغداد مركزاً سياسياً وتجارياً فحسب بل كانت أيضاً مركزاً

(١) محمد الخضرى : المرجع السابق ص ٧٩ عن الخطيب البغدادى .

ثقافياً مزدهرا تنتشر منه الثقافة إلى سائر أنحاء الدولة بل وإلى أوروبا نفسها . وقد أسست فيها بيوت الحكمة والمدارس[1] وخزائن الكتب والبيمارستانات وازدهرت فيها حركة التأليف والترجمة ونشأ فيها أشهر علماء الإسلام . وقد قدر عدد سكان بغداد فى القرن الخامس الهجرى (١١م) بنحو ٣ ملايين نسمة وكان بها ٦ آلاف حمام و ٣٠ ألف زورق و٢٧ ألف مسجد .

كما ازدانت بغداد بأروع المواكب واحتفلت بالأعياد والمواسم . واستمتع القادرون من أهلها بحياة الترف واللهو ومختلف الألعاب الرياضية . فمارسوا رياضة الصيد وسباق الخيل وقذف الرمح ورمى القوس والمبارزة بالسيف ولعبة البولو واللعب بالكرة وبالمطارق الخشبية . كما أقاموا الولائم حيث كانت تقدم أشهى الأطعمة ، وسهروا فى الحفلات المسائية الراقصة . وعنوا بالمجتمعات الشعرية ومجالس العلم والأدب والمناظرة .

هذا ويجب ألا ننسى دور الفرد البغدادى العادى الذى كان عماد هذا الرخاء بكدحه وعمله وابتكاره فى صنعته وفنه . وكان هذا الفرد العادى شغوفاً بحب مدينته وليس أدل على ذلك من استماتته فى الدفاع عنها ضد جيوش المأمون .

ولم يقتصر سكان بغداد على المسلمين بل وجد بها كثير من أهل الذمة من النصارى واليهود . وقد حظوا جميعاً بعيش هانىء قلما وجدوا مثيله فى غير البلاد الإسلامية .

ولم تكن بغداد دائما فى سلام بل أحياناً ما كان يعتريها أحداث مثيرة

---

(١) أشهر هذه المدارس المدرسة النظامية (سنة ٤٥٧ هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١ هـ) . انظر ناجى معروف : علماء المستنصرية ص ١ وما بعدها .

مثل نكبة البرامكة ، والحرب بين الأمين والمأمون ، وثورات الجند ، وعسف الغلمان من الأتراك . وأدى بعض هذه الأحداث فى وقت ما إلى انتقال الخلافة إلى سامرا ، غير أن بغداد كانت لاتلبث أن تعود إلى سيرتها الأولى فتستأنف نشاطها وأفراحها .

وظلت بغداد عاصمة الخلافة طوال العصر العباسى ١٤٥ — ٦٥٦ ﻫ (٧٦٢ — ١٢٥٨) وذلك باستثناء فترة امتدت خمسة وخمسين عاما حين انتقلت الخلافة إلى مدينة سامرا (١) ، ثم لم تلبث أن رجعت إلى بغداد التى لم يتأثر عمرانها كثيرا فى تلك الفترة ، على عكس مدينة سامرا التى ما أن انتقلت منها الخلافة إلى بغداد حتى أخذت يدب فيها الخراب إلى أن تقلصت إلى قرية صغيرة ، وتهدمت عمائرها وأصبحت خرائب أثرية يحاول علماء الآثار فى العصر الحديث كشف آثارها المطمورة .

وبعد زوال الخلافة العباسية ظلت بغداد عاصمة للعراق فى مختلف عصوره ولا تزال كذلك حتى اليوم .

سامرا

كان من نتيجة استكثار المعتصم من مماليكه من الترك أن كثر النزاع بينهم وبين أهالى بغداد ، وضاق أهل بغداد بالأتراك ذرعا وكثرت شكاويهم منهم فما كان من المعتصم إلا أن عمل على نقل مركز الخلافة من بغداد . وكان المعتصم قد سبق أن شيد له قصر فى موضع يبعد عن بغداد شمالا بنحو ستين ميلا وكان قد وهبه لأشناس . وكان السفاح قد شرع فى بناء مدينة له فيه من قبل ثم بنى الرشيد قصرا بجوارها ، وحفر عندها نهرا سمى « القاطول » .

---

(١) من سنة (٢٢١ ﻫ إلى سنة ٢٧٦ﻫ (٨٣٦ — ٨٨٩ م) .

واختار المعتصم هذا الموقع ليشيد فيه عاصمته الجديدة وانتقل إليها فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) ويقال إنها سميت أول الأمر بسرور من رأى ، ثم اختصر الاسم إلى سر من رأى ، ولما خربت سميت ساء من رأى ، ثم اختصرت فقيل سامرا . غير أنه من المرجح أن موقع المدينة القديمة كان يعرف باسم قريب من سامرا . وقد أطلق عليها أيضاً اسم العسكر .

وخطت فى المدينة قطائع لأصحاب الحرف والجنود والقواد والكتاب وسائر أفراد الشعب . وكانت قطائع الجند بعيدة عن الأسواق وعن أحياء أصحاب المهن . واشترك فى بناء سامرا وعمارتها عمال من سائر الأقطار الإسلامية ثم نمت نمواً سريعاً .

وكان فى مركز المدينة المسجد الجامع ومئذنته الملوية[1] ويعتبر هذا الجامع أكبر جوامع العالم أما مئذنته فتختلف عن سائر المآذن بأن يصعد إليها بمنحدر يلف حولها من الخارج ولا يشبهها فى ذلك إلا مئذنة أخرى فى سامرا أيضا هى مئذنة أبى دلف ومئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة وكلتاهما متأثرة بالملوية من حيث التصميم . ومن المعتقد أن الملوية قد تأثرت بدورها ببناء الزقورة وهى من الآثار العراقية القديمة[2] .

وبنى المعتصم وخلفاؤه بسامرا القصور وجعلوا فيها البساتين والبحيرات والميادين .

وينسب إلى المعتصم والمتوكل فى سامرا بناء سبعة عشر قصراً ذكر ياقوت أسماءها وصارت هذه القصور مثالا احتذاه المهندسون فى بناء القصور فى العالم الإسلامى بعد ذلك .

---

(١) Creswel l K . A . C . Early Muslim Architectue, II .

(٢) دكتور حسن الباشا : تاريخ الفن فى العراق القديم ص ٤٨ .

ومن قصور سامرا قصر الجوسق الذى شيده المعتصم، والقصر الهارونى الذى شيده الواثق، وقصر العروس والقصر المختار والقصر الوحيد والقصر الجعفرى وينسب إلى المتوكل هذا وقد شيد المتوكل أيضاً مدينة شمال سامرا سماها الجعفرية اتصل البناء بينها وبين سامرا وضواحيها.

وأقام المتوكل فى قصور الجعفرية تسعة أشهر قبل قتله بتدبير من ابنه المنتصر الذى خلفه ورجع إلى الاقامة بسامرا مما أدى إلى خراب الجعفرية وقصورها.

ورغم ذلك فلم يعد إلى سامرا عظمتها الأولى ودب إليها الاضمحلال فى حكم المستعين والمعتز والمهتدى ثم شيد الخليفة المعتمد فى جانبها الشرقى قصر المعشوق. ثم تركها وأعاد مركز الخلافة إلى بغداد فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩م)، فدب إليها الخراب وهدمت مبانيها وصارت أكواما ولم يبق منها إلا المسجد الجامع ومئذنته الملوية. وتقلصت سامرا إلى قرية صغيرة بها قبر على الهادى (ت ٨٦٨ م) الإمام العاشر من أئمة الشيعة الاثنى عشرية، والسرداب الذى دخله محمد المنتظر (اختفى ٨٧٨م) الإمام الثانى عشر بالإضافة إلى قبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد. وينسب إليها الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر من أئمة الشيعة الاثنى عشرية (ت ٨٧٤م) [١].

ونظراً لخراب سامرا فانها تمثل من وجهة النظر الأثرية منطقة مهمة: وذلك لأن المناطق المهجورة تفوق المناطق المعمورة أهمية عند الأثريين: إذ أنه بإجراء الحفائر فى المناطق الخربة التى لم تستمر مأهولة بالسكان

(١) دكتور حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف جـ ٢ ص ٧٨٣ — ٧٨٤.

يمكن اكتشاف المخلفات الأثرية القديمة وذلك على عكس المدن المأهولة التى تندثر فيها عادة الآثار القديمة ليحل محلها مبان أحدث .

وقد جذبت منطقة سامرا أنظار الأثريين : فأجريت فيها حفائر تعتبر من أقدم أعمال الحفر الإسلامية ، وكشفت هذه الحفائر عن آثار عمائر وصور جدارية وتماثيل وزخارف جصية وتحف خزفية وزجاجية وغير ذلك من الآثار الإسلامية [١] وقد اتضح من هذه الآثار أن مدينة سامرا قد ازدهرت فيها الفنون والصناعات وجلبت إليها المنتجات من شتى الأنحاء وقد عثر على خزف صينى ضمن مكتشفات سامرا . كما يتضح من هـــذه المكتشفات أن الفن الإسلامى كان قد اتخذ فى هذا الوقت طابعه الخاص المتميز وبلغ مستوى عاليا من النضج الفنى [٢] ويعتبر فن سامرا فنا دوليا إذ انتشر فى سائر أقطار العالم الإسلامى . ومن المعروف أن جامع ابن طولون بنى فى القطائع على نمط المسجد الجامع فى سامرا ولا تزال مئذنته حتى اليوم تشبه فى بعض عناصرها الملوية فى سامرا كما سبق أن قدمنا ولو أن مئذنة ابن طولون الحالية قد عمرت فى عصور تالية .

ومما كشفت عنه حفائر سامرا آثار قصر الجوسق وملحقاته . واتضح من هذا الكشف أنه كان للقصر مدخل واحد كبير يسمى « باب العامة » . وكان له واجهة تطل على نهر دجلة وخلفها ثلاث قاعات تغطيها أقبية نصف أسطوانية ، ثم صحن مربع فى وسطه نافورة ، وعلى كل جانب من جوانبه ثلاث حجرات ثم قاعات الخليفة والحريم . أما قاعة العرش فكان قوامها

---

(١) Die Ausgrabungen Von Samarra.

(٢) انظر دكتور فريد شافعى : زخارف وطرز سامرا . مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١ ص ٢١ — ٢٣ .

بهوا مربعاً يحيط به من جهاته الأربع قاعات على شكل حرف T وجد على جدرانها كثير من الزخارف الجصية التي امتاز بها الطراز العباسي في سامرا وظهر تأثيرها في مصر في العصر الطولوني . وعثر في قسم الحريم بالقصر على بعض قاعات صغيرة للنظافة والغسل كان الماء الجاري يصل إليها في أنابيب من الرصاص أو الفخار ، كما وجد أن بعض هذه القاعات كانت تزخرف جدرانه صور مرسومة بالألوان المائية على الجص [1] ووجد أن صور سامرا قد وضعت النماذج التي استخدمها الفنانون في سائر أنحاء العالم الإسلامي والتي تطور منها فن التصوير الإسلامي في القرن السابع الهجري (١٣ م) .

هذا ومما عثر عليه في سامرا نوع من الخزف زخرف بأكاسيد معدنية بحيث صار له بريق يشبه المعـــدن ومن ثم اصطلح على تسميته بالخزف ذي البريق المعدني . وهو ابتكار اسلامي ويعتقد أنه بدأت صناعته في سامرا وانتقل منها إلى مختلف الأمصار الإسلامية مثل بلاد الشام وإيران ومصر وشمال افريقية والأندلس كما سبق أن ذكرنا عند كلامنا عن الخزف .

---

(١) انظر Die Malereien Von Samarra

الفهرس

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع ٤٤٤٦/١٩٧٥

